النساء وشجرة العائلة النجدية



النساء وشجرة العائلة النجدية

رواية

د. حامد العطية

1

احتقر كل شجرات العوائل، المرتشة والمزيفة، وأولها شجرة عائلتي، لكنها ترجتني، ومن ورائها خالها. سألوه عن سيرة أبيه، فحار ولجأ إلي.

بصراحة لا أطيق صعود الشجر وكل ما ارتفع عن سطح الأرض. في صباهم كل الريفيين في قريتي يتسلقون النخل ببراعة، وحتى عندما يعثرون ويسقطون يعاودون الصعود، وكأنه اختبار للرجولة، وما أكثر اختبارات الرجولة لديهم. حتى النساء كن يتسلقن النخل، أما أنا فاخترت نخلة هرمة تقوس جذعها، وكان تسلقها أقرب للمشي منه إلى التسلق، فطاردتني سخريتهم.

تسلقت الشجرة بحثاً عن جدها. أول ما استوقفتني الأسماء. يورثها الأجداد للأحفاد، وكأن البحث عن أسماء جديدة يرهقهم، أو يستحضرون موتاهم بالأسماء. بين كل جيل وآخر يولد عبد الله، ثم يموت ليقوم من بعده سميه، لذلك استبدلت اسماءهم، أو عمدتهم بالصفات، إلا من استحق الذكر لغاية في نفسي.

تذكرت حديثاً دار بينها وبين خالها الأكبر:

سألها: أتريدين نسخة من شجرة العائلة؟

اجابته بسؤال: وفيها والدتي؟

اجابها: بالطبع لا، هي للذكور فقط.

قالت: لا أريدها.

لو أصرت على موقفها لما صعدت الشجرة، لكنها عادت وقبلت.

ثم اكتشفت أن خالها وكل الذكور أمثاله واهمون، لأن شجراتهم مسكونة بالإناث أيضاً. لن تستدل عليهن بالروائح، فلا تتشمم عطراً فرنسياً ولا أبخرة طبيخ، ولكنهن حاضرات ولو من دون ذِكر، بالفعل لا بالاسم، ولن تجد اسما واحداً لامرأة على أوراق الشجرة، لكني تمعنت في المرسوم بالعروق النافرة خلف كل ورقة فتبينت صورة أنثى، ونظرت تحت اللحاء فشاهدتهن يمسكن بالغصون الغليظة التي تناطح الهواء، وكذلك الغضة التي يخشين عليها من الكسر، وهن أيضاً يقبعن عند الجذور، مشمرات الأردان، يقاومن جاذبية الأرض ليندفع النسغ إلى أعلى.

للنساء في هذه الشجرة نصيب غير منقوص، وإن أنكره الرجال، وأولهن نجمة، هي أشبه بنجمة على رأس شجرة ميلاد النصارى. النجمة جماد، وقد تكون في الشجرة بقية من حياة، لكن لا تكتمل شجرتهم من دون نجمة. ماتت قبل حوالي قرنين، واسمها ليس على الشجرة بالطبع، ولكنها حاضرة، مثل كل نساء الشجرة. وفيما كان الرجال المعلقون على الشجرة يشترون ويبيعون الجمال ويزرعون فسائل النخيل كان حفيد نجمة الوهابي يصنع تاريخاً دموياً، وحتى هذه الساعة يدعون له بالرحمة أو العذاب الأبدي.

انشغل عقلي لدقائق في رسم الخطوط بيني وبين نسلهم. يقولون بأن العدوانية وراثية، والعرق دساس، فأخاف على أولادي من جينات أجداد أمهم.

انطلقت الشجرة إلى غابة نخيل يخترقها نهر. أنبأتني عروقي بأنه الفرات. شرب كثير من ساكني الشجرة وقومهم النجديون من مياهه وشكرونا بحز أعناق أعزتنا. انحدرت الشجرة مع الطريق الترابي بمحاذاة النهر، وكنت متيقناً بأن العين الخفية التي تحركها قد رأتهم أيضاً. كانوا مجموعة من الفرسان، تتبعهم عربة فخمة، مكسوة بغبار كثيف، تجرها أربعة خيول، يقودها شخص ضخم الجثة. تقدم الركب فارس طويل القامة، سحنته بيضاء، منخاره أقنى، وعلى رأسه خوذة عسكرية مطرزة مثل تلك التي يلبسها الضباط الكبار والفرسان في الجيوش الأوروبية. خاطب الفارس القريب منه. هو الآخر له ملامح الأوروبيين. لهجة قائد الركب حادة تنم عن انفعال شديد:

- عندما يصبح الوالي أقوى من السلطان تكون أيامه في الحكم معدودات.

خمنت بأنه انكليزي، ومن الطبقة العليا، من لهجته الصافية، وحتى عندما نطق بكلمة الوالي، لم يقل "فالي" بالفاء الثقيلة كما يفعل معظم الأجانب من أوروبا، وإنما والي، فلابد أنه يقرأ ويتكلم لغتنا.
سأل المساعد رئيسه.

- ألا زلت غاضباً من والي بغداد داوود؟
- إنه يرفض الاعتراف بأفضالنا على دولته. لولانا لكان البحر الأسود بحيرة روسية والقياصرة يشتون في المياه الدافئة للخليج...
- البصرة بعيدة عن الوالي.
- ولكنها حارة ورطبة. قالها بتأفف.
- هنالك الخليج والتجار البريطانيون والهنود الأوفياء وسفننا تجوب المياه.

عاد الصمت، فلا تسمع سوى لهاث الأحصنة وأطيط عجلات العربة وسمفونية الصراصير المنبعثة من بستان النخيل المحاذي للطريق، وتملكني حزن عميق هيجه وطن الغبار والماء الخابط والوجوه العكرة.

- متى نصل؟
- الطريق يتلوى مع هذا النهر لذا تطول المسافة.
- التعرج سمة النهر، لعله هو الآخر ملول، مثل وارديه.
- يقال إن العرب الغزاة من الجزيرة كانوا لا يشربون من مياه دجلة، ولا يسقون نساءهم ولا خيولهم منه.
- بدو ويتطيرون من النهر! هذا أمر غريب بالفعل، ما السبب؟
- اعتقدوا بأن مياه دجلة تقلل شهوتهم وتزيد شهوة نساءهم.

ضحك القائد طويلاً حتى خرجت القهقهة من أنفه.

- يموتون من العطش ولا يشربون مياه دجلة، يا ترى من أدخل هذه الخرافة إلى عقولهم؟
- وحتى جيادهم منعوها من شرب مياه النهر.
- الخرافة أو الجهل بصورة عامة أفضل أعوان الحاكم المستبد وكذلك الغزاة.
- وكيف نستفيد نحن من ذلك؟
- من نشر الخرافة حول مياه دجلة لديه مصلحة في ذلك، ونحن لدينا مصلحة في تأمين طرق تجارتنا مع الهند، مع أو من دون تعاون العثمانيين.
- لولانا لاستولى عليها المماليك أو الروس.
- ندافع عنها لأننا نريدها لأنفسنا، إنها مثل تفاحة ناضجة، لكن قطفها سيكلفنا الكثير، لذا الأفضل أن ننتظر تحت الشجرة حتى تسقط في أيدينا.
- ولكن ما علاقة ذلك باعتقاد بعض القدماء حول مياه دجلة؟

لم يجب القائد على السؤال بل أكمل موضوعه.

- حتى يقصر انتظارنا نقنع البعض بهز الشجرة.

تخيلته واقفاً تحت الشجرة، يهزها مع مساعديه وافراد حمايته حتى أسقط منها، وانشغلت بالفكرة فلم أسمع جانباً من حديثهما، وعندما عدت لمتابعته كان قائد الركب يقول:

- يجب أن نتعلم من أهل البساتين هنا، يجلسون في بيوتهم طيلة العام، وعندما يحين وقت جني التمور يرسلون عمالهم لقطع عذوق النخل وجمعها، أما أهل القرية فيرسلون نساءهم وصغارهم لالتقاط التمور الساقطة.
- نجني العذوق ونترك السقط لغيرنا.
- بالضبط.
- لم أفهم بعد موقع الخرافة في الموضوع؟
- إذا كان اعتقاد البدو كفيل بمنعهم من ورود الماء فقد نجد طريقة تقنعهم بهز شجرة العثمانيين.

- إنها شجرة قديمة عمرت قرون.
- هنا لديهم مثل بأن الغربال لا يسد عين الشمس. أنا لا أطمع في حجب الشمس ويكفيني تشويه الصورة بغربال.
- الآن فهمت المطلوب، غربال أو عقيدة تجعلهم يقتنعون بأن شجرة العثمانيين ليست نخلة وإنما عرفج فيساعدوننا في اقتلاعها.
- برافو!
- وأين نجد الغربال؟
- نبحث عنه وعندما نجده نضعه بين أيديهم ولن يقاوموا اغراء رفعه امام أعينهم.

ثم أضاف بحماس:

- قبل كل شيء نحتاج لمعرفة الناس هنا عن كثب... أعني القبائل.
- هنالك كتب الرحالة وتقارير القناصل السابقين.
- غير كافية. مشاهدات لأجانب تعكس جانباً من الواقع، ولتكملة الصورة لا بد من مصدر محلي.
- هل تعني مخبرين أو جواسيس؟
- لا! أنا لا اثق بالجواسيس.
- أفضل من لا شيء.
- الأفضل هو شخص ملم بالقبائل في المنطقة.
- شيخ قبيلة ربما.
- لا أظن أن هناك العديد من الشيوخ يحسنون القراءة والكتابة، ولو وجدت أحداً وكلفته بالمهمة فسيكتب متفاخراً بقبيلته وذاماً القبائل الأخرى.
- هنا يهتمون كثيراً بأنساب قبائلهم وحروبها مع القبائل الأخرى.
- ما نحتاجه بالضبط مؤلف لديه الكثير من المعلومات عن القبائل وشيوخها وتحالفاتها ليكتب لنا كتاباً يضمنه كل ما يستطيع جمعه من معلومات عن القبائل يكون مرجعاً لنا في تعاملنا مع هذه القبائل.
- سأبدأ بالبحث عن هذا الكاتب بعد وصولنا البصرة.

توقفا عن الكلام عند رؤية الرجال الذين خرجوا فجأة من وراء نخلات عند منعطف النهر، وبأيديهم سيوف قديمة ورماح صدأة وخناجر، وكاد مساعد القائد أن يأمر ثلة الحرس المرافقة للموكب بشهر أسلحتهم لولا أن استوقفه القائد:

- انتظر! لنرى ماذا يريدون. ثم أكمل: احضر صندوق الهدايا!

تابعت الموقف من مكاني المتواري بين أغصان الشجرة الكثيفة، وتساءلت مع نفسي: لو اندلع قتال بين هؤلاء القبليين والموكب فستطلق نيران البنادق وتقذف الرماح، وقد تكون عابرة للزمن.

رفع قائد القبليين يده بالتحية. أعرفهم جيداً فأنا واحد منهم، وأستطيع قراءة ما يدور في خلدهم. يودون لو يسلبون موكب الأجانب، فلا يتركون لهم سوى سراويلهم الداخلية، وإن قاوموا فسيكون مصيرهم القتل ومقبرتهم في النهر، لكنهم يخافون الإنجليز الراسية سفنهم الحربية في شط العرب، لذلك صرفوا النظر عن الأسلاب.

ساق قائد القبليين فرسه نحو ركب الإنجليز، ولم أسمع ما دار بينهم من حديث، ولكني استنتجت بأنه ودي، ثم أصدر القائد أوامره باللحاق بالشيخ وجماعته. سار الركبان مسافة قصيرة على طريق ترابي ضيق داخل غابة كثيفة من النخيل، وتابعتهم من مكاني على الشجرة المحلقة فوق رؤوسهم حتى قرية القبليين، وعند مدخل مضيف الشيخ ترجل الجميع ودخلوا المكان يتقدمهم الضابط.

انتظرت هبوط الشجرة إلى مكان قريب من مدخل المضيف لأرى القبليين وضيوفهم وأسمع ما يدور بينهم من حديث، ولكنها لم تغادر مكانها، وتمنيت لو كانت هنالك وسيلة للتحكم بحركتها مثل الطائرات.

اغمضت عيني للحظات، وكانت كافية في وقت الشجرة لتطوي صفحة الليل السوداء بكل ما فيها من كواكب ونجوم وأجرام سماوية وأقمار صناعية.

2

طارت بي الشجرة إلى مبنى قديم، مطل على نهر عريض سريع الجريان، خمنت بأنه شط العرب والمدينة هي البصرة. مرت الشجرة فوق المبنى ذي الطابق الواحد مثل نسر يحوم حول فريسة، ثم اختفى سقف المبنى والعلم البريطاني المرفرف فوقه فجأة بفعل سحر الشجرة وقواها الغيبية ليكشف عن عدة مكاتب وصالون كبير ومرفقات. أحد المكاتب واسع وأثاثه فاخر، وفي صدره جلس رجل ببزة عسكرية، منكب على قراءة أوراق أمامه، فلم أتبين ملامحه. منضدته مطعمة بالصدف الهندي، وخلف مقعده رفوف خشبية صفت عليها مجلدات سميكة، وعلى الحائط وراءه لوحة زيتية لملك يرتدي تاجاً وبيده صولجان، وعلى الجدران الأخرى علقت خرائط ملونة ورسوم. في المكاتب الأخرى انهمك موظفون في تصفح ملفات والتدوين على سجلات ضخمة. أفضى مدخل المبنى إلى صالة رحبة حيث جلس رجل في أواسط العمر بلباس عربي، وبجانبه حزمة من الأوراق مربوطة بشريط.

هز القنصل البريطاني جرساً يدوياً، فقام أحد الموظفين من وراء منضدته ومشى إلى الصالة ليستدعي العربي الزائر.

بعد حديث مقتضب ناول الزائر الأوراق المربوطة بعناية إلى القنصل، آنذاك هبطت الشجرة فجأة وبسرعة خشيت منها على توازني، وبعد استقرارها تبينت ملامح الثلاثة وسمعت حديثهم.

قام الموظف بمهمة الترجمة، ودار الحديث حول أوراق العربي، وتبينت بأنها مخطوطة كتاب عن قبائل الجزيرة كلفه القنصل بإعداده.

وقف القنصل مؤذناً بانتهاء المقابلة فغادر المترجم والمؤلف إلى مكتب ملاصق، حيث استلم المؤلف ثمن كتابه بالليرات الذهبية. شاهدت بريقها عندما سقط عليها شعاع من ضياء الشمس المتسرب من النافذة المفتوحة، ولم أميز إن كانت عثمانية أم إنكليزية.

لا بد أن يكون العربي أحد ساكني الشجرة. قايض كتابه بحفنة من الذهب. لو يعرف قيمة كتابه والفائدة التي سيجنيها الإنكليز منه. ليس بالسذاجة بحيث لا يعرف. وها هو يغادر المبنى فرحاً بالذهب، وما قيمة أن تربح ليرات الذهب وتخسر الأرض التي تقف عليها؟

أي أوراق الشجرة تحمل اسمه؟ وهل ستكون مختلفة عن البقية، مصفرة بدموع العار، أو مسودة بلون الخيانة أو حتى حمراء بدماء ضحايا جيوش المحتلين، ولكن الساكنين فوق الشجرة يتذكرون مؤلفاته، ويتباهون بشهرته، وبالطبع لم يرد ذكر لخيانة، ولعلها لم تخطر على بال أحدهم.

3

تضجرت من الخضرة والماء وسحنات غريبة وخيانة فعاقبتني الشجرة. اخذتني إلى أطراف الصحراء، وبقيت الشجرة معلقة في الهواء، حركتها بطيئة، وكأنها ترصد شيئاً ما أسفلها، وسرعان ما تبينت أصوات خطوات إنسان على الرمل ولهاث أنفاسه. توقف والتفت، فرأيت جانباً من وجهه لم تغطيه الظلال، عينان شاخصتان بالرعب، وعضلات فكين متقلصة، وعظام وجنتين لغريب عن هذه الصحراء.

مشى خطوات ثم عاد لينظر خلفه، فأدركت بأن الرجل هارب، ووراءه مطاردون.

صرخ أحد المطاردين وهو يترجل من راحلته:

- لن يفلت النصراني منا اليوم.

كان ركب المطاردين قد شارف على بستان نخل.

- يا خوفي من أهل هذه البساتين، في كل شيء هم على العكس منا.
- هذه مسألة لا يجوز الاختلاف عليها، ودينن أمر بطرد النصارى من الجزيرة، وهذا الرجل نصراني وفرنجي.
- أنا سمعتها من الشيخ في المسجد.
- لكن النصراني عنده صك من الأتراك بعدم التعرض له.
- وهل تريدون تطبيق شرع الله أم حكم الأتراك؟

وكانت هنالك إجابة واحدة لسؤاله.

- حان وقت الصلاة.

لا بد أن يكون الآذان قد ارتفع في قريتهم، ولكن صوته طواه البعد، وكما يضيع الانسان في الصحراء الخالية كذلك يبتلع صمتها الأصوات. أناخوا جمالهم، وشمروا عن سواعدهم، وتيمموا، واصطفوا وراء الرجل الذي ذكرهم بالصلاة.

لوكان النصراني مختفياً في مكان قريب، يراهم ولا يرونه، فسيفرح بالصلاة. مهلة قصيرة ليسبقهم، ويصل فيها إلى القرية الثانية قبل أن يدركوه، وهم كعادتهم لن يتعجلوا في صلاتهم، وسيطيلون الدعاء.

لم تمهل الشمس الفجر طويلاً، وقبل أن يعتلي قرصها الأفق كان المطاردون قد يئسوا من العثور على النصراني قبل حدود القرية الأخرى، فسارعوا لسوق جمالهم نحو ديارهم قبل أن يخرج أصحاب بساتين النخيل إلى عملهم فيعثرون عليهم.

كانوا ساخطين، لأن النصراني أفلت منهم، وهم أهل هذه المنطقة، الذين يعرفون شعابها، وهو غريب، لم يزر ديارهم من قبل.

- إنه ساحر!

قالها أحدهم، ليطيب خواطرهم المنكسرة، واتفق البقية بهز رؤوسهم وحركات أجسادهم.

- والأرض ما بين قريتنا وقريتهم مسكونة بالشياطين.
- من قال أنها مسكونة؟
- ألم تسمع بالقفة وما وجدوا فيها؟
- عظام بالية لإنسان لا أكثر.
- وكيف تفسر تحولها إلى تراب بمجرد أن مستها الأيادي؟

لو كان إنساناً عادياً لقبضوا عليه، لكنه ساحر مؤاخ للجن، ولا يخلو وادي في الصحراء من الجن، وسيعتذرون بهذا الكلام أمام أهل القرية وفي مجلس الحاكم ولزوجاتهم، ولن يكذبهم أحد.

اختبأ النصراني فوق نخلة، وراقب من مكانه عودة المطاردين نحو قريتهم، وانتظر حتى اختفوا عن الأنظار قبل النزول من مكانه.

كان رابط الجأش. لم يدع العنان لخوفه، ولو فعل لأدركه المطاردون، ولربما كان مقتولاً الآن. قاده حظه الجيد إلى هذا المخبأ، ثلاث نخلات متجاورات، أم تفرعت منها فسيلتان، وستنوء بحملهن طول عمرها. لم يتسلق نخلة من قبل. ولثواني دار جدال داخل عقله بين خوفه من المطاردين واحتمال السقوط من النخلة، وكانت حجة الخوف أقوى. لم يكن تسلقاً بمعنى الكلمة، كان أشبه بالحبو إلى الأعلى، وبصعوبة دفع جسمه في المساحة الضيقة بين النخلات الثلاث نحو القمة، وكور جسمه بين السعفات المتشابكات، وتحمل وخز أشواكهن، الأهون من قطع الرأس أو الصلب. كتم أنفاسه عندما مروا تحت مخبأه المرتفع مرتين، مجيئاً ورواحاً، فلم يروه، لأنه فعل ما لم يتوقعوه، اختبأ ولم يهرب، وصعد نخلة سامقة، ومن كانت له قدمان ناعمتان لم تحفر رمال الصحراء في باطنهما الأخاديد لا يستطيع صعود نخلة، كما أخبره قروي من قبل.

كان يفكر طيلة الطريق في اجابة لسؤال. في القرية الأخرى سيسألونه كما سأله أهل القرية التي هرب منها: لماذا لا تصلي معنا؟ يكره الكذب، لذا لم يتظاهر بأنه واحد منهم، وخاف من عاقبة الصدق، فلم يقل لهم الحقيقة، استجوبوه: نصراني، يهودي، رافضي؟ وكل الاحتمالات ممقوتة عندهم، فلاذ بالصمت، حتى ملوا صمته، فاضطر للهرب.

لا يريد تكرار التجربة في القرية الأخرى، فماذا سيقول لهم عندما يحين موعد الصلاة. سيطرت الفكرة على ذهنه حتى أنسته المطاردين فلم يعد يلتفت وراءه بين الحين والآخر، ولم يكن قد توصل إلى جواب عندما وجده أحد سكان القرية.

كان أمامه عدة ساعات قبل حلول وقت صلاة الظهر وسيعصر دماغه فيها للوصول إلى جواب يتملص به من الصلاة معهم.

تنكب القروي مسحاة رديئة الصنع ومستهلكة. نصلها المعدني صدأ ومثلوم، وعمودها الخشبي مكسور، وجبيرته حبل من القنب. لم تكن مسحاته وحدها رثة، ملابسه أيضاً، وكذلك جسمه المنحوت بالجوع وسوء التغذية، وعلى وجهه فوهات صغيرة حفرها الجدري. وهو أيضاً مثل جيرانه سكان القرية الأخرى ملتحي من دون شارب، وبثوب قصير حتى الكعبين، وكلها مظاهر لم يطمأن لها النصراني، ولو كان في قلبه مكان خال من القلق لربما شعر ببعض الرثاء للقروي الهزيل ذي الوجه المشوه.

ثم واتته الفكرة من تشوه وجه الرجل ومن ضمور جسمه.

- حكيم!

قالها بصوت مرتفع، وكأنه وجد جواباً لمسألة شائكة بعد بحث طويل.

توقف القروي ونظر إليه ملياً، ولم ينبس بكلمة ولكن نظراته قالت الشيء الكثير للنصراني، وأكدت له بأنه بالفعل وجد الحل لمشكلته، وإن لم ينفع ذلك فسيضطر للصلاة معهم وربما غير اسمه إلى عبد الله.

استحوذت الفكرة على عقله، وأنسته كل مخاوفه، حتى تلك الدقائق المرعبة التي قضاها محشوراً بين أغصان النخلات الثلاث وأشواكهن، والثقوب التي تركتها في جلده، وأسالت قطرات من دمه، فالمهم أن يتقن الدور، حتى يصدقه أهل القرية، ويثقون بتشخيصه ويطمئنون لوصفاته، لكنه يخشى أن يفضحه أداؤه الرديء، فهو لا ينكر فشله في المسرحيات المدرسية، التي شارك فيها مرغماً، لأنها واجب مدرسي مفروض، أما المسرحيات التي تعرض في الاحتفالات السنوية، ويحضرها ضيوف المدرسة وأولياء أمور الطلاب فلم يختارونه للمشاركة فيها، لأنه لا يمتلك مهارات التمثيل، والجميع لاحظوا انفعاله وتلعثمه على خشبة المسرح.

في القرية لن يمثل دور الحكيم أمام جمهور، ولا يتوقع مواجهة صعوبة في ذلك، لأن صحة أهل القرية سيئة، والدليل هو مرافقه شبه العاجز، ولولا قلة العمال الأصحاء لما استعملوه للعناية بنخلاتهم العزيزة.

قبل أن يسألوه قال لهم بأنه حكيم، ويفهم بالأمراض والأدوية. استعمل الكلمة وكأنها جواز مرور أو تعويذة، وتصور بأنها مثل افتح يا سمسم التي قرأها في رواية أجدادهم، كلمة سحرية ستفتح له قلوبهم أو على الأقل أبواب منازلهم، لكنها لم تمحو تماماً ارتيابهم من الأجنبي، وبالطبع لاحظوا بأنه لا يصلي معهم،

واستنتجوا بأنه نصراني، ولكنهم لم يخاطبونه بهذه الصفة، وتظاهروا بأنهم غير مكترثين لكونه على ديانة أخرى.

وبعد أيام اقتنع بأن ادعاء مهنة الحكيم لم يكن ضرورياً، فسكان هذه القرية مختلفون تماماً عن جيرانهم الذين أرسلوا رجالهم المسلحين لمطاردته في الليل، وكاد أن يقع في أيديهم، وعندما كتب مذكراته عن الرحلة لم يجد تفسيراً كافياً للاختلاف بين أهالي القريتين، كان يتوقع أن تكون أفكارهم متقاربة إن لم تكن متطابقة، على الأقل في نظرتهم لأجنبي مثله، ومن ديانة مختلفة، وأن يتصرفوا معه بنفس الطريقة، لذلك ادعى معرفة الأمراض ومداواتها، ولم يخطر بباله بأن سكان هذه القرية التي لا تبعد عن الأولى سوى عشرة أميال أو أقل ويشتركون معها في الأصل والعقيدة والثقافة مختلفون إلى هذه الدرجة.

بعد مقابلة الحاكم الذي لم يبدي اهتماماً كبيراً بمقدمه، وكأن وصول رحالة أوروبي حدث يومي في قريته، استضافه أحد وجهاء القرية في بيته المبني من الآجرّ المحرق في أفران بدائية ضخمة، نقلوها من مناطق بعيدة على ظهور الجمال، وكلفت الوجيه مبلغاً كبيراً. بيوت القرية الطينية رمادية إلا من خطوط متعرجة ملونة على واجهاتها الأمامية، ولون الآجرّ في بيت الوجيه مائل للصفار، ربما لم يجصصه عمداً، ليبرز بين بيوت القرية، ومن فوق أسطح البيوت يبدو مثل جنيه ذهبي جديد وسط صف من النقود المعدنية الصدئة. لم يكن بيته الوحيد وليس أفخمها. له بيت في البصرة وآخر في بغداد، حيث يلتحق أبناؤه بالمدارس هناك، وسأله عن المدارس في لبنان وفي بلده إنكلترا، وأخبره برغبته في أن يكمل أبناؤه دراستهم فيهما.

صدّق الوجيه بأن النصراني حكيم، أو لعله يأس من أدوية حكماء البدو، وطلب من النصراني معالجة مرض أمه فقبل مضطراً. سار وراء الرجل داخل بيته، ولاحظ بساطة أثاث الغرف الداخلية مقارنة بغرف الضيوف، وعند كل منعطف في الممر المتعرج تنحنح الرجل بصوت عال. لم يكن بلعومه منسداً، بل كان ينذر إناث العائلة بأن رجلاً غريباً داخل البيت، وعليهن الاختفاء عن أنظاره أو التستر.

في غرفة معتمة جلست والدة الوجيه على فراش متواضع. استقبلته بكلمات ترحيب مقتضبة، وتأملته عيناها المكحلتان والغائرتان بفعل التراخوما بجرأة لا يسمح بها إلا للعجائز بين النساء. لا بد أنها تعد معمرة بينهم، وعادة ما تحصدهم الأوبئة وسوء التغذية قبل الخمسين. اشتكت من مرض جلدي. أزعجها في النهار وأقلق نومها، ومن حسن الحظ جلب معه مرهماً لعلاج الطفح الجلدي، وبعد أيام قليلة أخبره الوجيه بأن حالة والدته تحسنت، وبأنها كانت ستخطب له امرأة من أقاربها لو لم يكن نصرانياً.

أثناء اقامته في بيت الوجيه تعرف النصراني على عدد من سكان القرية. قادهم الفضول لرؤية الرحالة النصراني، وبعضهم لم يشاهد أوروبياً من قبل. كان مثل بضاعة جديدة معروضة في واجهة محل تتفحصها أنظار المارة، ومعظم زوار الوجيه تجار مثله ومزارعون، وبعض التجار يمتلكون بساتين، فالتجارة تجلب الثراء لكن المكانة العالية بين سكان القرية لا تكتمل من دون بساتين وآبار، واجتذب اهتمامه تاجراً أثرى من مضيفه. يحترمه الجميع، وكلمته مسموعة، حتى من أمير القرية.

بحثت عنه في شجرة العائلة فعثرت على اسمه مدوناً على جذع الشجرة، فلا بد أنه أهم من أولئك المعلقين على أغصانها. امتهن أولاده التجارة مثله. ذهب أحدهم إلى الهند، وآخر إلى البصرة، وثالث إلى الحجاز، ولمع اسم رابعهم في الشام.

أرسل التاجر أحد ابناءه لدعوة النصراني، فقبل دعوته، وفي بيت التاجر كان سيل الضيوف لا ينقطع. بعضهم عابرو سبيل مثله. يسمعون بكرم التاجر فينزلون عنده، ويغادرون بعد أيام، وأغلبهم وجوه تتردد بانتظام، من أقاربه وأهل القرية والقبائل المجاورة. يجدون الترحيب الحار من التاجر والطعام الدسم على مائدته.

وما بين المجلس الرحب ومائدة الطعام العامرة تحدث ضيوف التاجر عن التجارة والبساتين، وقارنوا بين محاصيل مواسم التمور، وتحسروا على الماضي عندما كانت المياه أكثر وفرة والنخيل أكثر عطاءاً، وعواصف الرمال أقل ضرراً، فينبري أحد التجار لينصحهم بترك الزراعة والانصراف للتجارة فهي أقصر الطرق لجمع الثروات، فيردون عليه بأن البساتين والحلال أفضل النعم، وتكون الكلمة الأخيرة لمن يذكرهم

بأن نبيهم كان تاجراً في شبابه، فيما اكتفى النصراني بالتفرج بصمت على السجال بين التجار ومالكي البساتين مثلما كان يفعل أثناء حضوره حلقات نادي المناظرات في مدرسته.

عندما ينتهي حديث التجار عن غرائب أسفارهم يحين دور المزارعين لوصف أصناف النخيل التي نقلوا غرساتها من الإحساء أو العراق، والنخلة عزيزة لدى أهل القرية، فهي تطعمهم ومنها يصنعون حصائرهم وكراسيهم واسرتهم، ولكل صنف اسم. لا تسعف النصراني الذاكرة أحياناً، فهل كان التاجر أم أحد أقربائه من جلب تلك النخلة من العراق إلى قريتهم؟ ولنخلة التاجر أو قريبه قصة طريفة، تبدأ في العراق، وعلى بعد مئات الأميال من قريتهم، ومسيرة أسابيع على جمالهم البطيئة ذات الطباع المزاجية. اشترى فسيلتين، من ذلك النوع الممتاز الذي تمتاز به البصرة على كل البقاع، وحملهما على جمل سريع وعاد إلى قريته، وفي الطريق سقاهما بيديه، حتى وصل إلى القرية، وكعادة أهل القرى سخروا منه في البدء، وازدادت سخريتهم بعد زراعته للفسيلتين وموت احداهما، ولم يقدروا للرجل عمله حتى كبرت النخلة وأثمرت، واستطعموا رطبها وتمرها، فصاروا يتوسلون له ليعطيهم من فسائلها.

وتذكر أحدهم قصة أخرى بطلها التاجر، حدثت قبل سنين، وشخصت أبصارهم مع استرجاع عقولهم لتلك الأيام التي امتلأت فيها الأرض المجاورة للقريتين بالمقاتلين.

أفاقوا فجر أحد الأيام، وقبل صلاة الصبح عرفوا بنزول جيش الوهابيين بالقرب من قريتهم، ولم ينقضي نهار ذلك اليوم حتى وصلت قوات حائل للتصدي لأعدائهم.

بعد رؤيتهم المقاتلين على أعتاب قريتهم أرق الرجال والنساء في القرية، وحتى الأطفال أحسوا برعب أهاليهم، فلم يخرجوا إلى الأزقة ليلعبوا مع أقرانهم كعادتهم، وظلوا ملتصقين بأمهاتهم، يدورون معهن في أكواخهم الصغيرة، حتى ضجرت الأمهات ولكن الزجر وحتى الصفعات لم تقنع أولادهن بالخروج إلى الأزقة.

تلك القرية وكل القرى الصحراوية مسكونة بالخوف الموروث والحادث، فلا يكاد يمر شهر لا تسقط فيه قرية بأيدي غزاة، يقتلون وينهبون وأحياناً يسبون الرجال والنساء والأطفال. الخوف أول المستيقظين في القرية، والخوف لا يعرف النوم. يتربص بالساهرين، والخوف من قطع الرأس أوحى لشهرزاد بالقصص، ولأمهات الأطفال الخائفين من الظلام بالحكايات، ولنفس السبب يجتمع أهل القرى في المجالس لرواية القصص.

كان الجميع بانتظار سماع قصة التاجر. سمعوها من قبل، ربما مرات عدة، لكنهم لم يملوا من سماعها، ولم تكن قصة التاجر مخدراً اعتيادياً، لأنها تحكي جرأة أحدهم على مجابهة الخوف، وتعطيهم الأمل بالقدرة على التغلب عليه.

أنصت الحاضرون في مجلس التاجر بكل حواسهم للراوي، وتسمرت نظراتهم على فمه، ومالت أجسامهم نحوه قليلاً، وأصبحت حركة المسواك داخل أفواههم بطيئة ومتقطعة، حتى ساقي القهوة تلكأ عند باب المجلس، ولم يترك مكانه ليدور بالقهوة على الضيوف حتى أشار إليه التاجر.

أكمل الرجل الثرثار القصة: كنا مرعوبين من الطرفين، لو انتصر الشماليون أو الجنوبيين سنخسر نحن، لأننا لم نتحالف مع أي منهما، فلو خرج الوهابيون من المعركة منتصرين فقد يقرر زعيمهم معاقبتنا لعدم وقوفنا معه، وسنكون محظوظين لو اكتفى بفرض غرامة كبيرة علينا، وخسارته المعركة ستجعله أشد عداوة لنا، وسيحملنا المسؤولية لأننا لم نسانده، فيغير علينا ويقتل رجالنا وينهب أموالنا للتعويض عن خسارته، وهو بالضبط ما نتوقعه من الطرف الأخر لو ربح أو خسر.

اجتمع ملأ القرية للتشاور، وكان التشاؤم سيدهم، وكأن القضاء نزل، وأقصى ما تمنوه هو اللطف بهم، والتزم التاجر الصمت حتى تعب الجميع، ولم يبق لديهم كلام، ثم جاء دوره. كان هادئاً على عادته وعلى العكس منهم:

- نحن لا طاقة لنا على الحرب فماذا يتبقى لنا؟

ثم انفجر اللغط:

- ماذا تبقى ؟! ماذا تبقى؟ هل نهجر ديارنا؟ ولكن قل لنا بالله عليك أين نذهب؟
- نبرطل الطرفين، ندفع لهم حتى يتركوننا لحالنا.
- لا! نشوف أيهما أقوى ونصطف معه.
- كان الواجب أن نتسلح مثل غيرنا.
- صدقت! التقصير منا. لو كانت لدينا قوة لما غزونا من الجنوب عاماً ومن الشمال عاماً اخر.
- نحن مزارعون وتجار ولسنا محاربين.

لم يتفقوا على جواب واحد على سؤال التاجر، ولم يزدهم ذلك إلا حسرة على وضعهم. عبروا عنها بالعض على الشفاه والضرب المتكرر على الأفخاذ ونزع العقل ولبسها من جديد. انتظر التاجر حتى هدأ الصخب ثم أجاب على سؤاله:

- يا أخوان! من لا قدرة له على الحرب... يجرب حظه في السلام.

تبادلوا نظرات الحيرة بينهم وكأن الكلمات التي نطق بها التاجر أحجية صعبة أعياهم حلها.
وعاد ليشرح وجهة نظره:

- آخر شيء يريده الطرفان هو وقوع القتال بينهما. صدقوني كل طرف يتمنى لو حدث شيء ما بحيث لا يضطرون للقتال، هو مثل عراك بين جارين، أوله شتائم متبادلة ثم تهديد ووعيد، وامش وإلا اطلع لك نجوم الظهر، وكل واحد منهما يصرخ بأعلى صوته حتى يلتم الناس عليهم ويحجزون بينهما، ثم يتوسط بينهم الأخيار وتتباوس اللحى ويعود الصفاء بينهما أو على الأقل ينتهي الخلاف من دون إراقة دماء. المعركة يا أخوان تكلف الكثير: دماء وفلوس وحلال والنتيجة غير مضمونة، وحتى الرابح يخسر فيها.
- والعمل؟
- نتوسط بين الطرفين وإن شاء الله يقبلون الوساطة وتنحل المشكلة على خير، لا غالب ولا مغلوب.
- ما لها غيرك.

لو نجح التاجر فلن يتقاتلوا، وستكون القرية في مأمن، ولو فشل فسيحملونه المسؤولية، حتى أمير القرية كان مرتاحاً لهذه الفكرة، ولم يعترض عليها، وكان من المفترض أن يقوم هو بالمهمة لا التاجر، ولكنه أرسل مساعده مع التاجر لينوب عنه.

وفي صباح اليوم التالي ساروا مع التاجر ومساعد الأمير حتى مشارف القرية وأودعوهما الأمل، وعادوا إلى المنازل والمقاهي لمسامرة القلق والترقب.

بعد يومين نفذ صبرهم فأرسلوا أحدهم ليأتيهم بخبر، وعاد بالبشرى، وكانت أفضل مما تمنوه.

عندما عاد مساعد الأمير الذي رافق التاجر أخبرهم بالتفاصيل، ولو لم يكن تابعاً مطيعاً للأمير لقال حساد التاجر بأن قطعاً ذهبية أو على الأقل ريالات من كيس نقود التاجر وجدت طريقها إلى جيبه مروراً بلسانه فأضفت عليه طبقة سميكة من الحلاوة والطلاوة، وكلما تكلم مساعد الأمير عن التاجر خرجت الكلمات حلوة ومغلفة بكاغد ذهبي مثل تلك الحلويات المصنوعة في لندن والتي يقدمها التجار لضيوفهم الخاصين، ولكن التاجر وعلى عكس البقية لا يفرق بين خواص وعامة الناس ومائدته عامرة سواء كان ضيفه الأمير والتجار أم فقراء القرية، والجميع يتذكر المذاق اللذيذ للحلوى المستوردة من البلاد البعيدة والمغلفة بكواغد تلمع كالذهب يوزعها بيده على كل ضيوفه من الأغنياء والفقراء.

أخبرهم مساعد الأمير بأن التاجر لم يجد أي صعوبة في اقناع أمير حائل بضرورة المحافظة على السلام وتجنب القتال. استقبله الأمير بحفاوة، لا تليق إلا بأمير أو حاكم قوي مثله. قام له وأجلسه بجانبه، وقدم له فنجان القهوة بيده، فأبى التاجر في البدء، لكن الأمير أصر، وأقسم، فقبل التاجر شاكراً.

في القرية أعداء للتاجر، وبعضهم من أقاربه. ذكرهم النصراني في كتابه، ولو لم يخافوا العتب لقالوا بأن لديه تعويذة سحرية يضعها داخل ثيابه أو يربطها على زنده، من صنع ساحر هندي أو مغربي، استعملها للتأثير على عقل أمير حائل، وما حدث بالفعل أشبه بالسحر، سحر الشخصية لا التعويذة، الذي جعل أمير

حائل يلبي طلب التاجر، ومن دون مقابل، بل العكس من ذلك، كما أخبرهم مساعد الأمير، إذ قبل أن يغادر التاجر مجلسه أمر الأمير بإحضار فرسه الأصيلة، وهي المفضلة عنده، وأهداها للتاجر، الذي اعتذر عن قبولها، ولم يغضب أو يستاء الأمير، كما تخوف مساعد أمير القرية، الذي قال لمستمعيه بأنه لو كان محل التاجر لقبل الهدية، وبدلاً من الفرس عرض أمير حائل على التاجر ناقته المدللة، فقبل التاجر هذه المرة، وكان مع مساعد أمير القرية صرة ملابس، فتحها وأخرج منها كسوة فاخرة، من صنع أمهر حائك شمالي، واحدة له وأخرى للتاجر، هدية أخرى من أمير الشمال، وتفحص المستمعون نسيجها بالبصر واللمس، وكاد أحدهم ان يختبر متانتها بأسنانه لولا سحبها مساعد الأمير من يده، وتمنوا جميعاً لو ذهبوا مع التاجر، ليعود كل واحد منهم بملابس فاخرة مثلها.

لم يذهب التاجر لمعسكر أهل الدرعية، ولم يكاتب أميرهم، وبعد معرفتهم بنجاح وساطة التاجر وانسحاب جيش حائل عادوا بسرعة إلى قريتهم في اليمامة، وكان أميرهم ناقماً على التاجر، لأنه فضل أمير حائل عليه.

انتهت القصة وحان وقت العشاء، وتحلق ضيوف التاجر حول صواني الأرز العنبر العراقي ولحم الخراف النجدية وطاسات اللبن الرائب والتمر الفاخر، وقلدهم النصراني. وبعد قليل انهارت الفواصل بين الكهوف التي حفرتها أيدي ضيوف التاجر في أكوام الأرز واللحم، ما عدا الكهف أمام النصراني. كانوا يتفادون تناول الطعام الذي مسته يده، ولاحظ ذلك التاجر أيضاً، لذلك خصه بالمزيد من الاهتمام فكان يقتطع وذر اللحم ويقدمها له، وبعد أن غسل الضيوف أيديهم وجدوا التاجر وأبناءه واقفين وبأيديهم المناشف.

في ليلة أخرى وبعد انفضاض الضيوف سمع النصراني قصة أخرى، من التاجر نفسه. كانت القرية تابعة لأمير حائل، ويستلم زكاتها كل عام، لذلك غضب أمير الشمال عندما رفض أمير قرية التاجر دفع الزكاة لذلك العام، وتحالف مع أمير القرية الأخرى التي طارد رجالها النصراني، واستعد سكان القريتين للقتال.

عندما تصحو الزوجة لتفاجئ بزوجها مدججاً بالسلاح فقد لا يجد عقلها المذعور بالاحتمالات المفجعة الوقت ليفكر ويحلل في التحول السريع والغريب لزوجها من شخص كان يداعب أولاده بالأمس ويضحك معها إلى محارب متجهم الوجه لن يرتاح حتى يَقتل أو يُقتل، فهل هذا هو زوجها الحقيقي أم الرجل الوديع الذي بات في فراشهما بالأمس؟

استفاق كل وجهاء القرية على رأي واحد، وحدثتهم به عقولهم أثناء الصلاة، وازداد اقتناعهم به بعد قهوة الصباح: كانوا متحفزين للقتال، إلا التاجر، قال إنها ستكون كارثة، غضبوا منه، فهم لا يطيقون المعارضة، ولا يحبون الناصحين. أصر على موقفه، من دون اعتبار لكثرتهم. وفي قرى وقبائل الصحراء يذوب الفرد في الجماعة. وعندما يعلن النفير الأفضل لك أن تحمل سيفك أو بندقيتك وتمضي للقتال من أن تقف معارضاً أو تتردد حتى لا تتهم بالجبن أو حتى الخيانة، وهكذا وجد التاجر نفسه منبوذاً من أهالي قريته.

كما توقعوا لم يتأخر جيش حائل. حضر بكامل قوته، وكان مقاتلو القريتين وحلفاؤهم مستعدين، وانتهت الجولة الأولى لصالحهم، فقد كانوا يحاربون في منطقتهم، التي يعرفونها جيداً، وكان بإمكان المقاتل منهم أن يشارك في المعركة في النهار ثم يعود لمنزله في المساء ليتفقد أحوال أفراد عائلته، ولو كانت زوجته في المخاض فلديه الوقت الكافي ليتأكد بأن المولود الجديد ذكر لا أنثى، ويصلي ركعتين حمداً لله على ذلك، ويختار له اسماً، وعلى الأغلب سيكون اسماً من وحي المعركة.

بعد انكسار قوات حائل انسحبوا نحو منطقتهم، واستعد أهل القريتين للاحتفال بنصرهم على الشماليين، لكن أحد القادة أصر على مواصلة القتال، قائلاً بأن المعركة لم تحسم بعد، وأقنعهم بمطاردة قوات الشماليين المنسحبة لكي يكون النصر فاصلاً ونهائياً ويتأكدوا من عدم عودتها بعد أسابيع أو أشهر.

أدرك أمير حائل خطأه فأمر بسحب جيشه إلى منطقة قريبة من مدينته، ونشر قواته في أماكن حصينه، وانتظر قدوم جيش القريتين. كان متأكداً بأنهم لن يقاوموا إغراء الاجهاز على جيشه بعد خسارته الجولة الأولى.

هل خطر التاجر ببال أمير الشماليين؟ لا بد أنه علم بموقفه، ولعله تمنى لو استمع أهل القريتين لنصيحته، أو ربما شغله الاستعداد للجيش القادم من التفكير بالتاجر الحكيم.

وصف التاجر وقائع الجولة الثانية من المعركة للنصراني، وكان يستوقفه أحياناً ليسأله عن بعض التفاصيل. هذه المرة كانت الظروف كلها لصالح جيش الشماليين، لأن أرضهم الصخرية أكثر ملائمة لصولات الفرسان من أراضي القريتين الرملية، فلم تنغرس جياد المقاتلين الشماليين في الرمال كما حدث في الجولة الأولى على مشارف القريتين، واضطر جيش القريتين للقتال في أرض غريبة ومن دون سواتر طبيعية، فكانت النتيجة انتصار ساحق لجيش الشماليين. وفي تلك الليلة والليالي التالية كانت مجالس العزاء بعدد منازل القريتين.

حضر التاجر مجالس العزاء، ولكن أهالي القرية لم يعترفوا بخطئهم، ذلك نوع نادر من الشجاعة بينهم، وربما حقد عليه بعضهم لمجرد أنه كان محقاً وهم مخطئون.

كل أقارب التاجر استعموا لنصيحته ولم يشاركوا في القتال إلا واحداً منهم، أمه الأرملة ربيبة التاجر وأبوه المتوفي من وجهاء القرية، ولم يعد الابن لأمه بعد المعركة.

لازم النصراني التاجر معظم الوقت. سكن في بيته، وجلس معه في متجره، وحضر مجالسه، وتناول وجباته اليومية على مائدته، وفي الساعات القليلة التي كان يقضيها لوحده كتب مذكراته، التي امتدح فيها التاجر، وشبهه بالحمامة المحبة للبشر وسط غربان حاقدين من الوهابيين المتطرفين، وذكر بعض أقربائه الوهابيين، الذين انتقدوا سلوك أبناء التاجر، وألقوا باللائمة على أمهاتهم اللواتي لم يحسن تربيتهم وعلى سوء أخلاق الناس في الموانئ البعيدة التي تاجروا فيها.

عندما حان موعد مغادرة النصراني خرج التاجر لوداعه، ومن مكاني فوق الشجرة تابعت الموكب حتى اختفى وراء هضبة رملية.

4

ذكرتني الشجرة وحركتها في الزمان والمكان بلعبة صغيرة اشتراها لي والدي، وحرصت عليها مثلما يحرص البخيل على كنز. كانت الوحيدة من نوعها في القرية، وتباهيت بها على أقراني، وهم بدورهم اصابوها بعيونهم الحاسدة فلم تعمر طويلاً، مع أني شاركتهم فيها بحدود بالطبع وعلى الرغم من أن أيديهم التي حملتها كانت غالباً متسخة ووجوههم التي الصقوها بها لم ترى الصابون إلا في الأعياد. كنت ألقم جهاز العرض بأشرطة الصور دائرية الشكل، فتعرض لي على الشاشة الصغيرة صوراً بالألوان الزاهية لشلالات نياجارا والأهرامات وسور الصين ومحيطات وغيرها. أخشى عليها من أيدي صبيان القرية العابثة ونظراتهم الحاسدة فأهددهم بسطوة أبي شيخ القبيلة، وإن لم يستجيبوا انتزعتها من أيديهم عنوةً.

عند جانب اللعبة عتلة صغيرة اسحبها لأسفل فتختفي صورة لتحل محلها أخرى.

انتبهت من افكاري على لغط ارتفع من مكان قريب. نظرت من مكاني فوق الشجرة فرأيت مجموعة من البدو في مكان وسط الصحراء. عددت العشرات منهم، ومن بعدها توقفت عن العد. كلهم بدو أقحاح، بضفائر مجدلة تتدلى ذوائبها من تحت شماغات باهتة اللون، هي مثل كل شيء في الصحراء، لا يطول الزمن عليها قبل أن يحيلها إلى أشياء رمادية، مثل سحناتهم المتجهمة، وكلماتهم ذات النبرات الحادة، وكأنهم في جدال صاخب دائم.

عقلوا جمالهم وربطوا خيولهم، ثم مشوا بتثاقل نحو الشجرة. حركتهم بطيئة، كأنهم جاؤوا من مكان بعيد، وترنح البعض منهم، قبل أن يهوى إلى الأرض، واختلط رغاء جمالهم وصهيل خيولهم بأنين الجرحى وآهات المتعبين. أدركت بأنهم محاربون خارجون للتو من معركة، انهزموا فيها، وبعضهم مصاب، والكل مسلحون تسليحاً جيداً، بالبنادق البدائية والسيوف. توزعوا داخل الأجمة، واستأثر قادتهم بالأماكن الظليلة، وهم أيضاً بدت عليهم مظاهر الإعياء، ومنهم مصابون، فيما تحلق حولهم بقية المحاربين.

لم تفارق أنظارهم الآفاق. حفر ضوء الشفق الباهت أعماقاً إضافية لأخاديد القلق المرتسمة على وجوههم، وغمرت الظلال ببطء أجسادهم، ولو استفزهم الرعب من عدوهم المنتصر، واحتمال لحاقه بهم في تلك الساعة لأطاعوه وولوا هاربين ولو خلافاً لأوامر قادتهم. حدثتهم أنفسهم بأسوأ الاحتمالات. لعلهم وراء تلك الكثبان الرملية وبغتة سيظهرون، وهذه المرة لن يتوقفوا حتى يجهزوا على اخر واحد منهم أو يأسروه لأخذ الفدية، هذا هو عرفهم البدوي، لو كانوا هم المنتصرين لفعلوا نفس الشيء.

عندما تكون في الصحراء، وشخص يسير باتجاهك، ومن خلفه شمس الأصيل، تراه شكلاً داكناً، من دون وجه، ولا فرق بين رجل وامرأة، وتدريجياً وببطء أثقلَ على نفوس المحاربين الوجلين انقشع السواد ليفصح عن ألوان وملامح.

لم ينتظر المحاربون المنهكون انجلاء الصورة، بل أخذوا حذرهم، ونفروا كلهم، حتى الجرحى منهم، ولم يستكينوا حتى عندما تبين لهم بأن القادم امرأة. افترضوا بأنها عيارة انطلقت أمام فرسان قبيلتها، لتجبرهم على اللحاق بها ومواجهة الأعداء. نهضوا وتناولوا أسلحتهم، وشاهدت شفاههم تتحرك، لعلهم رددوا الشهادتين، ولو تحققت أسوء ظنونهم فلن يعيشوا لرؤية شروق شمس الغد.

اقتربت المرأة وموكبها، وكانت راجلة، والعيارات لا يأتين راجلات، ومن ثم ظهر من وراءها رجال، عندما اقترب موكبهم تبينوا بأنهم غير مسلحين، ولون بشرتهم وشم العبودية في الصحراء.

سلمت بصوت قوي، وتوجهت بخطى ثابتة نحو رئيس المقاتلين المهزومين.

سمعتها تخاطبه باحترام: ابن الصباح. هو لقب شيوخ الكويت. وبعد حديث قصير استمعت لأطراف منه، اتضح لي بأنهم كانوا في معركة مع آل الرشيد انتهت بهزيمة جيش آل الصباح وحلفائهم من آل سعود وغيرهم، وقتل عدد كبير منهم، وجرح آخرين من بينهم أفراد من عائلة الصباح.

انفرجت أسارير رئيس المقاتلين، وبدا الارتياح واضحاً على وجهه، وتهامس الرجال من حوله: جاء الفرج، أو هكذا تصورت الكلمات المقتضبة المتداولة بينهم.

أصدر القائد أوامره لمقاتليه بالتحرك وانطلق الجميع وراء المرأة المجهولة، وتابعتهم الشجرة حتى مدخل بيت طيني كبير، لا يختلف عن البيوت الطينية المنتشرة في قريتي التي ترعرعت بها في العراق، حتى في أدق التفاصيل. طرزت أشكال هندسية أسواره العالية، والنقوش على خشب الابواب الخارجية السميك فوضوية، وكأن يد طفل لا معمار محترف حفرتها، والصباغ الزاهية الفاقعة التي يفضلها الريفيون في كل مكان هي نفسها، الأصل قريتي العراقية، بدائية في كل شيء تقريباً، وهذه القرية وكل قرى الصحراء مستنسخة منها، في هندسة البيوت وزينتها الخارجية على الأقل، وفي لهجة أبنائها. كانوا يسترزقون منا في مواسم قحطهم، ومع خبز البر والتمر والكليجة يمضغون لهجتنا وعاداتنا ويحللون سفك دمائنا.

من مكاني فوق الشجرة شاهدت دخول آخر ركب المقاتلين باحة البيت الواسعة، وسرعان ما دب نشاط محموم بين سكانه. أحضر البعض الماء، وأشعلت الوصيفات النار، ثم باشر الخدم بإعداد الطعام. وتسلق أحد المحاربين سطح المنزل الطيني ليتخذ له موقعاً مشرفاً على محيط المنزل للمراقبة، فهم لم ينسوا أن وراءهم عدواً لدوداً يتعقب اثارهم ليقضي على من تبقى منهم.

تغير اتجاه الريح لتقذف بالدخان المتصاعد من مواقد الطبخ في منزل المرأة باتجاه الشجرة، وللحظات اختفى البيت وساكنوه وضيوفه من أمامي وراء سحابة من الدخان الأسود، ثم وكما بدأ وانتشر الدخان فجأة انقشع في لحظة وكأن مراوح شديدة القوة طردته أو رياح شديدة مرت وحملته معها إلى بعيد.

بعد انقشاع الدخان اختلف المنظر. اختفى المحاربون الجرحى مع خيولهم وجمالهم، وأُطفأت مواقد الطبخ، ونقلت القدور الضخمة، ولم أشاهد في باحة المنزل سوى كلب عجوز لم يترك الجرب من جلده سوى أسمال يتوسد بقعة رطبة بجانب السور. نبأتني حركة اذنيه بأن البيت مسكون. فتح عينيه قليلاً ونظر باتجاهي، فلعله يراني. يقولون أن للكلاب حاسة خاصة، ترى وتسمع ما لا نرى ولا نسمع. لكنه لم ينبح، ربما بسبب العجز والمرض. وكلب مثله لن تجده في قريتي العراقية داخل بيت، وحتى في الطريق لن يصمد أكثر من ساعة، إذ سرعان ما يبصره يافع فينادي على رفاقه: هنا طريدة سهلة، فيلبون نداءه، تحركهم قسوة، أحتار في أصلها وسرعة نموها في النفوس، ثم تبدأ المطاردة، وإن لم يفلت بأعجوبة فسيكون مصيره الرجم حتى الموت. وجود كلب عجوز أجرب داخل بيت دليل على رقة قلوب أصحابه.

بعد قليل بدأ تقاطر النساء والأطفال. دخلت النساء، وبقي الأطفال خارج البيت، وأدهشني صمت الأطفال، فهم في العادة يتذمرون أو يبكون لو تركتهم أمهاتهم، لكنهم صمتوا، لسبب غير حسن التربية، وسرعان ما امتلأت باحة البيت بحشد من العباءات السوداء، وإن كان اجتماعهن لمناسبة اجتماعية فهي بالتأكيد ليست سعيدة، فلم يكن هنالك أي مظهر من مظاهر الفرح المعتادة. وعلى الرغم من أن الناس في هذه القرية محافظون جداً فهم حريصون على إحياء أفراحهم ولو بفرقة إنشاد وموسيقى محلية، تقودها مغنية بصوت أقرب إلى النشاز منه إلى العذوبة، مع جوقة من المنشدات والعازفات على الدفوف، ولأن أي من هذه المظاهر كانت غائبة فقد استنتجت بأن المناسبة حزينة.

استمر توافد النساء على البيت حتى اكتظت بهن الباحة ولم يعد هنالك موطأ قدم خال. جلست بعض النسوة على الأرض فيما فضلت أخريات الوقوف، ودارت أحاديث هامسة بينهن حاولت جهدي التنصت عليها لكن من دون جدوى. ولم يطل انتظار الجمع فقد خرجت سيدة البيت المنقذة لآل الصباح ومقاتليهم المدحورين من الباب الداخلي ليتصاعد مع ظهورها لغط النسوة في خليط من التحيات والثناء والتوسلات.

طمأنت سيدة البيت الحاضرات بأن لديها ما يكفي الجميع، ثم بدأت الخادمات بالتوزيع. حملت كل واحدة منهن مكيالاً قروياً، والمرأة التي تستلم حصتها تخرج من الباب الرئيسي وتختفي في ثنايا أزقة القرية الضيقة. تعثرت احدى النسوة وتبدد حملها على الأرض الترابية فولولت بصوت مفعم بالفجيعة، وانكفأت على الأرض لتجمع حبات القمح التي اختلطت بالتراب. قرفصت امرأة بجانبها ومدت يدها، ربما لتساعدها، أو لتلتقط الحب لنفسها، لكنها جوبهت بصرخة استنكار أرغمتها على الابتعاد. تأكد لي بأن الوضع غير طبيعي، فهذا الحشد من النساء الواجمات، وولولة المرأة على القمح المبدد، وزمجرتها بوجه جارتها، وصمت الأطفال في الخارج، كلها تشي بأمر واحد: مجاعة أو حافة مجاعة تعيشها القرية، وهذه المرأة التي أسعفت قبل قليل في

زمن الشجرة وسنين في تقويم البشر المحاربين من أتباع ابن صباح فتحت أبواب خوابيها اليوم لتوزع برها على جيرانها وأهل قريتها.
عند باب منزل السيدة المحسنة وقف جمع الأطفال الصامتين، وقد أنهكم الجوع، حتى لا قوة لهم على اللعب أو الصياح، أو حتى نش الذباب المتحلق والهابط على وجوههم، وكلما خرجت امرأة تعلق بثيابها واحد أو أكثر منهم، ومشوا معها مبتعدين.
تكرر المشهد مرات، قبل أن تهتز الصورة، منذرة بتغير في الزمان، أو المكان، أو الاثنين معاً، وعندما توقف الاهتزاز كان المنظر هو نفسه، لم يتغير، الباحة الداخلية لمنزل السيدة المجهولة، ومدخل المنزل وجانب من الطرق المؤدية إليه، ثم تعالى من بعيد صوت لغط، وخشيت أن يكون الصوت صادراً عن المحاربين الذين كانوا يتعقبون آل الصباح، أو لعلهم أهل القرية عادوا للمطالبة بالمزيد من المؤون، لكنها كانت مظاهرة حاشدة لأطفال القرية. بدوا أكثر نشاطاً وعافية من الذين حضروا مع أمهاتهم قبل قليل.
تجمهروا أمام باب المرأة المحسنة، ورددوا هتافات تصم الاذان، سمعتها على مراحل:
- لو جاءك ولد سميه.
ولم أتبين الباقي من كلامهم، ماذا يسمونه؟
- موزي. لو جاءك ولد سميه ....
لكنه اسم مؤنث، أو هكذا يبدوا، وإن كنت لا أعرف معناه، فلماذا يسمون الذكر كالأنثى؟ وهم يحتقرون المرأة، ولا يذكرونها من دون كرمك الله، إلا هذه السيدة.
كان واضحاً أن المقصود بهذا المديح الاستثنائي المرأة صاحبة البيت الطيني، وأسمها موزي، والتي أنجدت المحاربين الجرحى ووزعت القمح على النساء الجائعات، فكافأها أهل القرية ممثلين بأطفالهم بأن جعلوها أعظم مكانة من ذكورهم.
- لو جاءك ولد سميه ...
لو نطقت ألسنة الرجال المدونة اسماؤهم على أوراق شجرة عائلتها لضجت بالاحتجاج.
وددت لو تجيبني الشجرة على سؤال واحد فقط: لم قادتني لهذه المرأة بالذات، وهي أصلاً تهمل ذكرها وكل نساء العائلة؟ أم هو انتقامها؟ فالشجرة هي الأخرى مؤنثة، وفي البدء كانت الشجرة قبل حواء، ولعلها تريد أن تكشف لي سوءات تخفيها هذه الأوراق المملوءة بالأسماء المذكرة.
لم تترك لي الشجرة وقتاً طويلاً للتفكر بمغزى تمجيد هذه الموزي الغائب اسمها بالطبع عن ورقها، فسرعان ما اختفى الصبية ليحل محلهم موكب حاشد، يسير في مقدمته رجل طويل القامة، يحيط به عبيد وحراس، ومن خلفه جمع غفير من الناس.
اسم واحد تردد على ألسنتهم: الأمير ابن سعود.
خمنت بأن المقصود هو قائد ذلك الموكب.
توقف الأمير عند باب السيدة والتفت إلى مرافقيه قائلاً:
- أبغي أسلم على عمتي.
لعل عمته في زيارة السيدة صاحبة البيت، إذ لا صلة عائلية بينه وبينها، ثم تبين لي فيما بعد بأنه زارها ليشكر أفضالها عليه وعلى حلفائه آل الصباح.

قبل أن يدلف الأمير إلى دار السيدة استقرت قدماي على الأرض، لكنها لم تكن أرض القرية بل بلاط شقتي.
سأعود للشجرة ولكن قبل ذلك سأنبش في التاريخ.
هل عرفت موزي من أسعفت في ذلك اليوم الكالح؟ إنهم فلول جيش مبارك قاتل أخويه. وكل أهل نجد سمعوا بغدر مبارك بهما. وهي تعرف بأن أحدهما زوج قريبة لها، وأبوها وأخوتها يقبعون في الشجرة، وبعد مقتل زوجها فرت بأولادها إلى العراق، فمن يقتل أخويه لا يتورع عن ذبح أولادهم. ولم تجد من يجود عليها

مثل موزي، ولو بحفنات من القمح، ولولا رفيقتها السوداء المخلصة التي فرت معها ولم تغادر جانبها وامتهنت الخياطة لتعيلهم لربما اضطرت هي وأطفالها للتسول.

ثم تذكرت نجمة المستقرة فوق الشجرة. هي الأخرى مكرت للشجرة وذكورها، وأنجبت عدواً لهم، وكذلك الأرملة، الذي خالف ابنها نصيحة التاجر، وشارك مع مقاتلي القرية في المعركة مع الشماليين، وقتله حلفاء التاجر، فلم تغفر له الأم الثكلى، وموزي هي الأخرى مثل كل النساء مشت وراء القافلة والقطيع، ومن الجمال تعلمت الصبر، واجترار الغضب حتى يحين وقت الانتقام، أو الفرصة السانحة لتثبت لهم بأن اسمها أجدر بأن يعلق فوق الشجر، ويطلق على مواليدهم الذكور، ليفتخر بها الرجال قبل النساء.

5

عدت للشجرة، وصممت أن لا تكون هذه المرة كسابقاتها. لن أعطي الشجرة سوى عيناً واحدة، وسأترك الأخرى خلفي لتتصفح كتب التاريخ، وعندما تتعارض الرؤيتان، وترتج الصورة أمامي، سأستعين بشهادات الأحياء، فهي أيضاً دليل على التاريخ وكل شجرات العوائل.

أخذتني الشجرة إلى تلك القرية، التي لجأ إليها النصراني لفترة قصيرة، وغادرها في الوقت المناسب، قبل أن ينفذ احتمال أهلها لوجود نصراني بينهم، وهي نفسها قرية موزي التي أخفت جنود قاتل أخويه، والتاجر حاضر فيها أيضاً، ولا غنى لأهل القرية عن حكمته، أو فلسفته كما وصفها النصراني، لحماية قريتهم من أطماع الغزاة.

كل الغزاة في نظر التاجر وأهل القرى مكروهون، ولكنهم يختلفون في الطموح والطمع، وأفضلهم من سيترك لك مؤونة تسد بها رمقك وترمم عافيتك، ولتعتني بنخلاتك لأنه ينوي العودة لينهبك مرة أخرى. سيقف أسفل النخيل وتصعد أنت لتقطف له عذوقها. تقبل بقطع الرزق موسماً أو إثنين بدلاً من قطع العنق، ولو قاومته فقد يقتلك لكن العاقل بينهم لن يدنس عرضك، ولن يدوس على كرامتك، فمن دون الكرامة تموت الهمة وتضمحل العزيمة، وحتى لو كانت نخلاتك مثقلات بالتمر فستكتفي بالتفرج عليها وتترك تمرها للغربان والعقاعق.

هنالك مثل عراقي دارج، يتوعد من يجلس بين طرفين بالمضايقة والأذى من كليهما، ومن سوء حظ أهل القريتين موقعهم الوسطي بين الدرعية وحائل، ولأن بساتينهم العامرة وتجارتهم الرابحة تغري الطامعين. اختار أهل القرية الوقوف على الحياد. اكتفوا شر الطرفين، مرة بالنقود وأخرى بولاء الطاعة، لكن حتى البارعين في السير على الحبال يصابون بالإرهاق، وهناك من يتمنى لهم التعثر والسقوط.

أراد أهل القرية الوقوف على الحياد بين الأميرين المتنازعين على الأرض والنفوذ، لكنهما رفضا، فاضطروا للاختيار بينهما، واستشاروا للتاجر.

درس التاجر الأمر، وشاور العقلاء، وقلب الأمر بعقله وقلبه وبصره. تفرس بالبصر والعقل في زعيمي الطرفين، وبحث عن دوافعهم المستترة بالمظاهر. ألبست الصحراء وجهيهما أقنعة محكمة. تعبس وتبتسم، فلا تدري إن كانت أقنعة أم وجوه. وبالقلب تحسس عواطفهما. ما أسهل أن تتحجر القلوب، وما أبشع استغلالها للعواطف، لتصنع من التودد فخاً، فما أن تمد يدك للمصافحة حتى تقطع، لذلك كانوا لا يستغنون عن عقل التاجر، فهو أفضلهم في الرؤية بعقله والتبصر بقلبه.

لا أعرف نصيحة التاجر الحكيم لأهل قريته، لكني متأكد بأنه استمدها من دروس الحياة البليغة، فلم ينحاز لحائل لأن ابن رشيد كان يخاطبه: "عمي " ولا للدرعية خوفاً من ابن سعود الذي حكم أجداده الجزيرة كلها في الماضي غير البعيد.

يعرف التاجر بأن ابن رشيد تكفيه حائل وولاء التاجر وأهل قريته، لكن ابن سعود طموح. تطارده أشباح أجداده، خاصة أولئك الذين هلكوا بغتة. أحدهم أسره المصريون وذبحه الأتراك في ساحة بالاستانة، وآخر مقتول بطعنة خنجر عراقي في المسجد، وعلى بعد خطوات من قصره، وكل أقاربه وحراسه وعبيده لم ينقذوه. أشباحهم حاضرة في مقدمة جيشه، ويرقدون في فراشه كل ليلة، ومحاجر عيونهم التي أكلها الدود لا تفارق مخيلته، لو خذلهم فلن يتركوه يغفو للحظة واحدة.

هل كان التاجر وطنياً؟ رأى الإنكليز عند المرافئ، ينتظرون قدوم المد، الذي سيحملهم إلى قلب الصحراء، لهز سلطنة العثمانيين، وعلى عكس أمير الدرعية لم تكن لأمراء حائل صلات بالإنكليز. لم يعقدوا معاهدات معهم، ولم يقبضوا أموالاً منهم، وظلوا على ولائهم للباب العالي، حتى أنهم لم يرهقوا التجار بالإتاوات، وفي عهدهم ازدهرت التجارة، ولأن حائل أهون الشرين، انحاز التاجر لهم.

عندما بلغ التاجر خبر تحرك الجيوش، وقبل أن يغادر ابن رشيد المنطقة، ذهب للقائه، ودار بينهما حديث، لم تأخذني الشجرة لحضوره، ولم أقرأه في كتب التاريخ، لكنها أكدت حدوث اللقاء، والتفاصيل من المخيلة.

اقتحمت بقعة الضوء مجلس ابن رشيد، وبعد ثلاث أو أربع قفزات على الأرض حطت قرب مكانه. مد يده ليمسك بها، لكنها لم تنتظره، وتلاشت فجأة، بعد أن حركت سكون بحيرة عقله، فاضطربت بالأفكار، من النوع الذي يخيفه، ويقلق نومه، فيترك فراشه وسط الليل، ويقصد مجلسه فلا يجد سوى الحراس يغالبون النعاس، فيحسدهم. يدرك بأن حياته مثل بقعة ضوء، قفزات هنا وهناك، ثم يبتلعها الظلام.

لم تكن بقعة الضوء رسالة من وراء الغيب، لتذكر ابن رشيد بأن الحياة زائلة، ولو دامت لأخيه لما اضطر لقتل أقاربه، بل هي نظارة التاجر، التي اشتهر بها بين الأعراب، سقط عليها ضوء الشمس، وانعكست شعاعها داخل الخيمة.

استقبله عند مدخل المجلس. لم تكن بينهما مصاهرة، ولا صحبة طويلة، ومئات الأميال تباعد بين بلدتيهما، ولكن ابن رشيد، مثل النصراني يقدر الحكمة، والتاجر رجل حكيم، أو ربما فيلسوف، كما سماه النصراني، والحكمة أندر سلعة في الصحراء، وربما في العالم أجمع.

لم تغادر بقعة الضوء عقل أمير الشمال بعد أن أيقظت أفكاراً غريبة. حاول طردها، لأن لديه أمور أهم، حياة وموت الألاف، لكنها ظلت توسوس، حتى طفرت من عقله إلى لسانه، فسأل التاجر عنها. خلع التاجر نظارته، ثم ابتسم وقال:

- لست أعمى تماماً، أميز بين الضياء والظلام وبين الحركة والسكون.

ورث أولادي ضعف البصر منه. طفرة وراثية عبرت ثلاثة أجيال، فالعرق دساس. لو كان حياً وعرف بذلك فماذا سيقول له عقله الحكيم؟ أبرأ نفسي من المسؤولية أمامهم فأقول لهم هذا جناه عليكم جدكم من أمكم.

- ليس كافياً أن تكون للإنسان حاسة البصر.
- نحن أهل الصحراء نعرف ذلك أفضل من غيرنا.
- يقولون بأننا نتميز ببصر حاد.
- ليس حاداً بدرجة كافية للتمييز بين الحقيقة والسراب.
- سمعت بأن السراب عبارة عن صور لأشياء فعلية موجودة على مسافة بعيدة من الرائي، تنتقل بطريقة عجيبة، فعندما تشاهد نخيلاً وماء فهي موجودة بالفعل، لكن ليس في المكان الذي تراها فيه.
- لو يخبرنا السراب بما يدبره لنا ابن سعود.
- لا نحتاج للسراب لنعرف ذلك، إنه ينتظر وراء الأفق يحسب في عقله الأموال والمؤون التي سيغنمها منا والضريبة التي سيفرضها علينا.
- وماذا تشور على أيها العم؟
- قوة كافية لردعه عن مهاجمتنا.

أخبره قائد الشماليين بنيته المسير شمالاً لتأديب متمردين ووعده بقوة من المقاتلين للمرابطة في القرية والدفاع عنها ضد جيش الدرعية، ولكن الدفاع سيكون صعباً من دون أسوار للقرية وقلعة يتحصنون فيها.

- من عندي الرجال وعليكم بناء السور وترميم القلعة.
- كلام معقول لكن جماعتنا التجار وأهل البساتين لا يقتنعون بسهولة.
- الا يخافون على أرواحهم وحلالهم؟
- الواحد لا يتعلم إلا من عثراته.
- جماعتك متنورون وشاهدوا الدنيا الواسعة ويعرفون التاريخ، أخبرهم عن تاريخ عائلة هذا الذي يجلس في السراب وينتظر ما وراء الأفق وبالذات جده الذي اغار على جنوب العراق، قصد مدينة النجف أولاً فصمدت فتحول عنها إلى مدينة كربلاء فاقتحمها وقتل الألاف من سكانها ونهب ما نهب والباقي معروف لدى الجميع، قل لهم السر في صمود الأولى وانكسار الأخرى هو السور.
- سأحاول.

رفض التجار التبرع بأموالهم لبناء السور والقلعة. بخلوا، وتذرعوا بالجفاف، وقلة تمور الموسم، وكثرة الضرائب. حاورهم التاجر وذكرهم بالتاريخ ودروس العيش في الصحراء. قال لهم:

- في الصحراء إن لم تتحرك فستدفنك الرمال، أما إذا قررت البقاء في مكانك فلا بد لك من بناء سور حولك.

عادوا ليشتكوا من قلة المحصول ورداءة التمور.

- قولوا هذا الكلام للأمير.

عندما تضطرب الأفكار ويحتار العقل في الاختيار لا تحل الأمور دائماً بالاستخارة، ويكون الاختيار رديئاً مع البخل.

- نحن مثل الكرة التي يلعب بها أطفالنا في الزقاق.
- مكتوب على الكرة أن تتقاذفها الأرجل.
- في آخر النهار تكل أرجلهم وترتاح الكرة.
- إلا إذا تمزقت نتيجة ركلة قوية.

والكلمة الأخيرة كانت للتاجر:

- خوفك من أن يستولي عليها أحدهم ويأخذها لبيته فيتوقف اللعب.

أكملوا الطريق في صمت، وعاد الاضطراب ليملأ عقولهم بالضجيج. لو توقف هذا الضجيج لربما اهتدوا للجواب، ولكن أدمغتهم ظلت معطلة بكثرة الأسئلة المحيرة. ذكرت أحدهم بشيخ الكتاتيب. كان يتلذذ بإحراجهم بأسئلة يعلم جيداً بأنهم لا يعرفون إجابة عليها لأنه لم يعلمها لهم من قبل.

وقف ابن رشيد عند باب خيمته لاستقبالهم. لم يحدثهم عن بقعة الضوء ولا السراب بل دخل بالموضوع مباشرة، فكان جوابهم كما توقع التاجر:

- يا طويل العمر الموسم كما تعرف كان سيئاً وأكثرنا مديونون، ولو صرفنا ما لدينا على بناء السور والقلعة فسيجوع الناس.

كان متفهماً ولم يضغط عليهم لكنه لاحظ ضعف همتهم، فهم وإن كانوا أهل قرى فطباعهم بدوية، وفي القتال لا ضمان لولائهم، الذي يتغير بأسرع من الريح. طلب منهم الحد الأدنى الذي يطلبه حاكم من أتباعه: المبايعة والعهد، ولا بد أنهم كانوا سعيدين بذلك فالمهم أنه لن يكلفهم شيئاً، فبايعوه على السمع والطاعة وعادوا إلى قريتهم.

غادر أمير حائل المنطقة تاركاً فيها قوة صغيرة، وسرعان ما وصل الخبر إلى ابن سعود، وكانت تلك الفرصة التي ينتظرها منذ زمن، ولو نجح هذه المرة فسترضى عنه أشباح أجداده الساكنة تحت وسادته.

سار ابن سعود على رأس جيشه. ولكن الشماليين لم يحضروا على عجل كعادتهم لتتعادل الكفتان ويخرج أهل القرية سالمين، وكانت المعركة سريعة. اندحرت القوة الصغيرة التي خلفها ابن رشيد، وقتل قائدها.

نصب ابن سعود مجلسه عند مشارف القرية، وسط بستان نخيل، تبين فيما بعد بأنه للتاجر أو أحد اقاربه. ربما تعمد القائد المنتصر اختيار ذلك المكان بالذات، ليبعث رسالة إلى التاجر وعائلته، وما حدث بعد ذلك يؤكد هذا الاحتمال.

لم يحتار وجهاء القرية، ولم يتريثوا بسبب مبايعتهم لأمير الشمال. وقفوا منتظرين عند مشارف القرية، وقبل أن تدخل طلائع الجيش أزقتهم، هرعوا لملاقاته، وكان أميرهم أول المبايعين، على السمع والطاعة، لولي أمرهم الجديد، وهم من قبل بايعوا غيره، واقسموا بالله على نصرته، ثم أخلفوا. الله يداول الأيام بين الاقوياء، ونحن نداول ولاءنا بينهم، هكذا كانوا يبررون لأنفسهم، عندما يخلون بها، بعد خلع الأقنعة، في الليالي المظلمة، لا يرونها ولا تراهم.

حضر الجميع للمبايعة ما عدا التاجر. صبر ابن سعود يوماً، ثم غضب، لأن التاجر نغص عليه فرحته بالنصر، وتحسس الرسالة الواصلة من الكويت في جيبه. حذره الشيخ مبارك فيها من التاجر وعائلته، ونصحه بالقبض عليهم حتى لا يتآمروا عليه، ومبارك لا ينسى ولن يغفر للتاجر تحالفه مع أمير حائل الذي هزم قواته وقتل أقاربه.

6

لو كانت شجرة العائلة تحزن، لعبرت عن حزنها باضطراب اغصانها واصفرار أوراقها ونزيز نسغها.
حلقت الشجرة فوق بيت واسع في قرية التاجر. أحاط به الغزاة من كل جانب. أسلحتهم متنوعة، وكل أنواعها اليوم ترقد في المتاحف: رماح وسهام وسيوف وبنادق عتيقة، ولكن هنالك ما هو أخطر من نصال الرماح المدببة، ولمعان السيوف المصقولة، وفوهات البنادق المعبئة بالبارود والخردق، وهي أهواء الرجال المسلحين. كانت خليطاً من الزهو والقسوة والجشع، لذلك تردد التاجر واقرباؤه في القدوم على أمير الغزاة المنتصرين.
من يصدق بعد ذلك أن ما حدث كان عرضياً، طيش مقاتلين، خالفوا أوامر قائدهم؟ ويحدث مثله في الكثير من المعارك. هكذا وصفه المؤرخون، وليس بالصدفة أن يكون هؤلاء من حزب المنتصرين.
هجموا على بيوت القرية، ولم يتركوا بيتاً واحداً، حتى أعشاش الفقراء في أطرافها. لم يدقوا الأبواب أو يستأذنوا، ولم ينتظروا أن يفتحها أهلها. والأبواب التي أقفلت بوجوههم تعاملوا معها بجذوع النخل، فلم تصمد طويلاً، واقتحموها غير مبالين باستنكار الرجال وتوسل النساء وبكاء الأطفال.
كان ضجيج شكوى المدنسة بيوتهم والمنهوبة مؤونتهم عالياً. ارتفع من بيوتهم، واخترق زقاق القرية حتى مخيم الغزاة، وسمعه رئيسهم، فلم يأمر اتباعه بالتوقف.
بدأوا بنهب النقود وحلي النساء، ثم جاء دور المؤون، فلم تبق حبة قمح أو أرز أو برغل في منازلهم، ولم يكتفوا بذلك. عادوا لجمع القدور والصحون وقطع الأثاث، وحتى بعد أن فرغت البيوت تماماً من محتوياتها ورددت حجراتها الخاوية صدى عويل النساء وبكاء الأطفال لم يأمر رئيس الغزاة أتباعه بالتوقف.
كان بيت التاجر أكبر الغنائم. تزاحم عليه العشرات من المقاتلين، وتدافعوا بالمناكب عند الباب، وتبادلوا السباب، وامتدت الأيدي إلى الخناجر، ولولا تخوفهم من أميرهم وخسارة حصتهم من الغنائم لتقاتلوا. والنهب مثل القتال صنعة الرجال وحدهم، ولا مكان فيهما للنساء والأطفال، لذا لم تجتذب انتباههم المرأة السوداء، والتي خرجت من البيت تحمل فوق رأسها قفة كبيرة، وعندما لاحظت نظرات أحدهم معلقة على القفة لم تنتظر سؤاله، بادرته بالجواب:

- إنها حصتي من الغنيمة.

قالتها مستنكرة، وقبل أن يفتح فمه أضافت:

- هي كل ما استطعت الحصول عليه. إنها فضل من لا شيء. ماذا تنتظر أنت؟ ماذا تنتظر؟ أسرع حتى تحصل على حصتك قبل أن يفرغ بيت التاجر!

تركها واختفى داخل البيت المزدحم.
انسلت الجارية السوداء بين البيوت، وسارت بسرعة نحو مشارف القرية، وتعقبتها الشجرة، واقتربت منها حتى شاهدت تجاعيد وجهها وحركة شفاهها. كانت تحدث نفسها، وتصورت حالتها النفسية. كانت خائفة على القفة ومحتوياتها من المنهوبات، أو هكذا افترضت.
شعرت بالسخط على المرأة السوداء. لا بد أنها عبدة من عبيد التاجر، وجدتها فرصة سانحة، بعد هزيمة حلفاء سيدها، واستباحة الاعداء لمنزله. حركها الطمع، وربما شيء أخر، أشد قوة وتأثيراً، هو الانتقام من كل السادة الجائرين، ولكن هل كان التاجر الفيلسوف ظالماً؟
ترنحت المرأة السوداء، وكادت أن تفقد توازنها، بفعل ثقل القفة، ثم توقفت واَلتفتت. وجدت المكان خالياً إلا من الظلال التي رسمتها شمس المغيب على الجدران وفي زوايا الزقاق. أنزلت حملها ببطء، وكأنها تخشى تهشم محتوياته.
رفعت غطاء القفة، وبدلاً من رؤية منهوبات داخلها شاهدت شكلاً بشرياً متكوراً وسط القفة، مثل طفل في بطن أمه. وقف ببطء وصعوبة، ثم تمطا وخطا خارجها. كان التاجر. اختبأ داخل القفة، وحملته خادمته

المخلصة، وسارت به بين صفوف الأعداء، ولو قبض عليها المقاتلون لفتكوا بها، فهي ليست من الذين ولدتهم أمهاتهم أحراراً. خجلت من نفسي، لأني أسأت الظن بها، وتصورتها لصة تنهب منزل سيدها، فهذه المرأة الشجاعة ولو كانت عبدة أو خادمة تستحق مكاناً على الشجرة، في وسطها أو حتى أعلاها.

تمنيت لو أستطيع قراءة عقل التاجر داخل القفة. لم يدم مكوثه فيها سوى نصف ساعة أو أقل، لكنها أطول نصف ساعة في حياته. كور جسمه داخل القفة الصغيرة، ولا أظنه تأفف من ضيقها، ولا أزكمته روائحها، لكنه أصغى بكامل حواسه، وانشغل عقله بتفسير الأصوات والضجيج خارجها، وربما حبس أنفاسه عندما استوقف مقاتل خادمته الوفية، ولم يتنفس الصعداء حتى خفت الأصوات وابتعدت.

سارا بين الظلال، ثم اختفيا عند نهاية الزقاق حيث انطفأت بقايا ضياء الشمس وساد الظلام، لكن الأصوات الحزينة المنبعثة من بيت التاجر وأقرباءه لم تتوقف حتى ساعة متأخرة من الليل. بكت النساء على رجالهن الأسرى وعلى حليهن المنهوبة، وزاد من وطأة أحزانهن منظر بيوتهن الخاوية من المؤون والأثاث، وتساءلت مع نفسي إن كانت من بين الثكالى موزي التي أسعفت جنود مبارك، وهل واستها نساء القرية كما واستهم أيام المجاعة؟

شطبت الشجرة الزمن، وحولت الساعات إلى دقائق، وعادت الشمس لتتوسط السماء، وكان جنود الغزاة قد ملأوا بطونهم من تمور بساتين التاجر وغيره، وخثرت أبدانهم، فتجمعوا تحت أجمات النخيل وفي ظلال البيوت ليهضموا وجباتهم الثقيلة ويحتموا من حر الظهيرة. انتهت مهمتهم للوقت الحاضر على الأقل ولم يصدر زعيمهم أوامر جديدة، وعلى الأغلب سيقضون ليلة أخرى في القرية قبل العودة لديارهم فجر اليوم التالي.

في اليوم التالي قطعوا رؤوس النخيل بمقارض الحديد، وعند أهل القرى يأتي النخل قبل الولد. تسعة أشهر كافية لتعوض الولد، والأولاد عادة كثيرون، لكن النخلة لا تعوض إلا بعد سنين، ولولا النخل لمات الأولاد، وليس في نظرهم منظر أفجع من نخيل بدون رؤوس، لذلك استحيا الغزاة المنتصرون أولاد أهالي القرية وقرضوا رؤوس نخلاتهم العزيزات، وفرضوا عليهم ضريبة باهظة.

قبل الظهيرة ارتفع صوت من قرب بستان النخل المقصوص عند مدخل القرية، حيث نصب زعيم الغزاة خيمته الكبيرة، ورددته أصوات من مداخل البيوت القريبة، وتناقلت صداه جذوع النخل. لم أتبين منه سوى كلمتين: قبضوا عليه، حتى وصل الصوت إلى دار التاجر المنهوبة، وسمعتها مع المحاربين المستظلين بها قوياً وواضحاً:

- قبضوا على التاجر!

7

في اليوم التالي رحل جيش ابن سعود، حملوا معهم المنهوبات والتاجر وعدد من أقاربه. ليس مهماً إن كانت أيديهم مقيدة بالسلاسل أو الحبال أم لا، وربما أهينوا في الطريق واجبروهم على السير على الأقدام حفاة بعض المسافة.

كان فكر الأسرى منشغلاً بالمصير الذي ينتظرهم، فهم يعرفون جيداً قسوة أعدائهم، وهي أحد الأسباب التي دفعت بالتاجر الأشبه بحمامة كما وصفه الرحالة النصراني للوقوف ضدهم.

وضعوا الجميع في سجن القرية، إلا التاجر وابنه. حبسهما ابن سعود داخل قصره، لا تكريماً لهم بالتأكيد، بل خوفاً من فرارهما، ولو حبسهما في السجن العام مع بقية أفراد العائلة فلا يستبعد قبول حراسه لرشوة لقاء تسهيل عملية فرارهما.

كتب أحدهم، واسمه مدون على ورقة من أوراق الشجرة، بأن ابن سعود أكرم التاجر وولده ونقلهم إلى إحدى القرى حتى ينتهي الصراع مع ابن رشيد، وبأنه فعل ذلك استجابة لأهل القرية الذين طالبوه بإبعاد التاجر وعائلته عن قريتهم بعد أن جلب الخراب عليها.

لكن رواية حفيدة التاجر مختلفة تماماً.

كان التاجر وابنه وأقرباؤه في نظر ابن سعود صيد دسم، وأراد الانتفاع من حبسهم. عصرهم كما يعصر أصحاب البساتين التمر، لاستخراج الدبس، حتى استنفاذ آخر قطرة، وأرضى حليفه مبارك الكويتي في نفس الوقت فهو يكره التاجر وعائلته ولا ينسى دورهم في هزيمته أمام جيش حائل ومقتل أخيه وأقربائه في المعركة.

وصل الخبر إلى ابن التاجر في الشام، ومن بعدها جاءت رسالة الفدية. لم تبين حفيدة التاجر محتواها، أو هي لا تعرف. وماذا يمكن أن تكون غير التالي: أبوك رهينة عندنا، اِدفع وإلا نفصل رأسه عن جسده، أو كلاماً من هذا القبيل.

فرض عليهم دفع عشرة آلاف ريال، وهي فدية أمير عندهم، ولكن التاجر ثري وقادر على دفع أضعافها، وأبناؤه يشتغلون بالتجارة، ولم يتأخر ابن التاجر في الشام عن سداد الفدية، ولكن ابن سعود لم يطلق سراح التاجر، فتلك كانت أولى قطرات الدبس.

أخذوا نظارات التاجر، وتركوه شبه أعمى. كان يرى بعيني ولده المحبوس معه. وصف له الغرفة التي قضيا الأيام بلياليها فيها. الحجرة قميئة ولكنها أرحب من زنزانة في سجن القرية، ولم يسمحوا لهما بغادرتها إلا لقضاء الحاجة.

زيارة المسجونين ممنوعة، فلا تقطع رتابة الأيام المملة في الحبس سوى أوقات إحضار الطعام. وفي اليوم الأول وبعد صلاة الظهر أحس التاجر بوقع أقدام تدخل الغرفة، ورأى خيالاً يتحرك في فضائها. خمن بأنه لامرأة، وتأكد من ذلك عندما اشتم نفحات عطر هندي ممتزجة برائحة صنان هبت عليه من ناحيتها. وضعت صينية الطعام على أرض الغرفة ثم خرجت.

سأل التاجر ولده:

- من هذه المرأة؟
- لا أدري.
- بيضاء أم سوداء.
- ليست عبدة.
- من آل سعود يا ترى؟
- يمكن. وأضاف بصوت خافت:
- ليست جميلة.

- صفها لي.
- ديسها بكبر رأسك.

قالها بنفاذ صبر وتمنى لو يعيدوا نظارة أبيه فيرتاح من أسئلته الكثيرة.

عندما يسأل قروي عن ثدي امرأة يأتيه الجواب بأنه أكبر أو أصغر أو مساوي لرأسك، سمعتها في قريتي بالعراق، كما سمعها التاجر من ابنه في نجد.

لماذا أرسلوا امرأة بوجباتهما اليومية بدلاً من أحد العبيد؟ تصر حفيدة التاجر بأنهم لم يكرموا عزيز الشجرة بعد إذلاله، فليس هنالك أذل من الاسر سوى الحبس والتعذيب، وهم حبسوا التاجر وعذبوه بتهديده بالقتل وحرمانه من نظارته، ومن دونها كان شبه أعمى.

تحركت عتلة الشجرة بقدرة قادر فتبدل الزمن لا المشهد.

هي نفس الغرفة الصغيرة في قصر ابن سعود، يغطي جانباً من ارضيتها الصخرية سجاد رقيق بنقوش بدوية بدائية، وفي إحدى الزوايا فراشان مرصوفان. دخلت المرأة، ذات الصدر الموصوف من قبل، ووضعت صينية الطعام على الأرض ثم خرجت.

فرغ الحبيسان من تناول الوجبة الصغيرة. غسل يدي التاجر مهمة الخدم أو النساء، لكن للحبس ضرورات. حمل الابن المغسلة الثقيلة ووضعها أمام أبيه، ثم عاد لإبريق الماء النحاسي، ليجده بيد الغريب، دخل الغرفة على غفلة، وسلم على الابن برفع اليد واضعاً اصبعه على فمه. أخرست الدهشة الابن فلم ينطق بكلمة، ودنا منه الزائر ليهمس بإذنه بكلمات، تبدلت نتيجتها تعابير وجهه، من الاستغراب والشك إلى التوقير والفرح.

كان الإبريق في يد الزائر، وكفا التاجر ممدودتان في الهواء، تستقبلان أولى قطرات الماء، وفي تلك اللحظة أدرك التاجر أن الواقف أمامه، ويصب الماء على يديه غريب وليس ابنه، فسأله:

- حياك الله! من الأخ؟

أجابه الابن:

- ابن ثاني.

سحب التاجر يديه بسرعة، وقام للسلام على زائرهما. هو شيخ قطر، ولو لم يستولوا على نظارته لما وجد نفسه في هذا الموقف المحرج.

كانت تفاصيل ما دار بين ابن ثاني والتاجر تصل ابن سعود تباعاً من أعوانه المتنصتين عند باب الغرفة وتحت كوتها الصغيرة العالية. بعد انتهاء زيارة ابن ثاني للتاجر سيطلب منه الافراج عنه فماذا سيجيبه؟ ابن ثاني مطلع على تاريخ الصراع بينه وبين التاجر وجماعته، وهو حليف مهم له، والأهم من ذلك صلاته القوية مع العثمانيين ويحتاج لوساطته لديهم، فهو ليس قوياً بعد بحيث يتحدى سلطة العثمانيين ولم ينسى مصير أجداده الذين تمردوا على العثمانيين، فانتهوا مقطوعي الرؤوس في عاصمة العثمانيين، ولا يستطيع الاعتماد على الإنكليز، فهم يميلون مع القوي ولو كان ابن رشيد مكانه اليوم لعرضوا عليه التحالف بدلاً منه ومن مبارك.

سيطالبه ابن ثاني بإطلاق سراح التاجر، لكنه يحتاج للأموال التي يرسلها ابنه من الشام، وهو تاجر ثري مثل أبيه، واخوانه تجار أيضاً، ودفعوا كل ما طلبه منهم، ولو طلب أضعاف ذلك لما تأخروا، لكنه اقتنع بأن أفضل طريقة لاستخراج النقود من خزائنهم العامرة بالتعامل معهم كما يتعامل القروي الخبير بالزراعة مع بئره، فلا يسرف في استخراج الماء لئلا ينضب ولا يقتر فيهلك نخيله وزرعه. وكان يعول على ابقاء التاجر لديه حتى يحقق أهدافه فترحل أشباح أجداده عن فراشه ويرتاح.

استقر رأيه على المماطلة لأطول وقت ممكن. لن يطلق سراح التاجر وأهله كما طلب ابن ثاني، لكنه سيحمله وعوداً ورسائل إلى الباب العالي في الاستانة، ليكسب فسحة من الوقت ومال التاجر ووساطة ابن ثاني، ولو حصل على الثلاثة دفعة واحدة فسيكون محظوظاً، وهل هنالك محظوظ مثله، بالأمس كان هو وأبوه تحت رحمة مبارك، وكيف تأمن رجلاً يفتك بأخويه من أجل الحكم؟ تخافه نعم، لكن تثق به مستحيل، خاصة بعد أن تركهم شهوراً من دون عانة واحدة، حتى اضطروا للنزول في ضيافة أحد أقرباء التاجر

المسجون، هنالك أصبح أحد احفاده أخاً بالرضاعة لواحد من عائلة التاجر. مجرد تفصيل مخجل صغير سيغفله المؤرخون وسط زحام الأحداث المصيرية، وان تذكروه فلن يتهمونه بقلة الوفاء ونكران الجميل إلا إذا فشل وعاد إلى الكويت لاجئاً، وحينئذٍ سيكون كل التاريخ والمؤرخين في الصف الآخر.

عاد ابن ثاني ليودع التاجر وابنه. ولم يحمل لهما خبر الافراج عنهما لكنه قال لهما بأنه لن ييأس وسيتصل بالأمراء والشيوخ ليؤمن إطلاق سراحهم بسرعة.

غادر ابن ثاني وتركهما مع الهم. لم يكن التاجر متفائلاً أصلاً، فهو يعرف ابن سعود، المسكون بعفاريت اجداده، حكموا الجزيرة من البحر إلى الخليج في الماضي، وهلك البعض منهم بالاغتيال أو قطع الرأس، وهو لا يريد أن ينتهي مثل أبيه لاجئاً عند شيخ الكويت يتكرم عليه يوماً ويذله أياماً، وأجداده الموتى خرجوا من قبورهم وكالعيارات انطلقوا أمامه، يتحدونه للحاق بهم.

في مثل هذا الوقت من الظهيرة عادة ما ينام التاجر ساعة. تشتد حرارة الغرفة، فيمسك ابنه بالمروحة المصنوعة من خوص النخل ويحركها أمام أبيه، وبعد دقائق يطلب منه التاجر التوقف، لأنه لا يتحمل هواءها. يكره أن يكون عبئاً على ابنه، وحزنه على ابنه الحبيس معه أشد من حزنه على نفسه وثروته. هو يستطيع التحمل لكن ابنه الشاب ملول، يتوق للحرية ويشتاق لرؤية ولقاء أقاربه وأصدقائه.

يبلغ حزن التاجر ذروته عندما يتذكر أقاربه المحبوسين في سجن القرية. هو وابنه يأكلان الأرز والخبز والتمر كل يوم، وأحياناً اللحم، وبوده لو يعرف طعام أقاربه. تتذكر حفيدته قصة تداولها الناس عن جدها، كان مسافراً على جمل فشاهد أعرابياً جالساً في العراء في يوم شديد البرودة فسأله:

- لم لا تنصرف لبيتك لتتدفأ وتأكل العصيدة وتشرب اللبن.

لم يتعرف عليه الإعرابي وخاطبه مستهزئاً:

- وهل أنا التاجر أبو عوينات؟

فنزل التاجر من راحلته ونزع عباءته الثمينة وأعطاها للأعرابي.

تمنى التاجر أن لا يكون طعام أقاربه المحبوسين خبزاً وماءاً أو فضلات طعام السجان والعبيد. ذنبهم الوحيد أنهم أقاربه، وهو الجاني عليهم بمواقفه، وعلى ابنه المحبوس معه.

ذبّت حفيدة التاجر عنه:

- لقد حفظوا السمعة، وهذا هو المهم، وليس جديراً بمثله مجاملة قاتل أخويه في الكويت والتحالف مع المسكون بأشباح أجداده، الذين قضوا ولم تتحقق أحلامهم بإمبراطوريات جديدة.

بعد تبدد الأمل بنجاح مهمة شيخ قطر في إطلاق سراح التاجر وابنه وأقاربهما لا بد أن فكرة الهرب طرأت على ذهن التاجر، أو توقع سماعها من ابنه، وهو لا يريد أن يتسبب لولده بإحباط آخر، ولكنه مضطر لمصارحته بالعواقب:

- لقد حبسنا في بيته ليتأكد بأننا لن نهرب، هو يعرف أتباعه، لن يصمدوا امام إغراء المال، وحراس سجن المدينة فقراء، مائة ريال كافية لإقناعهم بفتح أبواب السجن لك ولكن هنا، نحن وسط البيت ومن حولنا غرف أخرى، ولو نجحنا في الخروج منها فسنواجه بسور البيت العالي.

وكان الابن عاقلاً ومتفهماً:

- الصبر على السجن أفضل من مصير ذلك الأمير وأعوانه الذين هربوا من سجن الرياض.
- أحسنت، مساكين، حرموا أنفسهم من الماء ليسكبوه على جدار زنزانتهم الطيني، حتى يلين الطين اليابس وينقبونه، وبعد أيام من العمل المضني نجحوا في احداث حفرة في الجدار تكفي لمرور أجسامهم النحيلة بسبب الجفاف وقلة طعام السجن الرديء، وخرجوا من السجن إلى الحرية، وكانوا فرحين بالتأكيد، ولكنهم لم يعرفوا بأن السجان عرف بخطتهم منذ أول يوم بدأوا فيه بنقب الجدار، وسارع لإبلاغ أميره، الذي فكر قليلاً ثم أمره بعدم التعرض لهم، وخرج السجان البسيط من لقاء أميره متعجباً، فقد كان يتوقع منه أن يأمر بنقلهم إلى زنزانة أخرى، وحتى بحرمانهم من الماء والطعام لأيام. وعندما خرج السجناء من زنزانتهم كانوا مرهقين بسبب قسوة السجن وحلوقهم جافة

من قلة الماء، وكما توقع ابن سعود، الذي أرسل رجاله وراءهم لم تطل المطاردة. لحقوا بهم على مسافة قصيرة من المدينة، وكانوا غير مسلحين، ولم يعودوا بهم إلى السجن. قتلوهم في الموضع، كما أمرهم أميرهم.

8

بعد وجبة غداء سريعة وجدت الشجرة بانتظاري، وما أن صعدت إلى وسطها حتى أقلعت إلى الصحراء مرة أخرى. بدت لي الشجرة أكثر نشاطاً وحيوية، كما تبدو الأشجار عندما تهب عليها نسمة لطيفة في الصباح، سوى أن الهواء كان واقفاً، ولو هب فلن تكون هنالك نسمة بل زوبعة غبار، ولكن الرابطة الخفية بيني وبين الشجرة أوحت لي بأن روحاً جديدة قد حلت بالشجرة.

انطلقت الشجرة مقتفيه أثار قافلة جمال على الرمال التي بدت من أعلى وكأنها ندب على جلد مجدور تماثل للشفاء. تابعنا الأرض المَجدرة حتى أطراف قرية صغيرة، تناثرت فيها بعض الأكواخ وأشجار النخيل، وفى نهايتها القريبة أناخت أعداد كبيرة من الجمال. وتدنت الشجرة لتسمعني حديثاً دار بين رجلين يراقبان اقتراب القافلة:

- أهذا هو؟
- نعم هو إلا ترى عدد الجمال؟
- لا تحسده يا رجل.
- اللهم لا حسد.
- البوشامي تاجر ذكي.

أسم غريب بالتأكيد، وسرعان ما علمت سبب التسمية.

- ولكن لا توجد عائلة نجدية بهذا الاسم.
- يا أخي هذا ليس اسمه الحقيقي، هو ابن التاجر أبو عوينات حليف آل الرشيد.
- إذن كيف صار اسمه بوشامي؟
- كان كلما يسأله أحد إلى أين أنت ذاهب يقول الشام من أين أنت قادم يجيبهم الشام وإذا تحدث يذكر الشام لذا سموه البوشامي.

هبطت شجرة العائلة فجأة، وتحيرت في اختيارها لمكان هبوطها، إذ بدلاً من مكان خال اختارت شجرة أخرى ضخمة، وتشبثت بالغصن القريب مني تحسباً لاصطدام الشجرتين، ولكن ذلك لم يحدث فقد امتزجت شجرة العائلة بالشجرة على الأرض، واتحدت معها أو لبستها كالثوب المفصل بدقة.

بعد أن اطمأنت نفسي نظرت حولي فلاحظت كيساً معلقاً على أحد أغصان الشجرة السفلى. وتملكتني رغبة بمعرفة محتويات الكيس، وتحركت على أغصان الشجرة ببطء وحذر نحو الكيس، سأفتحه لأرى ما فيه ثم أعيد إغلاقه. ولكن وقبل أن تصله يدي امتدت يدان غليظتان لتبعدا أغصان الشجرة، وأطل وجه رجل بدوي ملامحه قاسية، ووجدت نفسي وجهاً لوجه مع البدوي الغريب، شلت المفاجأة والخوف حركتي واخرستا لساني، كنت أبحث عن كلمات مناسبة لأبرر وجودي فوق الشجرة، فمن الواضح أن الرجل هو صاحب الكيس، وقد خبأه فوق الشجرة بعيداً عن أنظار السراق، وسيظن بأني صعدت الشجرة لأستولي على كيسه ومحتوياته الثمينة. ولكن ماذا أقول له وكيف سأثبت له براءتي؟

على الرغم من أن عيني الرجل تسمرتا على وجهي، ومن مسافة لا تزيد على مترين، وحتى لو كان بصره كليلاً فسيراني، لكنه لم يبد أي رد فعل يدل على ذلك، وكأني لم أكن موجوداً أمامه... أو لأنني خفي.

تناول الكيس وزحزحه من مكانه ليخلصه من بين أغصان الشجرة، وسمعت زفرات أنفاسه الحادة بفعل ثقل الكيس ثم اختفى الكيس والبدوي. نظرت إلى أسفل فوجدته واقفاً على ظهر جمل، واندهشت من قدرته على الحفاظ على توازنه فوق الجمل المتململ وفي يده الكيس الثقيل الذي سارع رفاقه لتناوله وانزاله إلى الأرض.

- والله البوشامي ما في مثله.

تحلقت ثلة من البدو حول الكيس المفتوح، وقد بدت محتوياته من الطعام.

- ما كنت أصدق لولا رأيته بعيني.

- نحن محظوظون لأننا نسير وراء قافلته.
- هذه عادته.
- كلما مر بواحة أو قرية على طريق القوافل ترك في شجرها طعاماً للقافلة التي تأتي بعده.
- تصور لو أن كل رئيس قافلة فعل نفس الشيء.
- لما احتجنا لجلب زواد معنا.
- البوشامي كريم.
- أسمعتم بقصته مع التاجر الذي تأخر وصول تجارته فلم يكفله أحد سوى البوشامي؟
- أي سمعنا! البوشامي شهم وصيته ذاع بين الناس.
- أخاف عليه من الحاسدين.
- خاصة الرؤوس الكبيرة.
- هؤلاء لا يحبون رأساً تكبر عليهم.
- كلامك صحيح! والشاهد حديث ابن رشيد مع البوشامي.
- لكن البوشامي عزيز عند ابن رشيد.
- وأكثر من عزيز، البوشامي حزام ظهر ابن رشيد يقولون هو الذي كتب له مكتوب ينصحه بالهجوم على مبارك قبل أن يستولي على نجد كلها ويتوجه لحائل، ولكن الرؤوس الكبيرة تخاف من القريب أكثر من البعيد أحياناً، ولو أخوان ابن صباح اخذوا حذرهم من أخوهم لما استطاع أن يغدر بهم.
- صدقت هؤلاء ما بينهم أمان، الرئاسة والفلوس تعميهم.
- المهم في أحد زيارات البوشامي لابن رشيد قال له مازحاً: يا البوشامي الذي يشوف كرمك يظن إنك تريد الرئاسة علينا.
- كيف ينام هؤلاء بالليل؟
- الذكي منهم يحتاط.
- لكنها لا تنفع دائماً.
- المهم وماذا قال له البوشامي؟
- قال له يا طويل العمر أنا تاجر والتجارة وطلب الرئاسة لا يجتمعان.
- حكيم وعرف كيف يجاوبه!
- كان ابن رشيد يطعم كل القوافل المارة بديرته إلا القافلة التي تصل بعد البوشامي...لأنها تكون شبعت من متاع البوشامي المعلق على رؤوس النخيل.

البوشامي حكيم وكريم ولا يحب الرئاسة لكنه يتدخل بالسياسة، وفي زمانه كانت السياسة والتجارة لا تنفصلان، فالسياسي يحتاج للتاجر لتمويله، والتاجر يحصل بالمقابل على حماية قوافله والرخصة من الحكام. ومنذ عهد أبي سفيان والتجارة والسياسة متحدتان ومات أبو سفيان ولم يتغير الوضع فقد تلقفها الساسة والتجار.

انسلخت شجرتي من الشجرة التي لبستها. وعندما حلقت في الهواء استعادت خفتها، ولو كان للشجر مشاعر لقلت بأنها تفرح كلما غادرت الأرض، لعل ذلك يفسر ولع سكانها بالرحيل والتنقل، وبقدر تفاخرهم بأصلهم النجدي يتهافتون على الهجرة، من الهند وحتى الحجاز وجدوا مواطن بديلة لهم، والبوشامي واحد منهم.

إلى أين أيتها الشجرة؟ مصر. لم أسمع الجواب من الشجرة، بل من عقلي الذي انتبه لضجيج بشر وأصوات حيوانات، وشاهدت أسفل الشجرة جمعاً من أهل الصعيد في ثيابهم الفضفاضة وعمائمهم البيضاء وأفريقيين سمر بملابسهم المزركشة-لعلهم أحباش أو من النوبة-وأفندية بطرابيش حمراء بأيديهم

سجلات منشورة ومنشات لطرد الحشرات تتحرك بسرعة تضاهي حركة أذيال الجمال. وتصورت الهواء مليئاً بالحشرات الطائرة التي اجتذبتها قطعان الجمال.

إنه سوق جمال، تباع وتشترى فيه آلاف الجمال، من مختلف السلالات والألوان والأعمار. كان أكثرها واقفاً أو باركاً، وبعضها يتحرك بقفزات قصيرة على ثلاثة أرجل لأن الرابعة مربوطة. ودفع التزاحم بعضها لغرس أسنانها في القريبة منها، والكل شارك في سمفونية رغاء تصم الآذان.

لابد أن يكون البوشامي أحد هؤلاء الأعراب بثيابهم وعقلهم المقصبة، والواقفين وسط مجموعة من التجار والكتبة والسواس، وكأن الشجرة أحست بفضولي فدنت منهم، وتدريجياً تبينت ملامحهم، وكان تخميني في محله.

تعرفت على البوشامي من صورة قديمة بالأبيض والأسود تحتفظ بها حفيدته، بدا قصيراً وسط القامات الطويلة للمصريين والسودانيين. قسمات وجهه قوية. ليس في نظراته قلق وحدة مثل الأعراب الذين لم يتعودوا على الوقوف أمام المصورين. تظن بأنهم سينفلتون هاربين في أية لحظة أو يهجموا على المصور ويحطموا آلته. ولاحظت معاملة تجار الجمال له، الذين عبروا بكلامهم وحركات أجسادهم عن احترامهم له. كانوا تجاراً صغاراً وهو التاجر الكبير الذي يعتمدون عليه لكيلا تكسد تجارتهم، وتمنوا عقد صفقات معه يعودون بعدها إلى بلادهم أو قراهم في مصر والسودان والحبشة بالأرباح الوفيرة.

وقف البوشامي وسط حلقة التجار والكتبة، وتوقعت أن يكون حصانه في مكان قريب. كان لديه اسطبلاً للخيول، وعلم أولاده الكبار ركوب الخيل، ولأحد تلك الجياد العربية دور في حياتهم سيأتي ذكره في حينه. اجتذب اهتمامي كاتب واقف بجانبه يعتمر طربوشاً. هيئته هزلية بسبب نحول جسمه وضخامة السجل الذي أمسك به، وانهمك بالتدوين فيه، وتعجبت من قوة يد الكاتب اليسرى التي لم تهتز تحت وطأة السجل الثقيل، ثم لاح لي وجه من تحت طيات السجل لرجل استقر السجل على ظهره، هو حمال وظفه الكاتب ليحمل السجل كلما خرج إلى باحة السوق لتسجيل الصفقات بين التجار.

لم أنتبه للرجل الغريب حتى اخترق الحلقة المحيطة بالبوشامي ووقف أمامه، وهمس بكلمات في أذنه بعيداً عن أسماع الباقين.

بعد كلمات مقتضبة وجها البوشامي للتجار والكاتب أمسك بذراع الرجل واقتاده بعيداً، وكانت الشجرة فوق رأسيهما عند بداية حديثهما:

- أنا مرسل من قبل عمي وهو بوده يزورك اليوم.
- اهلاً بك وبعمك وكل الطيبين وكيف حاله؟
- بخير تسلم.
- يتفضل بالمرور على الفندق. هل تعرف العنوان؟
- من بعد أمرك عمي ما يقدر يروح الفندق لأسباب أمنية.
- أمنية؟ ما القضية؟
- عمي لديه مشكلة مع الأتراك. هو يريد أن يشرح لك وضعه وعنده طلب سيبينه لك عندما يلقاك.
- خير إن شاء الله. أين نلتقي؟
- هنالك مقهى صغير في حارة...

لم أنتبه لبقية التفاصيل، ولم يعلق شيئاً منها بذاكرتي، وحتى الشجرة لم تترك لي الفرصة للتفكير، وفجأة وجدت نفسي فوق شجرة وسط حارة مصرية قديمة، أسدل الليل عليها بستارته المظلمة ما عدا مساحة صغيرة أمام مقهى صغير أنارها فانوسان زيتيان.

حول طاولة صغيرة قريبة من باب المقهى جلس البوشامي والشاب الذي كلمه في ساحة سوق الجمال. التوتر ظاهر على ملامح الشاب. تتفرس نظراته الزقاق المظلم عند مدخل الحارة. وكلما خرج شكل بشري من الزقاق متجهاً نحو المقهى انتصبت قامته وكأنه يتهيأ للنهوض، ثم جاء الزائر المنتظر فقام الشاب ليحضر له كرسياً.

تبادل البوشامي مع الرجل السلام والأسئلة التقليدية عن الأهل، وأكد كل واحد منهما للأخر معرفته الوثيقة بعائلة الثاني والاحترام الذي يكنه لها، ثم جاء النادل وعاد بالطلب. وبعد أول رشفة من الشاي تنحنح الرجل وأدنى رأسه من البوشامي، ولم تفتني كلمة من حديثهما.

- لي طلب أرجو أن تلبيه.
- أنت من أهلنا وإن شاء الله لن أتأخر.
- أريد السفر معكم في القافلة.
- لكنها ستكون سفرة شاقة مع كل هذه الجمال والغبار والموسم حر.
- لا أخفي عنك بأنهم يريدون القبض علي.
- وما مشكلتك معهم؟ لعلني أستطيع التوسط لك عندهم.
- لم تنفع الوساطات والاسترحام، لديهم معلومات ملفقة عني.

انقطع الحديث وبعد أن أفرغ الرجل ما في قدحه عاد للكلام بنبرة امتزج فيها الغضب بالشكوى:

- أنا لست متآمراً والأمر كله ملفق. ما دخلي أنا والباب العالي؟ بل وحتى الباب الواطي لا أعرف مكانه.
- لعل الواشي يريد التخلص منك أو الانتقام.
- هذا ما أظنه. لا بد أنه واحد من منطقتنا له صلات بالمقامات العالية ومن خلالها دبر هذه التهمة الباطلة.

ازاء صمت البوشامي أكمل الرجل:

- اتصلنا ببعض المهربين وابدى أحدهم استعداداً لنقلي إلى الشام ومنها إلى نجد ولكن ابن أخي هنا يخشى من غدر المهرب ولم يبقي لي سوى اللجوء إليك.
- اطمئن! إن شاء الله ستصل إلى أهلك سالماً.
- أنا حاضر لكل ما تطلبه مني.
- هذا واجب علي وسنغادر بعد غد، نصلي الفجر في المسجد القريب من سوق الجمال ثم تنطلق القافلة فأرجو أن تكون هناك عند الموعد.

بعدها بدقائق غادر البوشامي والنجديان المقهى.

حلقت الشجرة في الهواء من جديد، وانكشط الليل عن الدنيا كما تتمزق ورقة من دفتر- سوداء تتبعها بيضاء. وتخيلت صوت التمزق حاداً ومتواصلاً وحاسماً.

رأيت البوشامي على صهوة حصانه الأصيل. وانحدرت الشجرة لتسمعني سؤال النجدي الهارب من العثمانيين:

- هل تتوقع أن تعترضنا دوريات للأتراك؟
- لا تقلق! الأتراك سكان جبال ولا يطيقون الصحراء.
- الآن فهمت سبب فشلهم في الاحتفاظ بسيطرتهم على صحراءنا.
- المصالح أب السياسة وأمها الجغرافية.
- ربما في الحالات الاعتيادية ولكننا في زمن استثنائي.
- صحيح هم قلقون جداً بسبب المؤامرات.
- لو أحسنوا معاملتنا لما...

ولم يكمل، ثم عاد بعد صمت قصير:

- وهنالك قطاع الطرق بالطبع.
- لا يخلو طريق من لصوص.
- كيف تتعاملون معهم؟
- قبل المسير أتصل برؤساء القبائل وأتفق معهم.
- تدفع؟
- أحياناً أدفع مضطراً.

- سياسة حكيمة.
- لا تجارة مع الخوف.
- ولو حدث لا سمح الله.
- تقصد لو هجموا علينا فنحن مستعدون لهم.
- أنا أفضل مهنة من دون مخاطر أقضي حياتي في المدينة بين أسوارها العالية وحماية الشرطة.
- أهم نفس الشرطة الذين تريد الابتعاد عنهم اليوم؟
- لا! ليس باختياري صدقني. لو ترك القطا ليلاً لنام.
- لا أدري. هل سأل الشاعر القطا؟

ضحك الرجل بصوت عال جاوبه جمل قريب برغاء غاضب. أكمل البوشامي:

- عادة ما يختار قطاع الطرق قافلة صغيرة. فهم جيران القطا، ويحسبونها جيداً.

ارتفعت الشجرة، فامتد خط القافلة من أسفلها حتى حرف الأفق.

انتظرت رؤية معركة وسط الصحراء، ولو قصيرة ومن دون دماء، بين قطاع الطرق وحراس قافلة البوشامي، لأرى ما سيفعله البوشامي في ذلك الموقف، لكن الشجرة خيبت أملي.

9

اختفت الشجرة ومعها البوشامي والنجدي المطارد والقافلة الكبيرة، وأفقت على صوت حافلة مارة في الشارع الرئيسي. لم أتعود النوم لهذا الوقت المتأخر من الصباح، حملت أحد كراسي المطبخ إلى جانب النافذة العريضة، لم يكن هذا المطبخ ضمن الشقة ونافذة الألمنيوم جديدة. عندما رممنا الشقة زججنا الشرفة وزدناها على المطبخ، واستبدلنا النافذة الخشبية الصغيرة بشباك ألمنيوم عريض.

يطل الشباك على مؤخرة عمارة سكنية وجانب من قصر قديم. ومن مكاني وراء النافذة أرى بوضوح سطح القصر الواسع وجدرانه المواجه لشقتنا. لم يتحول بعد إلى أطلال وما يزال محتفظاً ببعض رونقه القديم. بعد انقضاء أيام العز تآكل بناؤه مع مرور الزمن والإهمال، وعبث شرفاته وأسطحه من مياه الأمطار، وانهار جانب من سقفه ليكشف عن صف مخلخل من جذوع الشجر المهترئة. كان أشبه بجثة حيوان متفسخ انفجرت بطنه، وظهرت مصارينه، واستوطنته قطعان الجرذان. نراها تدب على جذوع السقف المائلة للسقوط.

تكره حفيدة البوشامي النظر إلى البيت المتداعي. يثير ذكرياتها فتحزن. وعندما تلمح جرذاً داخل القصر تتقزز وتبتعد، وتردد:

- أما أن يرمموه أو يهدموه.

لا أظنها تفضل الهدم. ولو كان للقصر مشاعر لسلبنا تألمه وصراخه النوم ليلاً، لذا كانت تريد منهم أن يريحوه بالهدم أو يرمموه.

أخيراً وبعد انتظار طويل حضر عمال الترميم وسمعنا بأنه سيكون مقراً لمدرسة ابتدائية.

لا تشبه واجهة البيت الحجرية الأنيقة مؤخرته المتداعية. لم تدخله حفيدة البوشامي سوى مرة واحدة. ذات يوم ترك العمال بابه المطل على الزقاق مفتوحاً على مصراعيه، فاستأذنت من المهندس. وبعد نظرة سريعة خرجت. أظنها لم تطق المكوث داخله طويلاً، أما أنا فاكتفيت بالنظر من باب الزقاق.

لم تقودنا الصدفة إلى شقتنا المطلة على القصر القديم، ولن استغرب لو اكتشفت أن الشجرة تسكنه، وعندما لا تكون محلقة في الهواء عبر الأماكن والأزمنة تهبط فيه لتريح جذورها وترخي أغصانها، ففي هذا القصر القديم المهترئ عاش البوشامي، وهنا تزوج أكثر من مرة، وولدت له زوجاته الأبناء.

مر الصباح وعاد أولادنا من مدارسهم وانشغلت بمعاونتهم في إعداد واجباتهم المدرسية. وبعد أقل من ساعة انتهت مهمتي، وانصرفوا لمشاهدة برنامج للأطفال، واستلمت مكافأتي: ابتسامة و"يعطيك العافية". وبانتظار غليان الماء في الابريق لإعداد فنجان شاي وقفت أمام النافذة الخلفية، وأرسلت مخيلتي إلى ذلك اليوم، في التاريخ غير السحيق. في السراي ما زال العثمانيون يحكمون، وفي المساجد يدعون للسلطان بطول العمر، وفي الأسواق يرطنون بالتركية أحياناً، وفي البيوت أيضاً، وحتى في قصر البوشامي، ولكن في ذلك اليوم لم تكن الرطانة بالتركية بل بالإنكليزية، وصدرت عن ضيفة حلت على البوشامي.

فتح خادم البوشامي لها الباب، وأدخلها إلى غرفة الاستقبال الغربية. وكانت هنالك غرفة استقبال شرقية للضيوف القادمين من الصحراء. وانشغل ذهن الخادم بالضيفة الغريبة، فلم يتذكر من اسمها سوى "المس" مع أنها كررته مرتين، ولم تكن تلك المرة الاولى التي يقصد أجانب قصر البوشامي وكان من بينهم نساء غربيات، ولكن "المس" كانت مختلفة، قوية من دون استرجال، ورهيبة من دون قلة تهذيب، وربما تساءل الخادم مع نفسه كيف تكون الحياة مع أمرأه مثلها؟ بالطبع لم تدر في خلد الخادم هذه الأفكار، أو حتى لو دارت فما أدراني. ولكني وضعت نفسي محله. لو كنت أنا الخادم الذي استقبلها ذلك اليوم، وقرأت بعض كتبها ورسائلها لورد إلى ذهني ذلك السؤال وتلك الأفكار.

من مكاني بالقرب من النافذة الخلفية المطلة على قصر البوشامي تصورت "المس" مرتدية ثوباً أنيقاً، وطويلاً يلامس قدميها، وفضفاضاً ليخفي تقاطيع جسمها. ولقبعتها حافة عريضة للوقاية من وهج الشمس، يزينها شريط ملون، أحمر أو برتقالي، وتعلوه زهور من قماش ملون أو حبات كرز اصطناعية صغيرة.

حذاؤها رمادي اللون، مرصع بوردة جلدية صغيرة حمراء. وبنظرة واحدة تتأكد بأن قدميها صغيرتان، بمقاس قدمي فتاة صينية قبل عهد ماوتسي تونغ، ومتناسبتان تماماً مع قوامها وجسمها النحيل.

كانت مليحة وجمالها متواضع. تجتذبك عيناها الواسعتان، بالمقياس الأوروبي بالطبع، ونظراتها المركزة، وكأنها تريد النفاذ إلى أعماق نفسك بنظراتها. والذي يراها أول مرة يظن بأنها تزم شفتيها الرفيعتين على الدوام، ولكنها تبدو كذلك بسبب صغر فمها، والمساحة الواسعة ما بين أنفها وشفتها العليا والتي تكفي لشارب كث.

من يشاهد نظراتها الحادة وأنفها الذي يشبه منقار وفمها الخالي من الأنوثة تطفر إلى ذهنه صورة صقر يهم بالهجوم على فريسة، مع فارق مهم، فالآنسة لا تحركها الغريزة بل العقل، ولأنها كانت مختلفة عن نسائهم هابها العرب.

لماذا تفتح منخاريها هكذا؟ وكأنها اشتمت رائحة ما، هي رائحة العنبر الفائحة من موقد البخور في ركن الغرفة. لا بد أنها تعرف أن بيت نجدي ثري مثل البوشامي لا يخلو من عطر فواح، وقد تكون أقوى من المعتاد في بيته، لكيلا تتسرب لأنوف زواره روائح اسطبلاته العامرة الملاصقة لقصره.

جلست على كرسي وثير، طرازه أوروبي، وفرنسي على الأغلب. ورأيتها في مخيلتي تقلب بصرها بين أثاث الغرفة. رفعت حواجبها تعبيراً عن دهشتها وإعجابها. لعلها قالت لنفسها: ذوقه سليم بالنسبة لرجل من الصحراء، ولو كان كل رجال الصحراء مثله لما واجهتنا مشكلة في التفاهم معهم أو على الأقل مع سادتهم، وباستطاعتنا تزويدهم بمثل هذا الأثاث، ليس بالضرورة الأصلي، فأشك بأنهم قادرون على التفريق بين أريكة فرنسية لوي كانز، أصلية وثمينة من القرن الثامن عشر وتقليد لها بأقل من عشر السعر. المهم أن تكون مزينة بالنقوش والطلاء الذهبي لكي ينبهروا بها.

- مستورد من فرنسا.

جفلت من صوته فسحبت يدها التي كانت تتحسس بها قماش الأريكة بسرعة.

- لديك ذوق ممتاز في الأثاث.
- شكراً. الإنسان الذي يسافر كثيراً مثلي يتعلم.
- كنت أنتظر رؤية أثاث مختلف، شرقي لا غربي.
- وهل تفضلين الأثاث الشرقي؟
- أنا أحب الصدفيات.
- لننتقل إلى غرفة الاستقبال الأخرى فربما ستجدين فيها ما تفضلين.

أشار بيده نحو الباب، والابتسامة لا تفارق وجهه، فنهضت وسارت أمامه. خطا بسرعة ليفتح الباب المقابل لها، فدلفت أمامه إلى غرفة أوسع من الصالون الغربي. صفت على جانبين من الغرفة أرائك عريضة من الخشب المحلى بالصدف. وفي الجانبين الآخرين فرشت مجالس عربية على سجادات عجمية. كانت أشبه بمضيف في خيمة شيخ بدوي ثري، سوى أن الألوان ما زالت براقة، لم تبهتها حرارة الشمس، والأقمشة نظيفة لم يمسح عليها بدو بقايا شحم ومرق من أفواههم، أو ربما جددها البوشامي، فهو بالتأكيد يمتلك من الثروة ما يكفي لفرش كل قصور الشام ويزيد، أو هكذا قال لها القنصل البريطاني في بيروت.

- صدف بحري.
- أنت خبيرة بالصدف.

كانت تحفظ هذه المعلومات السطحية عن جوانب من حياة سكان المنطقة، وتتمتع برؤية حماسهم وسعادتهم عندما تكررها ودهشتهم عند سماعها تتكلم لغتهم الفصحى، وأدركت من قبلها بأن هنالك طريقتين ليكسب أجنبي اعجابهم: اجتراح المعجزات أو اتقان لغتهم.

- انا لم أرى حتى الآن صدفاً بهذه الجودة.
- إنه مشغول قديم. عندما كان صانعو الصدف أساتذة بحق.
- الأجداد كانوا أكثر مهارة وصبراً لذلك تركوا لنا الروائع.

- مع أن ظروفهم كانت أصعب والفرص في زمانهم أقل. والدي شجعني على امتهان التجارة وتعلمت منه الكثير.
- هل يعيش معك في الشام؟
- لا. هو لا يرغب في مغادرة الحجاز بعد خروجه من سجن ابن سعود، كما أنه شبه ضرير.
- لقد سمعت الكثير عن سفراتك في المنطقة. أنت تذكرني بالرحالة الأسطوري سندباد.
- أنا تاجر وسندباد كان مغامراً.
- انا أيضاً مثل السندباد أحب السفر والاكتشاف.
- هل التقيت بسندباد أثناء رحلاتك؟

ضحكت بصوت عالي، رافعة رأسها إلى أعلى فظهر عنقها الطويل وحنجرتها الشبيهة بحناجر الرجال في ضخامتها.

- لو التقيت به لما بقيت "مس" حتى اليوم.
- كل من يعرفك في الشام معجب بك، وكلهم يتمنون الزواج بامرأة مثلك.
- العرب يفضلون امرأة ضعيفة يسيطرون عليها.
- لا تصدقي كل ما يكتبه الرحالة والمستشرقون عنا.
- لو كنت أصدقهم لما جئت بنفسي.
- اتذكر دوتي عندما جاء إلى نجد وتجول في مناطقها.
- يبدو أن كافة الطرق التي يسلكها الرحالة تمر على البوشامي.
- انظري لهذا الوعاء الفضي!

ناولها وعاءً صغيراً، اشبه بالطاسة التي تسميها والدتي طاسة الخلاص وتوصيني بالغسل فيها كلما اشتكيت من ألم أو من كابوس، وعليها أدعية محفورة بخط رديء.

قرأت "المس" الكلمات المنقوشة عليها بصوت مرتفع ثم أضافت:

- فكرة عبقرية من دوتي.
- ما العبقري فيها؟
- في انكلترا يحتفظ البعض ببطاقات زيارة يطبعونها طباعة فاخرة ويحملونها في علب فضية خاصة ويتبادلونها، أو يتركونها عند زيارتهم لأحد ولا يجدونه في بيته، وسيكون منظر دوتي سخيفاً لو حمل بطاقات زيارة معه أثناء جولته في الجزيرة لذلك أوصى على هذه الأوعية لكي يوزعها على الذين يحسنون استقباله.
- ربما كان يخطط للعودة مرة ثانية.
- عادة ما يعود الرحالة مرة ثانية أو أكثر إلى نفس المنطقة.
- تكون المرة الأولى استكشافية.
- بالضبط في أول رحلة يكون منشغلاً بالطريق لئلا يتوه وبالقلق من قطاع الطرق لذلك من الصعب التركيز، والبعض منهم تسحره الصحراء وأهلها.
- وهل من المعقول أن يعود دوتي بعد أن تعرض للضرب والطرد؟
- لا تخلو حياة الرحالة من المخاطرة.
- أنت رحالة متمرسة.
- تجولت قليلاً وقرأت كل ما كتبه الرحالة الذين جاؤوا من قبلي.
- يسرني أن أقدم لك أي مساعدة ممكنة.
- أحتاج إلى جمال وقالوا لي بأنك أعرف الناس في الشام بالجمال وأسواقها.
- لو سألت أي عابر سبيل لدلك على سوق الجمال.
- أريد جمالاً بأرخص الأسعار، فأنا وعلى عكس معظم الرحالة أدفع مصاريف رحلتي من جيبي الخاص.

- سأبحث لك عن أرخص الجمال.
- وأجودها أيضاً.

يضحك من دون مرح، وكأنه يغصب نفسه، قومها الإنكليز يتكلفون الجد، أما هنا فيولدون هكذا، الضحك من دون سبب من قلة الأدب، والضحك مع السبب خفة عقل، وهكذا يفقدون عفوية الضحك.

- أنت تطلبين ونحن ننفذ.
- وهل تحتفظ بجمال هنا؟
- بالتأكيد لا، أصواتها منكرة وعالية ولن تتركنا ننام في الليل.
- ظننت بأن لديك منها في الإسطبل.

تجمدت قسمات وجهه لبرهة قصيرة وكأنه يمعن التفكير في كلامها.

- أعتذر منك، يبدو بأن العنبر في المبخرة قليل فلم يغطي على روائح الإسطبل.
- ابداً لم أشم سوى روائح طيبة.

كذبت بسهولة ومن دون أن تفضحها تعابير وجهها، وعندما ستختارها حكومتها لمهام أصعب من الترحال ودراسة الأثار سيكون الكذب أثمن مهاراتها.

- ربما أحتاج إلى مبخرة إضافية أو الاسطبل بحاجة لتنظيف.
- يقولون بأن أفضل الجياد العربية موجودة في اسطبلك.
- لا شغل لأهل هذه البلاد غير القيل والقال، وستسمعين الكثير والكثير من هذا الكلام.

قام ليحضر ورقة ثم كتب عليها بضع كلمات وسلمها لزائرته، ويبدو بأن ما حدث بعد ذلك لم يكن مهماً، في تقدير الشجرة على الأقل، فانقطع الصوت أولاً ولم أعد أسمع الحديث الدائر بين البوشامي وضيفته، ثم تدريجياً اضمحلت الصورة، وافقت لأجد نفسي على الكرسي بجوار النافذة الخلفية لشقتنا.

لم تسمع حفيدة البوشامي بعلاقة جدها بالآنسة الإنكليزية، فقصدت المكتبة لأبحث عنها، قرأت عنها أو لها كتاباً في الماضي، عندما كنت أتناول في اليوم ست وجبات، ثلاثة من الطعام وثلاثة فصول من كتاب.

كانت مكتبة الأسد العامة مكتظة بطلاب ومتقاعدين وعاطلين عن العمل. جاء الطلاب لأعداد فروضهم والبقية للهروب من ملل البطالة وهموم الحياة والعائلة والحر.

بحثت في بطاقات الكتب عن مصادر حول الآنسة الإنكليزية وتحت كل التصانيف المحتملة، بالعربية والإنكليزية، فوجدت الكثير، منها متاح للمشتركين مثلي، وأخرى تتطلب موافقات خاصة. قرأت فصولاً من مذكراتها ورسائلها حتى حان موعد إغلاق المكتبة.

عدت إلى الشقة، ومررت بمدخل قصر البوشامي. كان الباب الرئيسي مفتوحاً على مصراعيه. أبطأت الخطى، ولمحت الممر الذي مشت فيه الآنسة الإنكليزية والبابين المتقابلين، أحدهما يفضي إلى قاعة الاستقبال الغربية، والاخر ينفذ للشرقية، وسجل عقلي صورة سريعة لباحة واسعة تتوسطها نافورة من دون مياه وسلم يصعد للطوابق العليا. تذكرت ما كانت ترويه حفيدة البوشامي عن معاناة والدتها من السلم الحجري. كان تسلقه مشقة، في طفولتها بسبب درجاته العالية، وفي أول شبابها بعد مرضها، وتتذكر سقوطها من أعلاه. ثم ابتعدت قبل أن يخرج من قصر البوشامي مهندساً أو عاملاً فيسألني عن سبب وقوفي بباب القصر.

أغنتني مذكرات ورسائل الآنسة عن شجرة العائلة، فمنحتها إجازة قصيرة، وتبين لي أن الآنسة لم تكن معجبة بأمة العرب، ولم تخفي احتقارها لبعضهم، وكان البوشامي من القلة الذين ذكرتهم بخير، وزارته أكثر من مرة في قصره والتقت بأفراد من عائلته.

لم تطلب مساعدته في كل مرة، وفي زيارة أخرى للمجاملة أدخلها الخادم إلى الصالة الشرقية، فوجدتها مليئة بالأعراب. سحناتهم المتجهمة لوحتها الشمس وشوهها الجدري والجفاف. ومن تحت أشمغتهم تدلت ذوائب جدائلهم، عليها من الدهون أكثر من شحوم أجسادهم. تفحصتها عيونهم المتعبة بالسموم والتراخوما، لكنها لم تغض بصرها، فهي لا تخاف هؤلاء البدو، وستروضهم وتعلمهم الطاعة.

رحب بها البوشامي وأجلسها في وسط المجلس بجانبه، ولم يكترث لنظرات زواره وهمساتهم المستنكرة لمصافحته يد امرأة غريبة، ثم أشار إلى ساقي القهوة ليصب لها فنجاناً.

قالت للبوشامي بانها تزوره لتهنئته بزواجه، كانت زوجته الاولى قد توفيت. ودار بينهما حديث حول الزواج بين العرب، قالت له:

- من عادة العرب الأثرياء أن يتزوجوا بأكثر من واحدة.
- حتى بعض الفقراء.

قالها بلغة إنكليزية سليمة.

- ولكنك لم تتقيد بهذه القاعدة وتكتفي بواحدة.
- واحدة تكفي.

ثم أضاف موضحاً:

- واحدة كافية جداً لتربية الأولاد وإدارة المنزل.
- أتصور أن من الصعب على الرجل مقاومة اغراء الزواج من أكثر من واحدة ما دام ثرياً وقيم المجتمع تشجعه على ذلك.

تعجب من جرأتها، كان يتصور بأن الإنكليز يتجنبون الحديث عن الخصوصيات، حتى لا يسألهم أحد عن خصوصياتهم. لو أحد غيره سمع كلامها لظن بأنها تعرض نفسها عليه. لكن هذه المرأة تبدو غير مهتمة بالزواج، وهناك اشياء تشغل عقلها أكثر من الزوج والذرية، في الوقت الحاضر على الأقل، وهي لا تمل من إلقاء الأسئلة. سيقولون عنها بأنها امرأة فضولية، وقد يشك البعض بأنها جاسوسة، والجاسوسية ليست حكراً على الرجال.

- لدي سبب خاص يتعلق بوالدتي.
- لم أقصد التدخل في خصوصياتك.
- ليس أمراً خاصاً. والدي تزوج أكثر من واحدة، وعندما حان موعد ولادتي نقلوا والدتي من غرفتها وفرشوا لها فراشاً في غرفة صغيرة، لئلا يتلوث سرير والدي وفراشه وظلت هناك حتى بعد ولادتي، وفي هذه الأثناء تزوج والدي مجدداً. لقد كنت السبب في انتقال والدتي من غرفتها إلى تلك الغرفة القميئة وربما زواج أبي عليها.

لم تعلق فأكمل البوشامي:

- تلك عاداتهم في ذلك الزمن وبالتأكيد ستكون لأولادنا عادات مختلفة عنا. لولا والدي لما كنت تاجراً ناجحاً، لا أنا ولا أخوتي.

يستهلك البوح بالخصوصيات الطاقات، مثل سباق العدو مع الفارق. يهيج الذكريات، وتلهث النفوس لا الأنفاس، وختامه صمت مرير، فلا شريط يقطع ولا كؤوس توزع، بل مجرد استراحة قبل العودة إلى ما قبل خط البداية.

انساب صوت المؤذن من مسجد قريب، بدأ مسموعاً ثم خفت تدريجياً مع دوران المؤذن نحو الجهة البعيدة. توقفوا عن الحديث، وبدأت الهمهمات، ثم قاموا نحو الباب.

عندما أرادت الآنسة المغادرة أصر البوشامي على بقائها لتناول العشاء فقبلت. خرج ولم يطل غيابه. عاد يجر وراءه فتى، لا يزيد عمره على عشرة أعوام. قال بأنه ابنه الوحيد من زوجته المتوفية. وعندما أخرج الصبي وجهه من وراء جسم أبيه لمحت الانسة الإنكليزية استطالة وجهه وهزال جسمه، وكأنه مصاب بفقر الدم أو مرض عضال. ذكرها بأولاد الفقراء المتسكعين في الأسواق. يتحلقون حولها عند تجوالها في الأسواق، ويبدون استعدادهم لحمل كل مشترياتها، وعادة ما تكلف إثنين أو ثلاثة منهم، وتدفع لهم بسخاء. وهم وابن البوشامي لا يشبهون أولاد اصحاب الحوانيت والتجار في السوق الجالسين بجانب أبائهم وأعمامهم، وعلى وجوههم آثار العافية ورائحة صابون معطر، وتقرأ في ملامحهم ثقة بأن مستقبلهم مضمون وعندما سيعودون للمنزل في المساء سيجدون سفرة عامرة بالمأكولات.

عادوا من الصلاة، وقبل أن يجلسوا في مقاعدهم شمروا عن أردانهم، تلك إشارة لمضيفهم بأنهم جياع وبانتظار الطعام الذي وعدهم به.

امتلأت الغرفة بصواني الطعام، التي رصت أمام الضيوف. توقفوا عن الحديث في نفس الوقت. لم تكن نظراتهم إلى أواني الطعام نامة عن جوع فقط. كانوا يرمقون الطعام بإجلال، وكأنها مائدة أُنزلت عليهم من السماء.

دعاها البوشامي إلى تناول الطعام في القاعة الأخرى، لكنها فضلت البقاء مع ضيوفه.

ظل البوشامي واقفاً، يحث ضيوفه على تناول المزيد من الطعام، واستجابوا له بهز رؤوسهم وأصوات مضغ وبعض كلمات غير مفهومة، زاحمتها اللقم الكبيرة فخرجت مبتورة ومشوهة.

زارته مرة أخرى لتطلب مساعدته. كانت تنوي السفر إلى شمال الجزيرة. لو لم تكن مقدامة وربما متهورة أيضاً لما فكرت بذلك. فلا يستبعد أن يفتك البدو بها، ليس لأنها سيدة أجنبية تسافر لوحدها ومن دون حماية، ولكن لأنها إنكليزية، وحكومة بلادها متحالفة مع أعداء شيوخ قبائل تلك المنطقة الباقين على ولائهم للعثمانيين.

كانت واثقة بأن توصية البوشامي ستوفر لها الحماية، وتفتح أمامها الأبواب المغلقة. دلها على تاجر جمال يبيع بأثمان معقولة، واختار لها أدلاء يثق بهم، وكتب لها توصية إلى شيوخ القبائل التي ستمر بها. احتارت كيف ترد له الجميل، فالرجل ثري وليس بحاجة لنقودها، وكتبت في مذكراتها بأن الناس يقولون بأن البوشامي يملك مليوناً. تعرف بأن أهل المنطقة يبالغون، لكنها مالت لتصديقهم بخصوص حجم ثروته. لم يطلب منها شيئاً مقابل خدماته السخية، لكنه سألها أكثر من مرة إن كان يوجد ذهب في الصحراء. أجابته بأنها لا تعرف، وبدا لها بأنه لن يكتفي بمليون واحد.

عندما اخبرت حفيدتها بما كتبته " المس" حول سؤال جدها عن الذهب في الصحراء، تذكرت قصة سمعتها من "خالتو". لم تكن خالتها بالفعل لكنها صديقة والدتها منذ الطفولة، والصلات بين العائلتين قديمة من أيام البوشامي، قالت الخالة: زرنا بيت جدك، وكنت ألعب مع والدتك. قادنا الفضول لفتح أحد الصناديق. لم يكن مقفلاً، وكان مملوءاً إلى حافته بالتراب، أو هكذا ظننت في البدء، ولكن التراب لا يلمع، وفي تلك اللحظة دخلت جدتك، لتخبرنا بأنه تبر.

ربما كان هنالك آخرون غير الأنسة الإنكليزية سمعوا منه نفس السؤال حول وجود الذهب في الصحراء، ولم يجد إجابة عندهم، لكنه مضى في بحثه، وبطريقة ما أقنع السلطات الحكومية بمنحه تراخيص للتنقيب عن الذهب. وكان الصندوق المليء بالتبر مهماً له، ليس في قيمة محتوياته، وإنما لأنه البرهان الوحيد على أنه لم يكن مخدوعاً بسراب تسلل إلى عقله عبر عينيه المنهكتين بمنظر الرمال اللامتناهية. وظلت التراخيص حبيسة خزينته، وبعد مماته استولى عليها أحد أبنائه، محتفظاً بها لنفسه، لكيلا ينتفع بها أحد غيره. وبعد وفاة الابن كانت صلاحيتها منتهية، وحتى اليوم لا يعلم أحد مكان منجم البوشامي.

اعترف الجميع للآنسة الانكليزية - حتى أولئك الرجال الذين نافستهم وتفوقت عليهم - بمهارتها في تقييم البشر، لذلك خالفوا تقاليد إدارة المستعمرات واعتمدوا عليها في إدارة مستعمرتهم في بلاد الرافدين، ونجحت في تعاملها مع السكان المحليين. وهي أدركت بذكائها الفطري ومنذ أول لقاء لها بالبوشامي بأنه لم يكن تاجر جمال عادي، مثل المئات من العقيلات الذين دفعهم الجدب الصحراوي والطموح الفردي إلى ترك قراهم النجدية لتجربة حظهم في التجارة، فأثرى بعضهم وعاد أو استقر حيث الارض المخضرة والمياه الجارية، ولم يحالف الحظ آخرين أو لأنهم افترضوا أن كل القرويين النجديين تجار بالفطرة ومن دون بذل الجهد، وكرهوا العودة لئلا يعيرون بالفشل، وانتهى الأمر بهم إلى امتهان الحمالة.

بعد توثق معرفتها بالبوشامي تشعب حديثهما من تجارة الجمال وصفات أهل البادية إلى السياسة، ولم يخطر بباله آنذاك بأنها ستكون صانعة الملوك بعد زمن ليس بالبعيد، وسمعت عن صلاته الوثيقة بالوالي العثماني والوجهاء الموالين له وأولئك الذين أيقظت الإصلاحات شهوتهم للسلطة أو على الأقل لدور أكبر في

ادارة شؤون بلادهم. وكان أنين الدولة المريضة في الأناضول يسمع في جنبات دمشق، فيطرب له بعض أصحاب القصور والمهن العصرية في دمشق، أكثر مما تطربهم القدود الحلبية.

قال لها البوشامي بأنه تاجر، ومصالح تجارته قبل كل شيء، واهتمامه بالسياسة هو لدرء مخاطرها على تجارته. سمعتها منه عندما كان حليفه في شمال الجزيرة يخسر المعارك الواحدة تلو الأخرى. ولأنه تاجر قبل كل شيء، كان يتردد على سراي الوالي العثماني بانتظام، ويحضر اجتماعات وجهاء ومثقفي الشام الطموحين. وكان الطرفان يعرفان بذلك، ويستغلانه لصالحهما.

لم يبخل على الأنسة بالأجوبة على اسئلتها، وكان معجباً بفضولها، ولم يشك بأنها جاسوسة. يبدو بأنه تعود هو وأبيه على استضافة أوروبيين فضوليين مثلها. خاطروا بأرواحهم وزاروا بلاده، ليتعرفوا على سكانها. وافترض بأنها ستضمن معلوماتها في مقالات تنشرها في صحف بلادها أو في كتاب يطبع فيما بعد أو محاضرة في نادي الشرق الأدنى المشهور، وربما تأمل أن يكون لكلامه تأثير على سياسات بلادها، التي كان يعرف جيداً مدى نفوذها في الجزيرة حيث اضطره حلفاء دولتها من آل سعود لمغادرتها والاستقرار في بلاد الشام، وطال مكوثه فيها حتى صاروا ينادونه بالبوشامي.

10

تبددت الصور التي استحضرتها من المخيلة وعاد بي الإدراك إلى الزمن الحاضر. أول ما وقعت عيناي عليه مجموعة من الجرذان الضخمة تتقافز داخل قصر البوشامي المعتم. تزاحمت أجسادها على حافة الطابق الثاني فتوقعت أن يهوي بعضها إلى أسفل، وبقيت أراقبها حتى شدني مواء حاد، صادر من المبنى المقابل لبيت البوشامي. أدرت بصري نحو بيت أم القطط. استشعرت قططها وجود الجرذان فهاجت بالمواء والزعيق. هرعت السيدة الشامية التي تجاوز عمرها الستين لتناغي أبناءها وبناتها العزيزات. تقاسم ابنها وابنتها البشريان حنان أمهما مع العشرات من القطط في المنزل، وفيما تولت الأم والبنت مهام العناية بقطيع القطط اصطبر الابن على سخرية اقرانه الشاميين حتى فاض صبره ومات. يقولون أهلكته عدوى خبيثة اصابته من القطط السائبة التي تربيها أمه. شاهدت أم القطط مرات عديدة خلف المتحف الحربي وسوق الحرفيين وهي توزع نفايات اللحم على قطعان القطط السائبة المتسكعة حول حاويات القمامة. وتساءلت مع الجيران: من سيتزوج ابنة أم القطط؟ لتأتينا الإجابة المتوقعة: شاب طامع بالشقة وقادر على انقاذها من تربية القطط.

بعد القرف من الجرذان المغتصبة لبيت البوشامي والرثاء لأم القطط وعائلتها يأتي السأم وأتوق لسفرة ولو قصيرة على متن الشجرة لعلها تعيد للمناظر الباهتة للجسر الأبيض والعفيف رونقاً قديماً.

كانت الشجرة بانتظاري وما أن تسلقتها إلى مكاني المعتاد حتى شغلت محركاتها الخفية وانطلقت رأسياً نحو السماء. وفي لحظات تحولت المدينة أسفلنا إلى خارطة مجسمة. جبل قاسيون نتوء على البسيطة، وفتحات المداخن فوهات مصوبة نحو السماء، والدخان المتصاعد منها مجرد خيوط سوداء باهتة. ثم هوت بي حتى استقرت فوق قصر البوشامي، الذي استقبلها بجلاء سقوفه وكشف ما داخله، مثلما يطأ الرجل زوجته.

وقف البوشامي عند باب قصره، وتبادل كلمات مع خادمه الواقف وراءه، ضاعت في خضم ضوضاء الشارع المتعامد مع القصر. ولأول مرة رأيت القصر بأكمله، يشغل الحارة بأكملها، غرباً من الزقاق الأمامي حيث واجهة القصر حتى الجسر شرقاً، ومن المسجد الأثري الصغير ومن خلفه البساتين شمالاً حتى فرع آخر للنهر جنوباً. كان البيت الوحيد الذي تحده المياه من صوبين في المدينة كلها، ومن هنا اكتسب اسمه وشهرته بين الناس: قصر النهرين. وبالتأكيد حسده سكان الحواري الضيقة داخل المدينة القديمة، الذين اعتمدوا على السقاة، أو استخرجوه بمشقة من الآبار ولم يستسيغوا طعمه. وبقي الماء أعذب في منطقة قصر البوشامي حتى بعد طمس فروع النهر، فسالت المياه عبر الأنابيب. وكان بعض معارفنا الشاميين يأتون لزيارتنا حاملين معهم أواني بلاستيكية لتعبئتها بماء من حنفيتنا قبل انتهاء الزيارة.

واجهة القصر جنوبية، حيث موطن أهل البوشامي، تركها مضطراً، ولم يعد يجرؤ على العودة لها، خوفاً من سيوف حكام نجد الجدد، المنهمكين حينئذ بالتمدد في كل الاتجاهات. ومن يعرف أصول البوشامي يتفهم اختياره لموقع القصر، وقربه للماء من جهتين حلم كل سكان الجزيرة، من البدو وحتى سكان القرى الذين ارتووا هم وبساتينهم من مياه الآبار والسيول، أما فهو لم يترك في نفسه حسرة على بساتين عائلته الغناء، تلك التي لاذ بنخيلها المتشابك النصراني فنجا من مطارديه المتعصبين المتعطشين لدم كافر. ثلث الأرض مشيد عليها القصر، والثلثان المتبقيان بساتين غناء. تبدو سوداء من فوق لكثافة شجرها، تتوسطها فسحة دائرية حولها حلقة مكتملة من نخلات مثمرات صفت تحتها مقاعد. تصورت البوشامي جالساً على مقعد، يتأمل نخلاته، ويتذكر بساتين أبيه وأهله في القصيم، ولكن من دون ذلك الحر الذي يكتم الأنفاس في الصدور ووهج الشمس الذي يدفعك لإغماض عينيك.

اكتسبت ضوضاء الشارع المبهمة نسقاً واضحاً لأصوات عربات تجرها خيول وصدى حدوات أحصنة، عندئذ تحرك البوشامي ومن خلفه الخدم في ملابسهم الأنيقة لاستقبال موكب الضيف. سار نحو أول الزقاق

ووقف بانتظاره. ومن النوافذ المطلة على المكان تلصصت أعين من وراء ستائر ثقيلة، لنساء ورجال. كانت متعة النسوة مزدوجة. سيشاهدن الزائر الذي يفزع ذكر اسمه الجميع وكذلك أزواجهن على حقيقتهم ومن غير رتوش الرجولة المصطنعة.

وقفت العربة أمام مدخل الزقاق، وجلس سائسها متسمراً في مكانه. قال البوشامي لنفسه: لو كان يظن بأني سأفتح له باب العربة فهو واهم، لأني أفضل الموت على أن يزدريني جيراني. ومن مكاني الشاهق فوق الرؤوس لم أسمع البوشامي يخاطب نفسه بهذه الكلمات. لم يكن مخيراً بقبول زيارة العثماني أو رفضها، لكنني تمنيت أن لا يذل نفسه بفتح باب عربته، لئلا تضطرب صورته المختزنة في مخيلتي.

امتلأ الشارع فجأة بالعسكر العثماني، ومن أعلى شاهدت العشرات منهم ينتشرون حتى الجسر شرقاً وقاعدة الجبل غرباً. بزاتهم العسكرية مكوية، وأسلحتهم لماعة وحركتهم نشيطة. تقدم ضابط إلى العربة ليفتح بابها، وقبل أن يطل رأس الزائر من الباب، تعالى صراخ الضابط بكلمات تركية لم أفهمها، لكني خمنت بأنها تحية عسكرية. اتخذ وضع الاستعداد، وتردد صدى ارتطام حذاءه في الفراغ الذي خلفه الصمت المخيم على المكان.

ترجل الراكب من العربة، وعندما وطأت قدماه الأرض سقطت على صدره بقعة ضوء بحجم ليرة عثمانية تسللت بين مداخن قصر البوشامي وأغصان الشجر السامقة في حديقته، ولمجرد لحظة التهب صدر الزائر بانفجار ضوئي، مصدره انعكاس أشعة الشمس على نياشينه العسكرية، وبدا وكأن قلبه يحترق، ولو شاهد المنظر بعض أصحاب العيون المتوارية خلف النوافذ العالية لتمنوا لو كانت ناراً حقيقية.

تصافحا بشد وهز اليدين، وسارا سوية نحو القصر. تبعهما صفان من الجنود المسلحين، على مسافة لا تسمح لهم بسماع حديثهما، ولكنها كافية لحماية الزائر. ولم يتعجب البوشامي لرؤية جنود واقفين أمام مدخل قصره، ومشاهدة آخرين منتشرين على طول الزقاق حتى المسجد الصغير الذي يقع في نهاية الزقاق.

- وصل جمال باشا!

بدأ همساً خافتاً، تعاون السمع والبصر على تناقله، وسرى داخل القصر، وبين ساكني البيوت في الشارع القريب، وأثار مخاوفهم، فانعكس على الوجوه، وحاول الكبار اخفاءه من دون جدوى. الخوف عند الصغار ممزوج بلذة غريبة. يحبون الاستماع للحكايات المخيفة، ما دامت الراويات أمهاتهم المستعدات دوماً لطرد الخوف، ودحر كل العفاريت والوحوش التي تريد بهم شراً، لكن جمال باشا كما تبين لهم ذلك اليوم نوع آخر من المرعبين الذين لا يقدر عليهم الآباء والأمهات، مهما أوتوا من قوى خارقة، فهم أيضاً خائفون منه، ولا بد أن الصغار تساءلوا مع أنفسهم: من سيحمينا من جمال باشا؟

لا الراشدون ولا الصغار الذين لا يعرفون جمال باشا إلا بالاسم والصورة ولا حتى البوشامي خطر ببالهم بأن جمال باشا الذين لم يجرؤ بعض سكان الحي على النظر إليه ولو من وراء ستارة في غرفة مظلمة، وظلوا حبيسين في غرفهم بعيداً عن أنظار صغارهم لئلا يروا الخوف على وجوههم، كل هؤلاء لم يشكوا ولو للحظة واحدة بأن جمال باشا قد يكون هو الآخر خائف، وأن الخوف قد تسلط على فكره في النهار، ويؤرقه في الليل، وهو غاضب أيضاً بسبب الخوف، لأن الدولة العثمانية هي أمه وأبوه، ونهايتها اقتربت، وهو يدرك ذلك جيداً، لكنه ينكر ذلك في العلن، ولن يرحل قبل أن يثبت لهم ولنفسه بأنه غير خائف.

قبل أن تطأ قدمي الزائر المخيف عتبة قصر البوشامي خرج منه ولد صغير. جفل منه الباشا، وتحرج البوشامي، وتهيأ الحرس، لكن سرعان ما استعاد الباشا رباطة جأشه، وأخفى استياءه، لأن أولادهم مثل كبارهم "أدب سز"، كلمات رددها عقله، ولم ينطق بها لسانه.

- معذرة يا سعادة الباشا هذا ولدي الصغير.

وأردف مخاطباً ولده:

- إمش يا ولد! اذهب إلى أمك!

لو تسللت إلى عقل البوشامي، واستطعت فك رموز افكاره، لوجدته متضايقاً من تصرف ابنه. احتار في تفسير سلوكه، فهو لم يعوده على الدلال الزائد، وأوصاه دائماً بالتزام الأدب مع الضيوف، لأن لا عيب أكبر

من الإساءة للضيف. ولعل البوشامي مثل كل الآباء الذين عادة ما يبرؤون أنفسهم من المسؤولية عن تصرفات أبنائهم المعيبة ويضعونها على أمهاتهم. ولوكان من هؤلاء لحدثته نفسه بأنها حرضته، وأرسلته للتجسس على أبيه وزائره المرعب.

- لا دعه يبقى معنا!

امتثل البوشامي لرغبة الباشا على مضض.

أمسك الباشا بيد ولد البوشامي، فيما صرّ البوشامي على أسنانه مخفياً غيظه وراء ابتسامة مصطنعة.

من يرى السفاح وولد البوشامي في ذلك اليوم يظن أنهما أب وابنه الصغير. استقبل الصغير أباه العائد من عمله عند باب الزقاق، فلاقاه شوق الأب لعائلته. لو كان كل البشر أطفالاً فهل سيكون من بينهم باشا يخيفهم ويحكم على البعض منهم بالموت شنقاً؟ الرجال مثل الباشا نوعان، منهم لا يطيقون الأطفال، ويرون تربيتهم عبئاً ثقيلاً، أو استنفذ أطفالهم صبرهم فلم يعد فيها بقية لأطفال الغير، والنوع الثاني يحنو على كل الأطفال، ولكن لا أحد يتصور بأن الباشا يحب الأطفال، وأي مكان في قلبه لم تملأه القسوة ومازال فيه ولو مهبط بعوضة من الحنان؟

عند الباب توقف ابن البوشامي، فنظر الباشا إلى الطفل متسائلاً. سحب ولد البوشامي يد الباشا باتجاه الاسطبل، وخاطبه:

- هل تريد رؤية خروفي؟

ارتسم الذعر على وجه البوشامي، وبالكاد استطاع إخفاءه.

- يا ولد لا تزعج حضرة الباشا!

اعترض الباشا برفع يده.

- اتركه يرحب بي على طريقته!

سار الثلاثة، ومن وراءهم حرس الباشا وخدم البوشامي. لو وجد البوشامي فرصة لهمس بإذن كبير الخدم أمراً صارماً بإخفاء الخروف. ولو مر اليوم بسلام فسيأمر بذبح الخروف وتوزيع لحمه على الفقراء.

ولعله بذل محاولة أخيرة لثني الباشا عن دخول الحظيرة ولقاء الخروف:

- يا سعادة الباشا! هذا المكان لا يليق بمكانتكم العالية!
- سمعت بخيولك العربية وأريد رؤيتها.
- سأطلب من الخدم إخراجها لتراها هنا بعيداً عن الاسطبل وروائحه المؤذية.
- لا أكترث للروائح.
- أنا تاجر جمال ومتعود عليها.
- أنا أيضاً متعود عليها أكثر من عطور السيدات الباريسية التي تشمها في صالونات الشام واسطنبول.

تزاحمت الأفكار في عقل البوشامي، وكلها تنذر بالشؤم: ماذا سيقول للحاكم، وكيف سيعتذر له؟

تابعت العيون الجريئة المتلصصة ركب الباشا والبوشامي وابنه الصغير والحرس والخدم حتى اختفى داخل الاسطبل، ولم يغادروا أماكنهم، وظلت أبصارهم معلقة على الباب، على أمل رؤية الباشا مرة أخرى، وانشغلت عقولهم بتفاصيل الخبر، الذي سينقلونه لأقاربهم واصدقائهم، والحكاية التي سيقصونها على صغارهم بعد سنين عن زيارة الباشا المرعب لحارتهم.

ودت العيون الفضولية لو أن جدران قصر البوشامي شفافة ليروا داخلها وأن تكون لهم بعض قدرات النبي سليمان الذي سمع أصوات النمل ليسمعوا ما يدور من حديث بين الباشا والبوشامي والولد الصغير الجريء.

كان الخدم مستعدين، وبعد ثواني من دخول الباشا إلى الاسطبل أحضروا مجامر البخور، وانتشروا داخل المكان.

تمنى البوشامي لو يسرع الباشا الخطى، لتنتهي زيارته غير المتوقعة للإسطبل، ولو اقتصرت على خيوله لهانت، لكن المشكلة في الخروف، وكل ما تمناه في تلك اللحظة صرف اهتمام زائره عن الخروف.

اتخذ البوشامي دور الدليل، عين على الباشا وأخرى تبحث بلهفة عن الخروف. وقف مثل المصلوب ويداه تشيران إلى طرفي الإسطبل، وخاطب السفاح:

- الخيول التي تراها يا سعادة الباشا جمعتها اثناء سفراتي التجارية.

اكتفى الباشا بهز رأسه.

لو كان هنالك وقت للتفكير لقلب البوشامي كل الاحتمالات في رأسه، فلعل الباشا يعرف بالخروف. لدى العثمانيين جواسيس منتشرون في كل مكان، ولا يستبعد أن يكون المصدر أحد خدمه، ثم تناقلته ألسن الثرثارين، حتى وصل إلى مخبري الباشا. لكن الباشا لم يطلب رؤية الخروف، بل ولده الذي دعا الباشا لرؤية خروفه. ولو ترك البوشامي الشكوك لتجمح بأفكاره لحامت حول أم ولده، ومن غيرها؟ هي لقنته أثناء مساعدته على ارتداء الملابس التي سيستقبل بها الباشا مع أبيه، وقالت له: امسك بيد الباشا واسحبه إلى الاسطبل ليرى خروفك، وسيفرح والدك بك، ولكن إذا سألك لا تقل له بأن والدتك طلبت منك ذلك. هي الأخرى تبحث عن مكان لها فوق الشجرة، حتى لو خاطرت بالسقوط إلى الأرض، المهم أن تعلن حضورها هي وبالنيابة عن كل النساء المتواريات وراء الأوراق وعند الجذور بانتظار ساعة الظهور والخلاص.

- هذه مهرة أرسلها لي والدي. هي من أفضل خيول الأمير ابن رشيد.
- ابن رشيد رجل مخلص للدولة.
- هي دولتنا وكلنا مخلصون لها والحمد لله.
- أنت دبلوماسي يا بوشامي. الدولة القوية فقط لها أتباع مخلصون، فإذا ضعفت تشتت الولاءات.

لم يكن في نية البوشامي فتح موضوع السياسة، وكان سينتظر حتى ينتهي الباشا من طعامه ويشرب القهوة ويدخن غليوناً، ثم حضر ولده ليفسد تدبيره.

- المخلصون لا يغيرون ولاءاتهم.

اقترب الباشا من مهرة صغيرة. مدت رأسها من فوق الحاجز الخشبي، فربت على عنقها. التفت البوشامي نحو السائس الواقف بعيداً وأشار إليه فتقدم ليمسك بالمهرة لئلا تجمح.

- أنا ماهر في التعامل مع الحيوانات.

قالها الباشا بلهجة بين العتاب والمداعبة أربكت البوشامي. لم يكن السكوت مناسباً فردد أفضل ما جاد به عقله:

- هذا واضح جداً.
- ربما أفضل من مهارتي في الولاية على البشر.

مسارعة البوشامي للاعتراض توقعها الباشا.

- لقد أحسن الباب العالي الاختيار.

توقف الباشا والتفت نحو البوشامي، وحاصره بنظراته. وأدرك البوشامي بأنه لن يكتفي بما تسمعه اذناه، ويريد أن يتأكد بعينيه، وتمنى لو كانت لديه حكمة وجرأة أبيه. اقترب الباشا منه ليهمس:

- لكن بعض الناس هنا لا يتفقون معك حول هذا الموضوع.

تذكر حكمة سمعها يوماً في أحد مجالس أبيه وخزنها عقله لهذه اللحظة:

- رضا الناس غاية لا تدرك.

ابتسم الباشا، واختفت النظرات الحادة من عينيه، وحل محلهما ارتياح، والكل حتى السفاح بحاجة لكلمات مطمئنة، وسيشعر البوشامي بالارتياح التام لو تركهما الابن وذهب إلى جوار أمه.

تصاعد ثغاء الخروف من نهاية الإسطبل البعيدة، وسمعه البوشامي قبل أن يراه.

- تعال جمال باشا!

ظن الباشا بأن ولد البوشامي يخاطبه، فرد عليه، كما يجاري أب ابنه أو عم ابن اخيه الصغير:

- تعال أنت يا ولد!

كانت الكلمات متوقعة، في حينها أو بعد قليل، لكنها حتمية مثل قدر مكتوب لا فرار منه، ومع ذلك كان وقعها كالصاعقة المباغتة على البوشامي، خفق لها قلبه واضطربت قسمات وجهه.

- أتكلم مع خروفي.

توقف الباشا، للحظات فقط كانت ثقيلة جداً على البوشامي. أحس بها الخدم، وحتى ضوضاء الخيل التي كانت تملأ الاسطبل وتجبرهم على رفع أصواتهم همدت فجأة، أو أهملها العقل عندما نطق ولده بتلك الكلمات، وكأن كل قوى الطبيعة والبشر الحاضرين اتفقوا على السكون والصمت لحظة صدور تلك العبارة من فم ولده.

وعبثاً استغاث البوشامي بعقله الذي دخل في حالة من الشلل المؤقت، وتزاحمت الأفكار والكلمات داخل قنوات أعصاب دماغه فبهت لسانه عن الكلام.

كل شيء كان متوقعاً سوى رد فعل الباشا المفاجئ. بدأ بابتسامة صغيرة، ثم توسعت حتى طغت على كل قسمات وجهه، واختفت عيناه تحت ضغط وجنتيه، وانفتح منخاراه، واهتز شارباه، ومن ثم رفع رأسه قليلا نحو سقف الاسطبل ليطلقها ضحكة مجلجلة، رددتها جوانب المكان، وجفلت منها البهائم، وارتبك منها السواس والخدم، واستنفرت الحراس من خارج الاسطبل، وهم لم يتعودوا على سماعها، لذلك افترضوا الأسوأ احتياطاً، وتناكبوا عند الباب، وكأنهم يتسابقون لحظوة. مرق أولهم للداخل بفعل التدافع، وبالكاد حافظ على توازنه. كان منظرهم أشبه بمقطع كوميدي من فلم صامت، مما زاد من فكاهة الموقف في نظر السفاح، ولم يسع المكان ضجيج ضحك الباشا، واحتار الحراس المتأهبون عند الباب بين مجاراة الباشا والصمت، وانتقلت عدوى الضحك من البعض منهم إلى الزقاق، وسرت بين جانبيه، وارتفعت نحو الشبابيك والمتلصصين خلف ستائرها، وهم أيضاً ذهلوا، وكانوا أقرب للتصديق بأنه ضحك سادي لمشهد عذاب ضحيته، ولكنهم لم يجدوا ارتباطاً بين قهقهة الباشا المتواصلة والاسطبل، وأكثر ما حيرهم خروف ابن البوشامي.

لم يتوقف البوشامي عن التعوذ بالله من شر الضحك. كنت متأكداً من ذلك، من دون قراءة أفكاره، فهي عادة متأصلة في نفوسهم. لا تعرف حفيدته لها تفسيراً، وكأنهم يخافون من الضحك. قلت لها: عندما تكون حياتهم تعسة يستكثرون على أنفسهم ثواني من الضحك، وكأن هنالك من يعد الثواني عليهم، وحتى تتعادل الكفة وتعود حياتهم إلى وضعها التعس المستقر لا بد من جرعات إضافية من المصائب والحزن، لذلك يرعبهم الضحك.

انتهت نوبة ضحك الباشا بسلسلة من التنهدات، ثم أخرج منديلاً ومسح به الدموع من على خديه وشاربيه. أشاح البوشامي والحاضرون وجوههم تأدباً أو خوفاً، لأن رؤية دموع السفاح، وإن كانت نتيجة الضحك، منظر غير محمود العواقب، فمن يصدق أن الباشا الذي قذف في قلوبهم الرعب تذرف عيناه الدمع، فهو ليس مثل بقية البشر. ذكرني ذلك الاستثناء الغريب بسؤال فضولي لأحد القرويين في مسقط رأسي. أثارته زيارة نادرة لملك العراق فيصل الثاني مع خاله الأمير عبد الاله للقرية. سأل القروي المشاركين في الاستقبال من حوله بكل سذاجة: هل يقضي الملك حاجته مثل الناس العاديين؟ فوبخوه وردوا عليه مستنكرين بأن الملك ليس مثل كل الناس.

لم تنسي نوبة الضحك الباشا موضوع الخروف.

- لماذا سميته جمال باشا؟

سأل الباشا ابن البوشامي بنبرة خلت من حدتها وبرودتها المألوفتين.

تلكأ ابن البوشامي بالإجابة، وحبس البوشامي والخدم والسواس أنفاسهم، ولم يسمع في الاسطبل سوى وقع حوافر الخيل على الأرض وزفراتها.

تصرف ابن البوشامي مثل أي طفل يجد نفسه فجأة محط اهتمام زائد من غير أفراد عائلته. أدلى برأسه نحو كتفه، ورسم على فمه ابتسامة، ووضع اصبعه في فمه، فخرجت الكلمات مشوشة بعد تلكؤ ظن البوشامي أن لن ينتهي:

- أنا أحب جمال باشا.

من قبله قال الشاميون، أو بعضهم على الأقل: إن الله جميل يحب جمال، وقتها كان جمال الجميل متوجهاً إلى مصر، ليطرد البريطانيين، هكذا وعدهم، لكن البريطانيون انتصروا على جيشه، وعاد جمال المنكسر خائباً، بوجه عبوس متجهم، ليواجه الشاميين، ولعله كان يتصور مع نفسه شماتتهم به، فازداد حنقاً عليهم. والغضب نبتة طفيلية، تبدأ صغيرة، ثم تنمو وتمتد، وتتكون لها جذع وفروع، حتى تملأ العقل والفكر، وعندما يكون الغاضب حاكماً يسهل تحول خشب غضبه إلى أعواد مشانق أو جذوع للصلب؟

حتى الجلادين بحاجة لراحة، ويومها كان السفاح في راحة، ما بين مشانق وجلد، لذا لم يغضب من ابن البوشامي، ولم يفكر بالانتقام من ابيه.

ربت الباشا على رأس ابن البوشامي، ثم استدار وبخطوات عسكرية مشى داخل الإسطبل، متفحصاً الخيول، وكأنه في استعراض عسكري. وسار البوشامي بجانبه، ليصف له مزايا خيوله، وعند نهاية الاسطبل كان رئيس الخدم بانتظارهما ليشير إلى الممر الذي قادهما من داخل البيت إلى صالة الاستقبال.

ظل البوشامي واقفاً، ليخدم الضيف بنفسه. استغرب الباشا ذلك، فقال له البوشامي بأنها عادة أهل الجزيرة، إذا كان مقام ضيفهم عالياً، ولكن أمام اصرار الباشا جلس البوشامي.

لم يشاركهما ابن البوشامي الطعام، وأجبرته والدته على القيلولة في أبعد غرفة في القصر عن قاعة الضيوف. وعند بابها كان خروفه مربوطاً بإحكام إلى جذع نخلة غليظة، وأمامه كومة من علف واناء مليء بالماء.

انهمك الخدم بصب وتقديم الطعام، ولكنهم وجدوا الوقت لتهامس قصة الباشا والخروف، وقبل انقضاء نهار ذلك اليوم جمعهم رئيس الخدم، ليوصيهم بكتمان ما شاهدوه أو سمعوه من قصة جمال باشا السفاح وخروف ابن البوشامي، وحذرهم من جواسيس العثمانيين المنتشرين في كل حارة، والعقاب القاسي الذي ينتظر كل من ينشر هذه القصة. ولكن من الصعب أن تضع في يد طفل قطعة حلوى ثم تطلب منه الامتناع عن أكلها. ولم يمض النهار حتى كان عدد غير محدد من أهل الشام قد ذاقوا الحلوى، واسترجعوا طعمها مرات ومرات وشاركوا غيرهم. وكل واحد يوصي الآخر بضرورة الكتمان لئلا يصل الخبر إلى مخبري الوالي. وناموا تلك الليلة والمذاق الحلو للقصة في عقولهم، ولاكتها الألسن في الايام التالية. ومن المرجح أن مخبري الوالي سمعوا بها ونقلوها إلى رؤسائهم، لكن من غير الواضح إن كان الوالي قد تبلغ بها، وهو مثل كل الحكام القساة يكره سماع الأخبار السيئة، وفي تلك الأيام لم تكن هنالك سوى أخبار سيئة، لذلك فمن المحتمل جداً أن الوالي الذي شهد قصته مع الخروف وابن البوشامي لم يسمع بها بعد ذلك اليوم، أما كتب التاريخ فقد أهملتها تماماً.

هل سأل جمال باشا نفسه أثناء تناول طعام وحلوى البوشامي إن كان يفضل لقب السفاح أم صفة الخروف؟ كان يعرف بأن البعض يسميه السفاح، ولم يغيظه ذلك، وإن كان ذلك كفيلاً بالحفاظ على الدولة من العصيان فلا بأس، واجتماعات العصاة متواصلة، والعلاج الوحيد للعصيان هي الشدة. لا تخيفه الأفكار بل الأشخاص الذين يحملون الفكر، وهم في نظره أحمق من التيوس، فالكثير من الفكر الجيد والجدير بالإتباع اختفى وطواه النسيان، لكن حماس وعزم أفراد أحال فكراً رديئاً إلى عقائد يموت الناس في الدفاع عنها ونشرها، ولا تحتاج لعبقرية لتدرك أن النار التي تلتهم شجرة تطفأ بالماء، لكن عندما تشتعل غابة فلا بد من قصفها بالمدفعية. هو يعرف ذلك جيداً، لأنه على عكس منتقديه، القابعين في مكاتبهم المريحة، محارب خبير في إطفاء نيران العصاة، وليس خروفاً مثلهم.

دفع الباشا كرسيه إلى الوراء، معلناً عن انتهاءه من تناول الطعام. وأسرع خادم بإبريق مفضض. وحمل خادم ثاني مغسلة من نحاس. مد الباشا يديه تحت الماء المسكوب، فارتجفت يد الخادم قليلاً، وطاشت قطرات من الماء إلى وجه الضيف، لكن تعابير وجهه لم تتغير، واستمر في تصبين يديه وغسلهما بعناية، ثم تناول المنشفة من يد البوشامي ليجففهما.

بعد خروج الخادمين التفت الباشا إلى البوشامي:

ـ يقال بأنك أدخلت أنابيب في قصرك لنقل الماء؟

- مجرد أنبوب صغير ينقل الماء من القناة المارة في أرض البيت.
- كثير من الأوروبيين ليس لديهم مياه جارية في بيوتهم.
- هي مسألة وقت قبل أن تكون هنالك شبكات للمياه ينتفع بها جميع سكان الشام.
- كلامك صحيح لكن المشكلة في الوقت.
- قلة الصبر.
- بالضبط قلة الصبر تخلق لنا المتاعب.
- في البادية يعتبر القبليون رئيسهم أباً للجميع، ومعظم الآباء لا يرضون تماماً عن تصرفات أبنائهم.
- كان العبرانيون الأوائل يحكمون على الأبناء العاقين بالقتل.
- لا أتصور بأن أباً سيرضى بقتل ابنه لأنه خالفه أو جرح مشاعره بكلمة قارصة.
- ولكن ألا تتفق معي بوجوب احترام السلطة؟

اختلس البوشامي نظرة أخرى لوجه ضيفه. كان ينتظر الفرصة المناسبة ليسأله. طلبه صعب، أو ربما مستحيل، ويخاف من عقباه. ماذا لو غضب السفاح عليه؟ هو يعرف جيداً بأن الرحمة والعفو ليست من خصال ضيفه، وأحدهم محكوم بالإعدام شنقاً لمجرد إلقائه قصيدة وطنية أمام السفاح. يقولون بأنه لم يصدر عفواً عن أحد ابداً، ولم يقبل برجاء بتخفيف الحكم بأحد المحكومين، وحتى من أقرب حلفائه في الاستانة، بل كان يصر على أشد عقوبة. الإعدام بالنسبة له يعني إلغاء المشكلة، فلا تعود للظهور مرة أخرى. في الاستانة كلفوه بإحكام إغلاق البوابة الخلفية للدولة، ولو بأعواد المشانق. فشل من قبل في مصر، ولن يكرر التجربة في الشام، لذلك خشي البوشامي من إغضاب السفاح. وماذا لو سأله عن سبب اهتمامه بمصير الشامي وهل سيقتنع بالحقيقة؟ بأن المحكوم بالإعدام لا يمت بصلة له، لا قرابة عائلية تربطهما، ولا حتى صداقة حميمة، بل لعله لم يلتق به إلا صدفة، في مجلس عام أو ربما دعوة عشاء، ولم تتوثق فيه المعرفة بينهما، ولم تحفظ الذاكرة من تفاصيل اللقاء العابر شيئاً، لكنهم ترجوه، فتورط ووعدهم. أسهل على الباشا أن يشك في كون البوشامي معارضاً للحكم العثماني مثل المحكوم بالإعدام أو حتى رفيقه في التنظيم المحظور المتآمر على أمن السلطنة، وسيتذكر السفاح إطلاق اسمه على خروف ابن البوشامي، لا تحبباً كما قال الابن بل للسخرية منه. وتمنى البوشامي لو كان والده التاجر الحكيم حياً ومعه اليوم لينصحه.

قبل نهاية تلك الوليمة، وبعد أن تناول السفاح الحلوى الشامية والتركية، وربما بعد ملاحظة للبوشامي حول التشابه بينهما، لعل قلب التركي يحن على الشامي، وقبل ارتشاف السفاح القهوة العربية المرة، المخففة بالهيل الفاخر، واثناء انشغال لسانه باستنقاذ بقايا المذاق الحلو من بين أسنانه، تجرأ البوشامي وصارح ضيفه بالطلب.

ترجى البوشامي السفاح فاستجاب له، ونجا الرجل من الإعدام. كان أمراً غير متوقع، وأقرب ما يكون للمعجزة. فهل رق قلبه، أم تلطف مزاجه؟ لعلها كانت لحظة نادرة، تبددت فيها سحب سوداء داخل قلبه، وسطع خلالها بصيص نور باهر، ودخلت معه ذرة رحمة ربانية واحدة -واحدة لا أكثر، لكنها كافية لتلامس شغاف قلبه، وتحي فطرته الطيبة. حاول تطبعه على القسوة اعتراضها، لكنها كانت الأقوى، فنطق لسانه بالجواب الذي انتظره البوشامي.

غادر السفاح مودعاً بالبوشامي، وسار بجانبه حتى عربة الوالي الواقفة عند مدخل الزقاق، تتبعهما سحابة من بخور أجود العنبر الهندي. العنبر هدية من أخيه تاجر العود والعنبر في الهند. وكان رئيس الخدم قد سبقهم إلى العربة، ليشرف بنفسه على نقل صندوق خشبي مطعم بالصدف البحري، من صنع أفضل معلم صدف في الشام وعموم السلطنة، ولم يعرف أحد محتوياته سوى البوشامي والخادم. وكان البوشامي قد أبلغ خادمه بتعليماته قبل وصول السفاح، ولم تكن رشوة بل هدية، فلا يوجد ثمن لحياة إنسان.

وقف البوشامي عند أول الزقاق، ليتابع ببصره مسير عربة الوالي، ومن خلفها الحرس. انحدرت على سفح جبل قاسيون حتى اختفت وراء منعطف في الشارع، وبعد ان اطمأن على تنفيذ خادمه لأوامره بخصوص الصندوق طلب منه تهيئة العربة، فقد كان متلهفاً لنقل البشارة بنجاة الشامي من حبل المشنقة، وسيفرح أهله

واصدقاؤه، ولعلهم يستطيعون إيصال الخبر إليه الليلة، قبل أن تقفل أبواب السجن، ويمضي الشامي المحكوم بالإعدام ليلة أخرى، وهو لا يدري إن كان الفجر سيكون نهاية حياته أم بداية يوم جديد في بقية عمره.

بحثت في كتب التاريخ فلم أجد ذكراً لمحكوم بالإعدام نجا بعفو من جمال باشا السفاح، لكن حفيدة البوشامي متيقنة من ذلك. سمعت القصة من والدتها، وهي حفظت سيرة حياة أبيها، وسردتها على مسامع ابنتها.

11

تشغل شجرة البوشامي صفحة واحدة، دونت عليها الأسماء بخط ميكروسكوبي، لا يرى بالعين المجردة، وليست سوى نقطة بحجم مكونات الذرة على الجغرافيا، لكنها تملأ حيزاً أكبر في التاريخ، وإن أهملها المؤرخون. وما كتب التاريخ سوى خلاصة ملخصات، وهامش قصير على سجل الحياة. وفي الساعة التي كان عربة البوشامي تتحرك نحو منزل صديقه، ليحضر اجتماعاً آخر لعرب قلقين، أربك عقولهم اضطراب الدولة، ودخولها الحرب، نفضت الشجرة عن نفسها الجمود، واقتلعت جذورها من دون ألم، لتنقلني إلى طرف بعيد في المدينة. ومن خلال نافذة تسرب منها ضياء خافت، تبدت لي صورة رجل جالس على أريكة من القطيفة. وتخيلت حالته النفسية، وما يعتمل داخلها من مشاعر، على الرغم من الأمتار الفاصلة بيننا في المكان، والقرن الكامل في الزمان. تنصتت الشجرة الجاسوسة على الرجل، واسمعتني كلامه. لم يكن وحده في الغرفة، كان يحادث رجلاً آخر وامرأة، جلسا في زاوية من الغرفة غير مرئية من موقعي، لكني سمعت كلامهما.

قال لهما: اتركها وديعة عندكم، وأول ما خطر ببالهما صرة ليرات عثمانية، أو فرسه الاصيلة، أو وثائق خاصة، وشغلهما الحدس عن التفكير برد مناسب. لم يسترحم أو يستعطف، بل قال ما لديه، وكأنه يحدثهما عن وقائع يوم عادي في المعسكر. لم تتغير قسمات وجهه المنحوتة، ولم تغادر أي منها وضعها المألوف، فم مزموم على الدوام، وأنف أقنى، منذ اعتلى وجهه يرفض النزول من مكانه لأي شخص كان، وحاجبان متحجران على تقطيب دائم، وعينان حادتان، يتطاير من نظراتهما شرر لأدنى احتكاك، وشاربان مفتولان بالطبع، فلا تكتمل صورة ضابط عثماني من دونهما، هي بعض من مظاهر المهنة، مثل الزي العسكري، وعصا القيادة، ونبرة الصوت الآمرة، وكلها ملامح لم أشاهدها، ولم تكشفها لي الشجرة الجاسوسة، بل تخيلتها في عقلي، ولا أظنها بعيدة كثيراً عن الواقع.

مثله لا يحزن بالتطبع. وإن تسلل الحزن بمعجزة إلى نفسه، مخترقاً أبوابها المحصنة، أو أعتلى أسوارها الشاهقة، وبقي حياً لزمن، فيعرف جيداً مكانه، في آخر زوايا نفسه، حيث لا يراه أحد. ربما كان حزيناً في ذلك المساء، وهو يكلم الرجل وزوجته. ولعل حزنه طغى في لحظة أو لحظات على تطبعه المتجمد على التجهم والبرود، لا أدري، ولا أكترث، فلولا قساوة مشاعره لما اضطر لهذا، ولما حدث ما حدث.

صدر الأمر بمسيره إلى الجبهة، فلم يعترض، أو حتى يناقش، أو يفكر بالنتائج. الواجب أولاً، هكذا كان ناموس الضابط العثماني، والباقي تفاصيل ثانوية في الأهمية. كل دنياه تتشكل ويعاد تشكيلها لتلائم الواجب، قدس أقداس حياته.

الأمر واجب التنفيذ، وفوري من دون تأخير، ولم يتركوا له وقتاً لتدبر أمر ابنته، والتي لم تتجاوز العاشرة من العمر، وليس له أبناء غيرها، وزوجته متوفاة، وله أقارب في مكان ما من بقايا الامبراطورية، أو لعلهم صاروا تحت حكم غير العثمانيين، بعد ان بدأت المناطق تنسلخ عنها الواحدة تلو الأخرى.

استمع الزوجان الشاميان لطلب الضابط العثماني، ووافقا على استضافة ابنته الصغيرة، حتى عودته من المهمة، ولا بد أنهما فكرا باحتمال عدم عودته، فقد يقتل في الجبهة، ولن يأتي أحد من أقاربه للبحث عنها، وستبقى ابنته في رعايتهما.

سافر الضابط بعدها ليلتحق بالجبهة، وانقطعت أخباره، وبقيت أبنته الصغيرة في كفالة الشامي وعائلته. لم يخلف الشامي وعده لأبيها، عاملها مثل واحدة من بناته، واستمرت رعايته لها حتى بعد زواجها، ولم تنقطع إلا بوفاته.

بعد اليأس من عودة أبيها تيتمت، ولليتيمة عالم خاص، مثل قوقعة تعيش داخلها، وتفيق وتنام داخلها، أو قلعة أسوارها عالية، شيدها شبحا الأبوين، وحتى أشد القلوب حناناً لا يستطيع تسلقها والوصول إليها. وعندما

يؤكدون لها بأنها واحدة منهم، وهم أهلها الطيبون، تسأل المرآة فتكذبهم، وتكفي الربيبة نظرة واحدة لتكتشف بأنها غريبة، ولتتذكر أبيها الذي أخلف وعده لها ولم يعد وتركها لليتم ولشفقة الغرباء.

صورتها في مخيلتي طفلة نحيلة، عصبية المزاج، تغضب من دون انفعال، وتبكي من دون دموع، لئلا تزعج العائلة التي تبنتها. تتذكر أباها أحياناً، فتصعد إلى الطابق العلوي، وتجلس عند نافذة، مطلة على الزقاق، ومن خلالها ترقب المارة. تميز سكان حارتها، لا بالأسماء، ولا حتى بالعناوين. زاوية النظر من النافذة ضيقة، وأبواب الجيران بعيدة، لكن الوجوه تتردد حتى تصبح مألوفة. تخمن سلوكهم حتى يختفون وراء عطفة الزقاق. سيقف هذا ويرمي ببصره نحو السماء متكئاً على جدار بيت ليلتقط أنفاسه، ويتنهد ثم يمضي. والثاني لن يمر حتى يروي حجارة الزقاق ببصقاته المتعاقبة. والنساء المحجبات تعرفهن من مشيتهن. ولكن المنتظر لم يأت، ولم تشاهده قادماً من أول الزقاق. ولو جاء فستعرفه من مشيته وخطواته العسكرية قبل أن تتبين ملامح وجهه. تتخيل حالها لو حدث ذلك. سيخفق قلبها، وستحبس أنفاسها، حتى تتأكد بأن أبيها قد عاد لينقذها من اليتم.

بعد انتظار طويل، في حساب الأيام والساعات، لا العمر، جاء منتظر آخر، وحان وقت مغادرتها، لكنه لم يكن أباها، ولا حتى مخلصاً.

12

انسحبوا من جهة الشمال، لكن أشباحهم بقيت مستقرة داخل العقول، وتركوا مخلفاتهم في جماد الشام: آثار رسم لدمغة سلطانية عند مدخل محطة قطار الحجاز، وشعار بالموت للطغاة مطموس في ساحة المرجة، وخشبة مشنقة مشروخة تبرز الحمام عليها. ولم تختفي أشباحهم حتى بعد دخول الجيش العربي من الجنوب.

من أعلى الشجرة تتمدد الرؤية، حتى مشهد مؤخرة جيش منهزم، من دون قرع طبول أو أبواق تصدح، وطلائع آخر يتقدم، وما بينهما نفوس لا يغادرها القلق، لعل الموت اختارها، ضمن الحصص، واحدة لسفك الدم، وأخرى للجوع، وثالثة للمرض. لكن الساحات لم تخلو من محتفلين، خرجوا لاستقبال الفاتحين المحررين، يبالغون في الترحيب والابتهاج، ويخشون ما تعتمل به نفوس المحاربين، بعد أن تلعق سكاكينهم دم بشر وتسفحها أصابعهم بطلقات رصاص، تتقمصهم السكاكين والرصاصات، ويظنون أنهم امتطوا الموت، وروضوه، فصار رهن أيديهم، والحقيقة أن غول القتل امتطاهم، وغدت حياتهم الرتيبة المعتادة بقية من ماض سحيق. يطردون من عقولهم صور الأمهات والزوجات والأبناء وحتى كلابهم الأليفة لئلا تلوثها رشة دم أو تعكر صفوها صرخة ألم.

تفرقت حشود المستقبلين. واصطحب الوجهاء الأمير فيصل بن الحسين إلى دار إقامته. وبعد ذلك اجتمعوا وتداولوا وتوجوه ملكاً، واحتفلوا به في المدن والبلدات، لكنه كان ملكاً مفلساً. فرح الوجهاء بخلاصهم من العثمانيين وجباياتهم الثقيلة، وأخذوا إجازة قصيرة من دفع الضرائب، فأقفرت خزينة حكومة الملك، واضطر لمد يده. بخل عليه الوجهاء الشاميون، فلجأ إلى البوشامي، ولم يخيب رجاءه. وأولاد البوشامي يؤكدون هذه الحقيقة، وإن أغفلتها كتب التاريخ، التي دونها الشاميون بالطبع.

اقترض ملك سورية الجديد من البوشامي، ولم تكن تلك آخر مرة يضطر فيها للاقتراض. اقترض فيما بعد من مصرف بريطاني لشراء سيارة خاصة، واستدانت حكومته في العراق مالاً من يهودية عراقية، كانت تدير صالة خاصة للقمار. قرض البوشامي للملك كبير، والضمان صوامع الحبوب في الشام، وليس من المعقول أن يكون لغرض شخصي، لأن الحبوب ملك للدولة، وليس من حق ملك التصرف بها لغرض شخصي.

لا أظن أن الملك فيصل نام قرير العين في دمشق، التي كانت تشهد مخاض ولادة دويلات، وترقب بوجل وصول محتلين جدد على الأبواب، وسقوط وزارة جديدة كل شهر، وكلها مشاغل وهموم أنست الملك دين البوشامي، فانقضى العام ولم يسدد، ثم انتهى عهده القصير.

بعد سنين التقى الاثنان، البوشامي والملك فيصل. كان البوشامي غير ذلك التاجر الثري الذي أقرض الملك، وكان فيصل ملكاً على بلد غير سورية. تذكر الملك القرض، أو ربما ذكره البوشامي، ليبدأ فصل جديد في حياة البوشامي، وستأتي تفاصيله في حينه.

دخل الفرنسيون الشام، ليبدأ احتلال جديد. طالبهم البوشامي بالدين، فرفضوا طلبه، قالوا له: اذهب إلى فيصل ليعطيك نقودك، ولم يحصل على حبة واحدة من حبوب الصوامع.

كانت ثروة البوشامي كبيرة، هكذا كتبت عنها الآنسة الإنكليزية صانعة الملوك: " يقولون بأنه من أصحاب الملايين". أنقص القرض الملكي مليون البوشامي، لكن الخسارة لم توقف التجارة، ربما تذكر خسائر أبيه، تسبب بها حاكم آخر، كان يحلم بالملك أيضاً، مثل كل الأعراب الذين لا تتوقف أحلامهم عند جرة زيت أو قطيع من الأباعر.

لم يكترث البوشامي لخسارة مبلغ القرض، لكنه أثار انتباه المحتلين الجدد. وكل المحتلين لصوص، وثروة البوشامي لم تعد سراً، فهو أقرض الملك، وإن كان ملكاً لخمسمائة يوم، وتمنى البعض منهم الاستيلاء على ثروة البوشامي، بأي طريقة كانت، وقد يكون الملك فيصل قد جنى ومن دون قصد على البوشامي بالاقتراض منه.

لم أصبر على فراق الشجرة طويلاً. عجبت من نفسي، أنا الذي كنت أهاب تسلق الشجر، وأرتعد من المرتفعات، وأظن كل نسمة هواء عاصفة هوجاء ستطيح بي من عل، لتتهشم عظامي على بلاط غرفة الجلوس، حيث فرشت أوراقي وبريت أقلامي. هم استدعوني، ووجدت شجرتهم مسكونة بالأرواح الشريرة، فصممت على طردها، لا بالطقوس الخاصة للكهان أو البخور أو استحضار الأرواح كما يفعل المشعوذون، علاجها الوحيد التأريخ، سأدونه ليطرد الشياطين منها، وإلا فالويل لهم ولشجرتهم.

13

أنوار قصر البوشامي مضاءة، وأرض الزقاق مغسولة، وداخل القصر حركة دؤوبة. أُعدت مائدة الطعام، وأشعلت مجامر البخور، فيما قبع أولاد البوشامي الثلاثة في غرفة المعيشة، أكبرهم صاحب الخروف، سمي جمال باشا السفاح.

كل جيوش الفاتحين يتبعها الباعة منذ زمن الاسكندر المقدوني، وبضاعتهم رديئة، ويعرف ذلك البوشامي جيداً بحكم الخبرة، لكن بضاعة ضيوفه الأجانب اليوم من نوع آخر.

سألوه عن كل صنف على المائدة، واستأذنوه قبل الغرف من كل صنف، وأثنوا على طباخه، ودخنوا سجائره المستوردة مع القهوة العربية.

لأنهم خبروا المنطقة وعادات أهلها انتظروا حتى شربوا اخر فنجان قهوة ثم تقدموا بطلبهم:

- قالوا لنا إذا تقاسم العربي معكم الخبز والملح فلن يرفض لكم طلباً معقولاً ونحن اليوم تناولنا عندك ما يعادل مؤونة شهر لقصر ملك بريطانيا ونتمنى ألا تردنا خائبين.

وعدهم البوشامي بأن يفعل ما يستطيع لتحقيق طلبهم.

أخرج أحد ضيوفه خريطة مطوية للشرق الأدنى، وفردها على الطاولة أمامهم. أول ما جذب الأنظار على الخارطة اسم شركتهم مطبوع بالخط العريض، وضيوفه مثل كل الأجانب الذين جاؤوا للمنطقة، ما أن يضعوا أقدامهم فيها حتى يدونوا أسمائهم على خريطتها. اخترق خط أحمر سميك زحام أسماء المدن والأنهار والصحاري على الخارطة. وحرك أحد الضيوف إصبعه عليه مبيناً للبوشامي الطريق الذي تسلكه سيارات شركتهم لنقل البريد بين مصر وفلسطين، وشرح للبوشامي بأن أفضل زبائنهم المحتلون البريطانيون، وبأن الأرباح الوفيرة التي جنوها من شركتهم الصغيرة شجعتهم على التفكير بتوسعة نشاطها ليشمل الشام والعراق، وأكد له بأنهم لا يفكرون بمنافسته في التجارة، وسيكتفون بنقل المسافرين والبريد، وعندما لم يضحك البوشامي معهم قال له بأنها مزحة.

لم تكن فكرة مشروعهم جديدة بالنسبة له، وكل التجار مثله يبحثون عن طرق قصيرة وآمنة. ومن قبل ضيوفه كان تجار الحرير وفاسكو دي جاما وحتى كولومبوس. والشرق قبلة الجميع، وقبل مجيئهم استكشف كل طرق القوافل في المنطقة، وحسب أطوالها بالأيام لا بالأميال، وما تعلمه عن تضاريسها يملأ مجلدات، بعد أن مرّ بقراها وهجرها ومضارب البدو فيها، وحفظ أسماء شيوخ قبائلها، وتعامل معهم، واختبر معادن نفوسهم، وشاهد الجوع والجشع في نظراتهم إلى أحمال قوافله، ودفع لهم مرغماً لأن غاراتهم على قوافله ترفع أسعار بضاعته وتخطف أرغفة الخبز من أيدي فقراء الشام، ولو قضت الآنسة الإنكليزية وصاحبها لورنس كل حياتهم في المنطقة فلن يدركوا عشر ما يعرفه البوشامي عنها.

سمع ضيوفه عن الطريق الجديد الذي استكشفه البوشامي مؤخراً. هو خط شبه مستقيم بين الشام وبغداد، فلا حاجة للسير شمالاً حتى أعالي الفرات في الجزيرة. يختصر الطريق الجديد المسافة والوقت، ولكن توجد عقبة واحدة وهي البدو، وقبائل وادي حوران شرسة، وحتى القوات البريطانية والفرنسية تتجنبها. معسكرات الجيش البريطاني في العراق قريبة من طريق القوافل، لكنهم لن يساعدوا ضيوف البوشامي في حماية مركباتهم، والمحتلون جاؤوا من أجل المصالح لا الإصلاح أصلاً، وما دام البدو لا يهددون مصالحهم فسيتركونهم وشأنهم.

طلب ضيوف البوشامي منه التوسط لدى شيوخ قبائل البدو لضمان مرور آمن لمركباتهم، وأبدوا استعدادهم لدفع "البقشيش" الذي يطلبونه، فوافق البوشامي ووعدهم بالاتصال بشيوخ القبائل والاتفاق معهم على الإتاوة.

بعد عودة البوشامي اتصل بأصحاب الشركة، ليخبرهم بنجاح مهمته، وعرف منهم باهتمام السلطات الإنكليزية بالمشروع، واقترحوا عليه ترتيب سفرة بالمركبات بقيادة البوشامي ومشاركة عدد من مواطنيهم المولعين بالسفر في الصحراء، وتكفلوا بتوفير السيارات ودفع كافة المصاريف.

بين مخلفات البوشامي الشخصية صورة قديمة باهتة بفعل ممسحة السنين. في الوسط يجلس البوشامي بملابسه العربية، ومن حوله مجموعة من النساء، لا هن زوجاته ولا قريباته. كلهن أجنبيات سافرات. طراز ملابسهن من زمن الأفلام الصامتة، وكذلك تسريحات الشعر. يبدو البوشامي في الصورة أشبه بزنبور وسط حزمة من الورود. سألت حفيدته عن النسوة الأوروبيات وماذا يفعل جدك وسطهن؟ احتارت الحفيدة في الإجابة.

ضاعت الصورة. وضعها حفيد أحمق في حقيبة في قبو منزله، وبعد تسرب مياه حمام السباحة إلى القبو تحولت الصورة النادرة إلى عجينة ورق.

لو كانت الصورة تذكاراً من الرحلة بقيادة البوشامي على طريق المركبات الجديد لما اقتصرت على النساء، ولظهر فيها ثلاثة رجال مع البوشامي. بقيت هوية النساء في الصورة المذابة غامضة، لكن لغزاً جديداً ظهر أثناء الرحلة.

نهض سكان القصر مبكراً لاستقبال زوار الصباح. أفاق الجيران معهم على صوت السيارات الثلاث، وراقبوا حركتها من مدخل الزقاق حتى توقفت أمام باب القصر. ترجل من السيارة الأولى رجل وثلاث نساء، ومن الثانية رجل وامرأة، وبقي سائق الثالثة في مقعده.

اثنان من الرجال الثلاثة دبلوماسيان بريطانيان، ملحق عسكري وقنصل، والثالث أجنبي أيضاً، فني سيارات في شركة النقل. لو تعطلت إحدى السيارات فليس هنالك من هو أقدر على تصليحها منه في المنطقة، هكذا وصفه أحد مالكي الشركة.

استأذنوا البوشامي باصطحاب النساء مقدماً ولم يعترض. لو كانت رحلة على ظهور الجمال لرفض، لأن الرحلة أسبوعان أو أكثر بواسطة الجمال ويومان بالمركبات. لا يخشى من خيانة البدو، الذين استلموا نقود أصحاب الشركة منه بالأمس، وما تزال مصرورة في جيوبهم ولم ينفقوها بعد.

الأربعة سائحات إنكليزيات وضيفات الدبلوماسيين. تعرفا عليهن في حفل أو بتوصية من أقارب أو معارف. عرضا عليهن المشاركة في الرحلة، فهي مغامرة فريدة من نوعها. واستكشاف طريق صحراوي جديد حدث فريد لا يتكرر كل يوم، ولا يتاح للكثيرين المشاركة فيه. ولن يحتاجوا للجندرمة الفرنسية أو الخيالة البريطانية لأنهم بحماية التاجر البوشامي، وجوده معهم يضاهي فرقة من المقاتلين الجوركا النيباليين الاشداء.

وصفت الآنسة الإنكليزية إحدى النسوة الأربع بالمرأة من الدرجة الثانية، واكتفت بهذا الوصف الغامض ولم تفصح، فلا بد أن تكون مختلفة عن البقية، ويوجد احتمالان: أما أن تكون امرأة ساقطة أو متحررة، وفي المجتمعات المحافظة لا يميزون بين النوعين. تصورتها جسورة. تتكلم بصوت مرتفع، وتقاطع الرجال، وتدلي برأيها من دون تردد، وأراؤها خارجة على المعتاد أحياناً، حتى لغة جسدها من عالم اخر، لم يلجوه بعد أو يكرهون قدومه الوشيك، لذلك كرهتها الآنسة، وكتبت فقرة كاملة عنها في رسالة لها، وفي الوقت الذي كانت هي وزملاؤها في وزارة المستعمرات البريطانية منهمكون في توزيع عروش المنطقة.

قالت لهم المرأة المختلفة بأنها سائحة. لا أعرف إن زارت معبد فينوس في بعلبك. ولم تكن في طريقها للصلاة في كنيسة القيامة. وآثار بابل بالنسبة لها مجرد خرائب، وربما لم تكلف نفسها بقراءة صفحة عنها في موسوعة، ولكن مجرد وجودها هنا أمام قصر البوشامي دليل على شجاعتها. لم تثنها الأوصاف المقززة للمنطقة وسكانها عن السفر، ولم تعبأ بتحذيراتهم: ستحتارين أين تضعين قدميك في شوارعهم المائجة بالطين والماء الآسن، وستكل يداك من الهش على أسراب الذباب والحشرات الطائرة، والتي ستطاردك في كل مكان، مثل هالة سوداء، لا يستطيع الصبر عليها سوى قديس، أو سكان تلك البلاد. وإذا لم تقتلك ضربة شمس أو خنجر قاطع طريق فستموتين من طعامهم ومائهم الملوث.

خرج البوشامي ليستقبل زواره. صافح الجميع، الرجلين والنسوة الثلاث أولاً، ومن ثم سائق السيارة الثالثة وأخيراً المرأة من الدرجة الثانية. كانت تقف على جنب. لعلها كانت تدخن سيجارة. رمت بعقبها على الطريق وأطفأته بحذائها، ثم مدت يدها لتلاقي يد البوشامي الممدودة. هل أطالت مصافحته أم تخيلت ذلك؟

دخل البوشامي وضيوفه القصر. وبدأ الخدم بنقل الحقائب والطرود إلى صناديق السيارات تحت إشراف كبير الخدم. وخمنت أن في الطرود أطعمة للرحلة الطويلة، معلبات وأجبان وخبز ومكدوس ومأكولات أخرى لن تفسدها سفرة طويلة عبر الصحراء من دون محطات للاستراحة، ولن يجدوا فيها من يضيفهم. ومن عادة البوشامي التزود لقافلته والقوافل اللاحقة.

بعد انتهاء الخدم من نقل الأمتعة خرج البوشامي وضيوفه. أصدر البوشامي تعليمات اللحظات الاخيرة لرئيس الخدم ثم صعد إلى مقدمة السيارة الأولى. وفي الخلف جلست سيدتان.

تحركت الشجرة بالتزامن مع قافلة السيارات. راقبت من فوق مسيرتها البطيئة. بعد خروجها من الزقاق تحركت في رتل واحد بالاتجاه المعاكس لمقر الحاكم الفرنسي، وعبرت الجسر الضيق على النهر جنوب القصر، التي احتجت خشباته تحت ثقل السيارات، ثم انحدرت على الشارع الضيق، الذي خلا من المارة في تلك الساعة، ودكاكينه ما زالت مغلقة. بدا الشارع موحشاً لولا مصباح مضاء أمام مدخل المستشفى الجديد للراهبات الإيطاليات. وعندما مرت أمامه السيارات اجتذب العلم الإيطالي المرفوع في واجهته اهتمام ركابها الأجانب، فسألت المرأة من الدرجة الثانية البوشامي عن المبنى فأجابها، وبعد أقل من نصف ساعة غادرت المدينة.

ازدادت سرعة السيارات ولحقت بهما الشجرة. اخترق الموكب الصغير بساتين الأشجار والمزارع تتخللها بيوت الفلاحين المتواضعة. أسقفها جذوع شجر مصفوفة بدقة، تحملها جدران من الحجر والجص. استيقظ الريف قبل المدينة، وما زالت الديكة تصيح حتى بعد أن افاق الجميع. شاهدت الرجال والشباب يعملون في المزارع والبساتين. ومن فوهات مداخن البيوت تصاعد دخان المواقد التي أشعلتها الأمهات والزوجات لطهي الطعام، فيما خرج الصبية لجمع الحطب ورعي الأغنام والماعز.

منذ ما قبل الفجر والفلاحون ومتعهدو البساتين يكدحون، ولن يعودوا إلى بيوتهم قبل الغروب، أما طعامهم فسيتناولونه تحت ظلال وارفة لشجرات. طعامهم طازج وساخن، يحمله إليهم أولادهم من مطابخ زوجاتهم وأمهاتهم، في أواني من النحاس اللماع، وسيتناولونه على عجل، فلا وقت لديهم لقيلولة، أو لتبادل الثرثرة، وسيقبلون أيديهم حمداً لله، ثم يعودون للعمل.

في المدينة وراءنا ما يزال أصحاب هذه البساتين والأراضي نائمين، ولن يفيق البعض منهم حتى يقترب انتصاف النهار، ولكل واحد منهم عدد من المشرفين على أملاكهم، ولمراقبة الفلاحين، وسيقضون بقية ساعات النهار في قراءة الجرائد وتصنع الإنصات لأحاديث زوجاتهم، وتبادل الزيارات مع غيرهم من الملاكين والأثرياء ليتحدثوا في السياسة وأخبار المجتمع.

تغير لون الأرض بالتدريج، وكأن ألوان الفنان الذي أبدع لوحتها أوشكت على النفاذ. بهت أخضر الشجر والحقول وشحب احمرار التربة واختفى فضي المياه، ولم يبق من الأشجار الواقفة في صفوف مرتبة مثل اصطفاف صباحي في مدرسة سوى شجيرات متناثرة، كأنهم تلاميذ تأخروا عن الدوام وفاجأهم النشيد الوطني فتوقفوا بعيداً.

امتدت رمال الصحراء في الاتجاهات الأربعة، وعلى مد النظر. لم يكن هنالك طريق معبد، أو حتى ترابي، ولا خطوط أو آثار في التراب تدل على مرور أحياء عبرها، ولا شيء يتحرك باستثناء أشواك عرفج متيبسة تتقاذفها الرياح بين حين وآخر.

وقع حدث رهيب، كما وصفته الآنسة الإنكليزية في مذكراتها أو رسائلها أثناء الرحلة، وفي مكان ما على الطريق الصحراوي، وربما لأكثر من مرة، حتى استحق ذلك الوصف، أو حدث مرة واحدة، وكان رهيباً بدرجة كافية، ليصدم امرأة عركتها الحياة في المنطقة. وبعد أهوال الحرب العالمية الأولى هنالك القليل مما يستحق وصفه بالرهيب. لم يقتل أحد منهم، ولم يضيعوا وسط الصحراء أو يختطفهم البدو، ولأن بطلة الحدث الرهيب هي المرأة المختلفة، أو المرأة من الدرجة الثانية كما سمتها الآنسة الانكليزية أول ما يتبادر إلى الذهن هو تصرف منافي لأعراف الإنكليز المحافظين، مثل تعري الليدي جودايفا. هي أيضاً تحدوها فقبلت التحدي وخرقت التقاليد. وفي عهد الآنسة ماتت فكتوريا وورثها ابنها، لكن الأعراف التي اقترنت باسمها لم تختفي

تماماً، والآنسة نفسها لم تكن محافظة في مقاييس الفكتوريين، بل ربما كانت بعض جوانب سيرتها في نظرهم مشينة، وهي لم تخفيها عن الناس.

انتظرت من الشجرة إشباع فضولي، لكنها راوغت، وتصنعت الجهل أو عدم الاكتراث، وتركتني أقلب الاحتمالات، لأنها من نفس جنس النساء، وتقف معهن صفاً واحداً، ولكني سأكتب معتمداً على تخميناتي المجردة نكاية بالتاريخ والشجرة.

قبل انتصاف النهار توقفت السيارات بالقرب من مجرى سيل جاف، وعندما ترجل ركابها رفعوا أيديهم لتظلل عيونهم من وهج الشمس القوي. تبادلوا بعض كلمات غير مسموعة ثم توزعوا في مجموعتين. اتجهت النساء نحو جهة اليمين من السيارات، ومشى الرجال في الاتجاه المعاكس، لقضاء الحاجة كما توقعت.

مشت النسوة الثلاث على مهل، مثل طفلات حديثات العهد بالمشي، لم يجربن السير بأحذيتهن ذات الكعوب العالية على رمال الصحراء من قبل. سبقتهن المرأة من الدرجة الثانية، وربما لأنها أسرعت الخطى انخلع حذائها من قدمها فجلست على الأرض لتنفض عنه الرمال. خاطبت الثلاثة عند مرورهن بجانبها، ويبدو بأنها داعبتهن بكلمات جريئة أو ربما وقحة. وهي الوحيدة التي ضحكت من كلامها. تجاهلنها الثلاثة وكأنها غير موجودة، وكل حرارة الصحراء لم تنقص ذرة من برودة الإنكليزيات المهذبات، ثم نزلن داخل مجرى السيل، أما الرابعة المختلفة فقد توقفت عند الضفة، ثم رفعت ثوبها إلى خصرها وقرفصت.

لا أظن ان أحداً شاهد المستور عادة من جسم المرأة المختلفة. ذكرني تصرفها برفيقة قريبة لنا تلازمها أينما ذهبت. أثناء زيارة للسيدتين لبيتنا الريفي خرجت الرفيقة إلى حديقتنا الخلفية-كانت أشبه ببستان من كثرة أشجارها ونخيلها، وبعد دقائق اجتذبنا صراخها فخرجنا لنشاهدها تعدو وتصرخ وثوبها مرفوع فوق خصرها. أجبرنا الكبار على العودة إلى البيت، وقالوا لنا بأنها تعاني من نوبات عصبية تصاب بها العانسات الآيسات في الأرياف.

عاد الرجال إلى جانب السيارات المتوقفة. ومن مكانهم كان باستطاعتهم رؤيتها عند ضفة المجرى الناشف، ولا بد أنها رأتهم أيضاً، لكنها لم تكترث. أشاحوا بأنظارهم، ولعلهم تشاغلوا بالنظر إلى الأفق البعيد أو تفحص موطأ أحذيتهم، أما البوشامي فقد ادار ظهره للجميع.

خاطب القنصل زميله الدبلوماسي:

- أين عثرت عليها؟ في حانة شعبية من حانات بيروت بالتأكيد. هل كانت سكرانة من كثرة ما تناولته من العرق اللبناني وتجلس في حضن قروي يرتدي شروالاً؟
- بالتأكيد لا، التقيتها في حفلة للسفارة، بدت طبيعية، مثل أي سائحة من لندن، مختلفة ربما، لكنها ليست مبتذلة كما تظن.
- لا أراها مثالاً للسيدات المحتشمات.
- لا أصدق ما أسمعه. لقد انتهى العهد الفيكتوري يا صديقي.
- كيف يرانا البوشامي يا ترى؟ أشعر بالخجل أمام الرجل.
- ولماذا نهتم بذلك؟ هو مجرد دليلنا في الرحلة.
- لس مجرد دليل. من دونه قد لا نصل أحياء إلى بغداد، هو ضمانتنا الوحيدة.

تركتهما الشجرة ولم ينتهي جدلهما حول المرأة المختلفة، واتجهت صوب النسوة.

رأي الثلاثة في المرأة واحد، عبرت كل واحدة منهن بطريقتها الخاصة:

- لم أر في حياتي امرأة مثلها في استخفافها بالغير.
- ليست الوحيدة هذه الأيام لقد كثرت المتمردات على المجتمع في زماننا، إنها الموضة هذه الأيام.
- لو كانت سكرانة، وأخرجها الكحول عن طورها...
- أو ضربة شمس.
- هل تعرفان شيئاً عنها؟
- قالت بأنها من لندن.

- تدخن بشراهة.
- وتضحك بصوت عال.
- هل تظنان بأن الرجال شاهدوها.
- من زاوية أعينهم بالتأكيد.
- الأرض المنبسطة تشحذ النظر.
- للبدو ربما.
- لكنها تعبث ببصيرة الغرباء.
- أتعنين بأنها تصرفت بهذه الطريقة المبتذلة بسبب الصحراء.
- البعد عن الوطن والمجتمع يغري البعض بالتمرد.
- كل سكان الصحراء متمردون.
- الحرية المطلقة في الوحدة.
- البدوي محكوم بعادات وتقاليد قبيلته.
- لكنهم كلهم متمردون على الأغلبية التي تسكن المدن والأرياف ولا يعترفون بحكومة أو حدود.
- لو لم يكن هنالك مجرى السيل لفعلنا مثلها.
- حتى نساء البدو.
- المهم لو كنت مكانها فهل ترفعين ثوبك حول خصرك كما فعلت أم ترخيه ليغطيك عن الأعين؟
- لن أعود للركوب معها في نفس السيارة.
- اصبري وتحملي وغداً ستنتهي رحلتنا ولن نراها بعد ذلك.

وقف البوشامي جانباً، وتشاغل بإصلاح شماغه وعقاله على رأسه. في سكون الصحراء تتولد خطوط خفية للاتصال، تنقل الكلام إلى مسافات أبعد، ومن خلالها التقط البوشامي بعض كلمات من حديث الرجلين والنساء الثلاث، وسمع ما فيه الكفاية.

عادوا إلى داخل السيارات لإكمال الرحلة. تقدمت السيارة التي يركبها البوشامي بمحاذاة جرف السيل، وعند المكان الذي أشار إليه البوشامي انحدرت ببطء. ضج الوادي بصوت محركها، وبعد دقائق خرجت من بطن السيل إلى الضفة الثانية، مخلفة وراءها سحابة كثيفة من الغبار. وبعد انحسار الغبار تبعتها السيارة الثانية ثم الثالثة.

قبل أن يعبر الكولونيل والقنصل والبوشامي والسائق والنساء الحدود إلى العراق حدث شيء ما استحق أن تصفه الآنسة بالرهيب، ولا أظن أن جرأة المرأة عند مجرى السيل تستحق مثل هذا الوصف، وشهادة الكولونيل تكذب الآنسة، أو ربما كره الدبلوماسي الكشف عن الحدث الرهيب. وفي محاضرته المطولة عن الرحلة أمام أعضاء جمعية تهتم بالشرق الأدنى لم يذكر هذا الحدث. تطرق إلى دور البوشامي، وقال عنه بأنه يحب الإنكليز، ولكنه لا يعرف سر ذلك بدقة، ويظن بأن رحالة إنكليزي أنقذه من الموت، وكان مريضاً عندما حل الرحالة ضيفاً على أبيه. وكلامه غير صحيح، لأن الرحالة لم يذكر ذلك في كتابه المنشور. ولم يصدق الكولونيل أيضاً في وصفه لعمل البوشامي بأنه مهرب، والحقيقة هي أن البوشامي كان تاجراً عندما وصل الكولونيل وجيوش بلاده لاحتلال المنطقة، وقبل أن يرسم سايكس وبيكو حدوداً بين العراق والشام، ويفرض المحتلون الإنكليز والفرنسيون القيود والضرائب الجائرة على التجارة بينهما، ومن لم يدفع مثل البوشامي صار مهرباً في نظرهم.

وصف الكولونيل في المحاضرة أيضاً مشاهدته لقطعان جمال ترعى على جوانب مسير السيارات، ولكنه لم يرى رعاتها من البدو. ومن يعرف عادات البدو يدرك أنهم لا يتركون حلالهم يسرح بعيداً عن أعينهم. وقال للمستمعين أيضاً بأن الرحلة كانت خالية من المفاجئات باستثناء عطل السيارة الثالثة، أصلحه الفني الذي رافقهم، لكن رواية الآنسة مختلفة. ما بين النساء الثلاث والرابعة نشب خلاف حاد، أثناء الرحلة لا قبلها أو بعدها، بسبب الحدث الذي وصفته بالمفزع، لكنها لم تفصح عنه، فلا بد أن يكون مشيناً لدرجة استحق عليها

الكتمان، وهي في مذكراتها ورسائلها لم تخفي شيئاً، واشتهرت بالصراحة إلى حد الوقاحة في أعين العراقيين، ولكن عند الحدث المفزع توقفت الصراحة والجرأة وآثرت الصمت.

ألعن الآنسة الإنكليزية، لأنها حركت فضولي، ولم تشبعه. يا ليتها على الأقل بينت إن كانت المرأة المختلفة اقترفت الفعل الشنيع لوحدها أم مع اخر.

ما بين الشام وبغداد صحراء قاحلة وزواحف سامة وعواصف رملية والرعب من التيه. وكان البوشامي تميمتهم من الرعب، ومفعولها مضمون، بشهادة من سبقهم، لذلك لم يخافوا من التيه وسط الصحراء، ولكن يبقى البدو، وهم في نظر الإنكليز همج. هكذا وصفهم الرحالة النصراني ضيف التاجر الحكيم والد البوشامي، وكذلك الآنسة الإنكليزية. كلهم جاؤوا لاكتشاف المنطقة وسكانها، وكأن صحراء العرب كوكباً مجهولاً، وبدوها مخلوقات فضائية غريبة. وكل رتوش لورنس لم تغير صورة البدو في أذهانهم. قال لهم بأنهم همج ولكن نبلاء أيضاً، وهي نفس التسمية التي أطلقها الأوروبيون المستوطنون على سكان أمريكا الأصليين، وفي الوقت الذي كانوا يعملون بدأب لإبادتهم.

ثم أطل الشيخ حسن عليهم. غزت صورته كل مدنهم، واحتلت سطوح مبانيهم العالية، وأعجبوا برجولته وشجاعته. ود شبابهم لو كانوا بوسامته، وجلسوا تحت أشعة الشمس ساعات ليكتسبوا سمرة جلده. وتمنت كل فتاة أن تكون محل الليدي ديانا مايو، ليقع الشيخ حسن في غرامها. وحتى اليوم لم يجاري أحد رودولف فالنتينو في تجميل صورة العرب لدى الغربيين.

جاءت النساء الأربع لرؤية البدو، ومن قبلهن الآنسة، لكن لأسباب مختلفة. هي جاءت قبل فالنتينو، وهن جاء بهن فالنتينو، شيخ القبيلة وابن شيخها القبلي.

البوشامي بدوي، أو أصله بدوي، وهو شيخ أيضاً، ويرتدي عقالاً مثل عقال الشيخ حسن أو فالنتينو، ولكن من دون وسامة فالنتينو أو شهرته السينمائية. وكان في الخمسينات من عمره أثناء السفرة عبر الصحراء، وأثرى من فالنتينو والكثير من مشاهير السينما. وبريق ليراته الذهبية في مصارف الشام أكثر لمعاناً من صور فالنتينو بالأسود والأبيض المعلقة أمام دور السينما في الشام، والباهتة بفعل الشمس واللمس، ولكن هنالك جوانب أخرى لشخصية البوشامي تجعل من غير الممكن أن يلعب دور الشيخ حسن وأن يختار المرأة من الدرجة الثانية لتلعب دور الليدي دايانا أمامه.

يأست من كشف مغزى الحدث الرهيب فعدت إلى الشجرة.

عند فندق الجنرال مود في بغداد انتهت الرحلة. استقبلوهم بحفاوة، وقفوا أمام المصور لالتقاط الصور التذكارية، وكان البوشامي العربي الوحيد فيها. دعتهم الآنسة لوليمة عشاء في بيتها، باستثناء السائق الإيطالي والبوشامي، وحضرها المعتمد البريطاني في بغداد. لاحظت الآنسة بنظراتها الفاحصة مظاهر التوتر بين النساء الأربع، لذلك اختارت أماكن جلوسهن حول مائدة الطعام بعناية. وفيما بعد استخرجت سر الجفاء بين ضيوفها من أحدهم: القنصل أو الكولونيل أو إحدى السائحات الثلاث.

في اليوم التالي استقبلت الآنسة البوشامي في مكتبها. كانت شخصية مختلفة. لم تعد تلك المفتونة بالبدو والآثار، وليست بحاجة لمساعدته في شراء الجمال أو التوسط لدى شيوخ القبائل البدوية. في بغداد هي تأمر وتنهي، وتهين شيوخ القبائل والوجهاء فيبلعون إهاناتها، ويتوددون للخاتون، كما سموها. كلمته بصفتها الرسمية وباسم إدارة الاحتلال في بغداد، وأخبرته بأنهم غير راضين عن نشاطه، ويعتبرونه مهرباً لا تاجراً، وحذرته من الفرنسيين في الشام.

عاد البوشامي إلى الشام مسروراً بنجاحه في اكتشاف طريق جديد، أقصر من الطرق الأخرى المعروفة. كان أول طريق بري سلكته المركبات بين الشام والعراق، ورضي أن يكون وسيطاً بين مالكي شركة النقل وقبائل البدو. دفع مالكو الشركة أول كل عام ألفي جنيه للبوشامي مقابل ضمان سلامة سياراتهم وركابها وحمولتها. استعمل معظمه لبرطلة شيوخ القبائل واحتفظ لنفسه بالباقي، أو استثمره في شراء أسهم في الشركة، واستمرت علاقة البوشامي بهم لسنوات. وفي كل أسبوع تنطلق مركباتهم عبر الصحراء، تحت أنظار قبائل البدو، والبعض منهم لم يكتفوا بالبرطيل الذي وزعه عليهم البوشامي فأغاروا على سيارات

الشركة المحصنة، ليبدأ سباق محموم بين المهاجمين على جمالهم وسائق السيارة وحراسها، وما لم تتعطل المركبة أو يصاب سائقها بالذعر لم يلحق بهم البدو.

في السنة الثالثة انتهت وساطة البوشامي. يقال إن السبب هو توقف شركة النقل عن دفع المبلغ السنوي. وهنالك رواية أخرى تربط بين ذلك واضطراب الأمن في وادي حوران بين العراق وسوريا، لكن العلاقة بين البوشامي والشركة لم تنقطع تماماً، ولم ينسى أصحابها فضل البوشامي عليهم.

ماتت الآنسة في بغداد، ولا بد أن البوشامي علم بالخبر، وربما سمع بأنها ماتت منتحرة أيضا. كانت محسودة من الجميع، ومن الرجال قبل النساء. تمنوا القليل مما اكتسبت، لأنها لم تتوقف عند عتبة التاريخ، وحجزت مكاناً لها داخل التاريخ والسياسة. كانت في البدء تهتم بالآثار القديمة، وقادتها المواقع الأثرية إلى الاختلاط بأهل المنطقة، وبعد أن ختمت كتاب نفوسهم المفتوح تبين لها سهولة السيطرة عليهم وتسييرهم لصالح إمبراطورية قومها، حتى أصبحت صانعة الملوك وراسمة لحدود الدول. في مذكراتها تصف العرب استخفافاً بأنهم أشبه بأطفال مسنين، يكبرون في العمر وتبقى عقولهم وعواطفهم طفولية. ثم أجدبت حياتها، أو هكذا اقتنعت. والبيت الذي كانت تعود إليه في بغداد خاوي وموحش من دون زوج أو أبناء. والقصص المتكررة التي ترددها الوجوه المألوفة وحتى السباحة في نهر دجلة لم تطرد الملل من نفسها، لذلك سولت لها نفسها مغادرة الدنيا في زمن عزها.

ما بين البوشامي ذي الأصل البدوي والآنسة الإنكليزية خيط واهي، صنعا منه رابطة، جمعت بينهما لسنين. لم يرفض فيها لها طلباً، وساعدها بكل إمكانياته. وهي كتبت وسمته صديقها، لكنه لم يترك وراءه رسائل أو مذكرات، فلا نعرف شعوره تجاهها بالضبط.

14

طارت بي الشجرة إلى الماضي مرة أخرى. حامت فوق البيوت، ولامست جذورها سطوح المنازل، لتخط على حجارتها كلمات بلغة الشجر، ولتتعطر بمداخنها التي تنفث دخاناً بروائح صنوبر وسنديان معتق، ثم حطت أمام بيت البوشامي. اختفت الشجرة لأجد نفسي داخل القصر. كنت شبحاً من المستقبل، أتلصص على جد أولادي وعائلته، أراهم ولا يروني، وأعرفهم ولا يعرفوني.

اجتذبتني أصواتهم. كانوا أربعة: البوشامي وأبناؤه الثلاثة. أكبرهم يقبع بجانب أبيه، وكأنه يلوذ به، نحيل ووجهه أصفر وذابل، هو ابن القصيمية، كما وصفته الآنسة في مذكراتها. نمى جسمه النحيل، وتوسعت رقعة الشحوب في وجهه.

أمام البوشامي جلس أوسطهم يوسف بطربوش وبدلة فرنجية وربطة عنق أنيقة. لا يشبه أخيه الأكبر في أي شيء، لا في الملامح أو التعابير، وكأنه جاء تعويضاً عن أخيه، القوة مقابل الذبول، والصحة بدل المرض، والنشاط محل الخمول. تنقلت نظراته بين وجه أبيه والجدار وراءه. داخل الإطار الصدفي المعلق وسط الجدار شهادة تحمل اسمه. خط كلماتها الانكليزية أنيق، هي شهادة النجاح من السنة الثانية، أو السوفومور. لدي شهادة مثلها، ومن نفس الجامعة. كان بعض الطلاب يكتفون بها، أما هو فسيكمل دراسته، كما أخبرتني حفيدة البوشامي. كانت أمنية جده التاجر النجدي أن يدرس أولاده في الجامعات الحديثة، مثل النصراني وغيره من الأوروبيين. هذا ما كتبه النصراني في كتابه، لكن الجد مات وبقيت الأمنية تنتظر التحقيق، فورثها الأحفاد. يوسف أول الأحفاد الذين دخلوا جامعة. ولو كان جده حياً لافتخر به. سمعها أكثر من مرة من أبيه البوشامي: الثروة والنسب العريق من أبيه، ومنه الشهادة العليا.

دخل خادم يحمل صينية عليها إبريق شاي وفناجين زجاجية صغيرة. صب الشاي وانصرف. وضع البوشامي مكعب السكر في فنجانه وحركه بالملعقة، وقلده أولاده. في يمين أصغرهم عبد الكريم سوط صغير، نقله إلى يساره ليحمل فنجان الشاي. سكنت ست سنوات في شقته. عاش ومات في بيت آخر. ومن نافذة شقته راقبت قصر البوشامي. هنالك عاش عبد الكريم شبابه قريباً من اسطبل أبيه وخيوله المدللة، ولم يسقط السوط من يديه حتى ذلك اليوم التعس في حياته. تنقل زوجتي عن والدتها بأنه كان قبل الحادثة لطيفاً ودوداً، وليس له حديث غير الخيول، وأفضل أوقاته تلك التي يقضيها في الاسطبل أو ممتطياً صهوة أحد جياد أبيه، فلم يكترث للدراسة. رفض أن يصبح تاجراً مثل أبيه، لذلك اضطر البوشامي للاعتماد على ابن أخيه في قيادة القوافل، وندم على ذلك فيما بعد.

لم يقتنع يوسف بفكرة أبيه. فشلت كل مهارات البوشامي في إقناعه. وكان مشهوراً بقدرته على الاقناع. ومن السهل على التاجر الناجح اقناع الآخرين. ولا خسارة مع البوشامي، هكذا كان يردد تجار الشام، ويتفق معهم تجار نجد ومصر، وكل من تعامل معه ربح، والتجارة في قوافله مضمونة، وحتى قطاع الطرق من البدو يثنون عليه، ولكنه فشل في اقناع ابنه الجامعي. كان يظن بأنه سيطير فرحاً وسيوافق من دون تردد، وكل الشباب في عمره يتمنون الزواج، لكن ابنه لم يرغب في الزواج، وأصر على اتمام دراسته أولاً. تمنى البوشامي أن لا يكون ذلك من تأثير الجامعة النصرانية، لأن فيها طالبات، وأغلبهن سافرات، ولا بد أنه شاهد نساءاً سافرات في السنتين المنصرمتين التي قضاها في الجامعة أكثر من كل النساء في حياة البوشامي. هو تاجر يعرف بأن كثرة البدائل تزيد من حيرة وتردد المشتري. ضع أمام المشتري صنفاً واحداً من قماش حرير أو صوف فسيشتريه، ولو خيرته بين عدة أصناف فقد يحتار ويعود لبيته من دون شراء أي منها، ولا يحتاج للنصراني أو أي حكيم ليشرح له ذلك، لأنها طبيعة البشر.

كان يظن بأن ابنه سيتحمس لفكرة الزواج من ربيبة أصدقائهم الشاميين، التركية التي تركها أبوها الضابط في الجيش العثماني في عهدتهم، ثم ذهب ليقاتل ولم يعد. ربوها أحسن تربية، وعاملوها كواحدة من بناتهم، وأغدقوا عليها حنانهم وعطفهم. يردد الوصي عليها بأنها أمانة في قلبه، ولكنها ليست مثل كل الأمانات، التي

لا بد أن يأتي زمن ولو طال لتعيدها إلى أصحابها، أما الربيبة فقد كانت أمانة دائمة، وستبقى حتى بعد زواجها، وعندما يموت سيعهد بها لورثته. سمع هذا الكلام من الباشا الوصي على الربيبة أكثر من مرة، من دون أثر للشكوى والتذمر في صوته. لا يراها اختباراً بل هبة، ستمهد له الطريق إلى الجنة، ولم يسمع أحداً من قبل وصفاً مثيلاً للأمانة، وعادة ما ينتظر الناس بفارغ الصبر التخلص من الأمانة، لذلك يقولون بأنها أمانة في العنق، مثل الربق الذي يوضع في رقبة عبد، أما هو فلا يستعمل هذا التعبير، ويكرر بأنها أمانة في قلبه، انتقلت من قلب أبيها إلى قلبه، وما دام قلبه ينبض فهو مسؤول عنها.

رفض ابنه الجامعي التزوج من الربيبة، لكن اهتمام البوشامي بها لم ينتهي عند ذلك، وظلت صورتها ماثلة في ذهنه. يتذكرها وهي طفلة. لم يلتق بأبيها، وشاهدها مرات تلعب في باحة منزل صديقه. كان هو أحد الأعمام. وظلت تناديه بالعم، كعادة الشاميين مع كبارهم في السن. تمناها زوجة لأحد أولاده، ليس أكبرهم العليل، ولا أصغرهم المهووس بالخيل، بل اختار لها أفضل أبنائه، الأوسط يوسف، وكان متأكداً من موافقتهم. هل سأل نفسه لو طلب يد واحدة من بناتهم لا الربيبة فهل سيوافقون أيضاً؟ الربيبة لا تحمل اسم عائلتهم العريقة، وهم فخورون بهذا الاسم، ويعدون أنفسهم من الأكابر، وقد لا يرون فيه وأبناءه أنداداً لهم.

في بيوت الشاميين الأكابر شجرتان على الأقل، واحدة في أرض الديار، شجرة ليمون عادة، وشجرة عائلة معلقة على حائط غرفة الاستقبال. وكلما تمر الربيبة تحت شجرة العائلة تتذكر بأنها غريبة، وشجرة عائلتها في بيت آخر لم تسكنه وفي بلاد لم تزرها. اختفت الشجرة وبقيت هي، مثل ثمرة ملقاة على الأرض، مقطوعة من شجرة.

ثم جاء البوشامي. شاهدته من مكانها المفضل، في غرفتها في الطابق الأعلى، ومن خلف ستارتها الخشبية المحفورة. ثقوبها ذات اشكال هندسية مختلفة. راقبته وهو ينزل من عربته خلال ثقب بهيئة نجمة. حركته متأنية مثل كل الرجال في عمره، لكنه تجاهل يد خادمه الممدودة لمساعدته، وتوقف ليصلح هندامه، ثم رفع نظره إلى أعلى. كانت متأكدة بأنه لن يراها من خلال ثقوب المشرفية. مشى نحو بابهم، ورأته يدخل من خلال ثقب بشكل هلال. لم تدرك ساعتها بأن ما رأته خلال ثقب النجمة سيكون طالعها، وستكون حياتها معه مثل هلال يوشك على الأفول.

بعد نصف ساعة علمت بأنها مخطوبة، وستتزوج من الرجل الذي كانت حتى الأمس تسميه عمها. كانت تقبل يمينه وتتقبل الحلوى من يساره، ويجلسها احياناً في حضنه، ويداعبها كما يداعب الكبار الصغار، ولم تعرف إلا بعد حين بأنه كان يريدها زوجة لابنه الأوسط، لكن الابن لم يكن راغباً بالزواج فطلبها هو لنفسه.

ابن العم اسم تطلقه الزوجات على أزواجهن في الشام، ولا يهم إن كان هو ابن العم بالفعل أم لا -خطاب تودد، وتقليد مفروض على الربيبة، لا تستطيع مخالفته. هكذا تحول البوشامي من عمها إلى ابن عمها. في المفارقة العجيبة طرافة وقبح. أخبرتني حفيدتها بأنها لا تعرف إلا القليل عنها. كانت والدتها تكره الحديث عن تلك الحقبة من حياتها، لأنها تثير في نفسها شجون فتفضل طمسها وتناسيها، لكن الفارق في العمر بين البوشامي والربيبة أكبر من أن يمر من دون اكتراث. كانت الربيبة تنتظر عودة أبيها لا زواجها من رجل في عمره -لو كان أبوها حياً -لكنه على الأغلب مات في حروب الإمبراطورية المريضة، أو تزوج هو الاخر ونساها: أفكار دارت بخلدها، وأسالت دمعات على خديها. مسحتها على عجل، لئلا يراها الآخرون، الذين يتوقعون فرحها بالزواج، ويريدون منها صك وفاء بعهدهم لأبيها، ولو لم يكتب على ورقة، أو تمهره بتوقيعها، ليقدموه في يوم الحساب، ويكون خشبة صلبة في قنطرة عبورهم إلى الجنة.

عرف الأقارب والجيران بزواج البوشامي من ربيبة صديقه. خبر لم يرتج لسماعه سطح بركة الشام الراكد، لأن زواج رجل كهل من فتاة أصغر من أولاده أمر اعتيادي، ويحدث كل أسبوع تقريباً، ما دام الرجل مقتدراً، بالمال أولاً وآخراً، وإن لم يكن بالجسد فقد يحتاج لزيارة سوق البزورية، حيث سيجد وصفات مجربة تعيد الحياة للأعضاء الذكرية المعطلة، فالرجل كما تقول أمثالهم لا يعيبه إلا جيبه، وجيوب البوشامي عامرة، ولو لمّحت قريبة أو جارة لفارق العمر الشاسع بينهما لقالت أخريات: حسودة، تتمنى لنفسها زوجاً مثل البوشامي.

خذلتني الشجرة. تمنيت أن تطير بي إلى قصر البوشامي لنشهد معاً زفاف الربيبة إلى البوشامي، لكنها عاندت، وظلت مجرد رسم شجرة على ورقة كبيرة، لا حياة فيها. ورقاتها بطاقات زيارة نقشت عليها أسماؤهم. انتهت زيارة البعض منهم إلى الدنيا، ولم تبق منهم سوى الأسماء وقليل من الذكريات.

لم تطعني الشجرة، فاستغنيت عنها. وطرت بخيال إلى عرس البوشامي، لأتصور ما حدث ذلك اليوم. أحاطت أقواس من الزهور بابه الرئيسي، وازدانت جدرانه بأشرطة مصابيح ملونة وقصاصات ورق براقة، وعلى أرض الزقاق المغسولة انعكست الألوان في قطرات الماء... شظايا زجاج وأصداف بحرية وشذر لن تمسه أيدي صائغين أبداً.

مر سرب من الحمام فوق القصر، وتابعت مساره حتى تبينت موقع مربي الحمام. هو الأخر شد اهتمامه النشاط غير المعتاد أمام مدخل قصر البوشامي، وشغله الفضول عن هوايته المفضلة، فترك الخرقة التي يستعملها عادة للتلويح لطيوره، وحشر وجهه في ثلمة بسياج سطح منزله، وعيناه متسمرتان على مدخل قصر البوشامي. وكالعادة لم يكن المتلصص الوحيد، وكل عيون الجيران خنست خلف النوافذ والمشربيات، واستضافوا في ذلك اليوم أقاربهم وجيرانهم الذين سمعوا بزواج البوشامي وحضروا ليشاهدوا العرس معهم.

لا تهدأ الحركة داخل القصر. منذ أيام بدأت الاستعدادات. والأعراس مثل الكثير من أعمال البشر تصنعها النساء ويدعيها الرجال -لو نجحت بالطبع-لكن قصر البوشامي من دون نساء ما عدا الخادمات، لذلك ملأت نساء الوصي على الربيبة الفراغ. اشترت النساء المجوهرات وقطع الأثاث الجديدة. ووصفت الحفيدة صورة للربيبة في يوم عرسها: شابة جميلة على رأسها تاج مرصع، وتغطي المجوهرات صدرها ويديها، ولكل زوجة جديدة أثاث جديد. وليس من المقبول أن تنام الزوجة الجديدة مع زوجها على فراش زوجة أخرى -حية أو ميتة-فلا بد من سرير جديد ومقاعد وصناديق صدف وتحف تتباهى بها الزوجة الجديدة.

تقاطر المدعوون والمدعوات. دخل الرجال من الباب الرئيسي والنساء من باب الحريم، رجال بطرابيش عثمانية وقبعات أتاتوركية، وقادة سياسيون وتجار نجديون وسوريون، وشيوخ قبائل بدوية، وأقارب الوصي على الربيبة. ترجلوا من عرباتهم الخاصة أو المستأجرة عند مدخل الزقاق ومشوا نحو القصر. تابعتهم الأعين الفضولية من النوافذ المشرعة ومن وراء ستائر مسدله، وتعرفوا على بعض الوجوه من صورهم المنشورة في الجرائد والمعلقة في الساحات.

تمنيت لو كانت قراءة الأفكار بسهولة التلصص من النوافذ، لكنت تطفلت على عقل البوشامي في ذلك اليوم. الأربعون عاماً التي تفصل بين عمريهما زمن كاف للدوران حول الأرض مشياً على الأقدام، لكن زواج البوشامي من الربيبة لم يتطلب سوى الوقت الذي تقطعه عربته الخاصة بين قصره وبيت الوصي على الربيبة، والباقي تكفلت به النقود.

انتهى حفل الزفاف وودع البوشامي ضيوفه، وبعدها بقليل خرج عدد من الخدم من الباب الخلفي. حملوا قدور الطعام، ورصصوها أمام الباب، ثم انطفأت أنوار القصر الخارجية، ولأول وهلة ظننته انقطاعاً في الشبكة، لولا أن أنوار القصر الداخلية بقيت مشتعلة. ثم عاد الضياء للزقاق، وهذه المرة من فوانيس نفطية، نقلها الخدم من داخل القصر، ووضعوها حول قدور الطعام. بددت أضواؤها الخافتة عتمة الزقاق. ولم يمض وقت طويل حتى بدأ ضيوف البوشامي الآخرين بالتقاطر وبأيديهم القدور الصغيرة والأواني الفارغة، ليغرف لهم الخدم من أنواع الطعام، أرز وخبز ولحم، ونظراتهم تراقب أيدي الخدم، لتتأكد بأنها ستحصل على حصتها من اللحم، ثم رفعوا وجوههم للسماء، وتمتموا بحمد الله والدعاء للبوشامي بالخير، ومن بعدها غادروا على عجل، لأن هنالك من ينتظرهم في البيوت، يغالبون النعاس، لينالوا حصتهم من الطعام، وطعام ولائم البوشامي أفضل من النوم، ونومهم على بطون مليئة سيكون أهنأ.

كان الأواخر أكثر حظاً من الأوائل. حصلوا على حصة مضاعفة من طعام الوليمة. وحتى القطط حضرت الوليمة الثانية في الزقاق. اجتذبتها روائح الطعام. بعد ساعة تعب ومل الخدم، وبعضهم ترك مكانه خلف القدور ليستند إلى جدار القصر، ثم أصدر رئيسهم أمراً، فسارعوا لحمل القدور والفوانيس إلى داخل القصر.

وبعدها عادت الكهرباء لأنوار القصر الخارجية. فاجأت أنوارها الساطعة القطط السائبة داخل الزقاق فهربت إلى نهايته البعيدة.

لم أفهم سبب انطفاء مصابيح القصر إلا بعد اشتعالها من جديد. كان اطفاؤها ستراً للمحتاجين الذين جاؤوا لأخذ بعض الطعام الزائد من وليمة البوشامي، لكنهم في مواسم المجاعات الحادة والخفيفة الطويلة والقصيرة لم يحرصوا على الستر. كان الجوع سيدهم، الذي هتك سترهم، وكل الجيران الجائعين أطاعوه، ولم يتخلفوا عن الحضور. رصّ خدم البوشامي حاويات التمر المصنوعة من خوص النخل وبراميل الحليب في الزقاق كل يوم، وجاء الجوعى للتزود منها، عند الظهيرة وفي المساء أيضاً. تدفقوا بالعشرات على قصر البوشامي، ودلتهم عليه من بعيد أسراب القاصدين، وحتى الذين لم يعضهم الجوع وقفوا ينتظرون أدوارهم غير عابئين بنظرات الجياع المستنكرة.

15

يحرص سكان شجرة البوشامي على مظهرها. يمسحون الغبار عن أوراقها، ويبيضون المصفر منها لتبدوا نضرة وتبقى السمعة العطرة.

تقول حفيدة البوشامي: ليست النساء وحدهن غائبات عن أغصان الشجرة، والموتى من الأطفال والمعتوهون والمنبوذون أيضاً. أحدهم حاول خنق أبيها، وبالكاد خلصوه من قبضته. حبسوا المجنون في غرفة، وراوغهم في أحد الأيام وهرب إلى الصحراء، ولم يعثروا عليه، أو ربما لم يبحثوا عنه.

أخطأوا عندما طلبوا مني تسلق شجرتهم. فاتهم كرهي لشجر العائلات وفضولي الزائد الذي قادني لكل البقع المصفرة والمسودة على ورق شجرتهم.

تعودت الربيبة على اقتسام حياتها، جزء حلو وآخر مر. عاشت عشر سنوات في كنف أبيها وعشر في اليتم. في الزواج أيضاً حلو ومر. تزوجت رغم يتمها لكن من زوج بعمر والدها، وأنجبت ستة أبناء. تقاسمتهم مع الموت. توفيت ثلاث بنات وعاشت بنت وولدان. استلم الموت ثلثي حصته من ذريتها مقدماً. عاشوا أو ماتوا على الترتيب التالي: موت، موت، حياة، موت، حياة، وحياة.

مولودها الثالث بنت. توسطت ثلاثة أموات. عاشت فلم يكتمل مربع الموت، ولم تدع ظله الثقيل يعكر حياتها، بل عاشتها بالكامل.

أفقت مذعوراً. حل الفجر. دلني عليه خيط من الضوء لم تحجبه الستارة الثقيلة، وتكرر الصوت الغريب. مصدره مكان قريب، وغادرت الفراش قلقاً. وقفت دقيقة بانتظار الصوت، فسمعته من جهة المطبخ، مثل صوت خربشة على زجاج، وكأن طيراً فاقد البوصلة يحاول الدخول، أو ربما لص. رفعت ستارة النافذة بوجل، فطالعني غصن شجرة البوشامي يدق على نافذتنا الخلفية. بدت لي أشبه بالشجر أوائل الربيع. عادت الحياة لعروقها، وتوشك براعمها على الظهور.

صعدت إلى مكاني المعتاد فوق الشجرة. هذه المرة لم تطر بي، ولم تكن هنالك حاجة لذلك أصلاً. اكتفت الشجرة بالدوران حول نفسها نصف دورة. نفذتها برشاقة وخفة، فأشرفت على فناء قصر البوشامي. لاحظت حركة دؤوب تسري فيه وتشي بحدث غير اعتيادي. تابعت مسير امرأة تحمل منشفة كبيرة عبر فناء القصر. فتحت باب غرفة فانطلقت من داخلها صرخات أنثى متألمة، تلاها أنين متواصل. خمنت أن في الغرفة امرأة تلد أو مريضة.

بعد دقائق ارتفع صوت بكاء، ليعلن وصول مولودة جديد إلى بيت البوشامي. ولدتها أمها في فراش الزوجية، ولم ينفوها إلى غرفة خلفية، ولم يفرشوا لها فراشاً قديماً لئلا يتنجس البوشامي. تذكرت ما قاله البوشامي للآنسة الإنكليزية. ولدته أمه في غرفة قميئة، وعلى فراش رث، لكنه خرج على تقاليد قومه وعائلته. مات المولودان الأول والثاني، ثم جاءت نشمية أول مواليد الربيبة الأحياء، وأول بنت يرزق بها البوشامي، وهي ابنته الوحيدة. لم يندب حظه على عكس بني قومه، وربما قال لنفسه: على الأقل ستكسر الرتابة، ولو كان كل ذريته أولاد لحسدوه، لذلك كانت تميمته ضد الحسد.

مرت سنوات قليلة وجاء الولدان، هاشم ثم نوفل، واكتملت عائلة الربيبة، لكن فرحتها لم تدم، واكتشفت فيما بعد بأنها مهلة قصيرة، سبة من الزمن ثم عادت الأحزان.

ما بين البوشامي وأصغر أبنائه نوفل ستون عاماً. حالت المقادير بينهما، فلم يخلف الأب في ذاكرة ابنه سوى الفراغ، أفضى من شريط تصوير غير مستعمل. أحياناً يكون الفراغ أشد وطأة من الذكريات الصاخبة المرة، مثل أن تكون بلا أصدقاء وتحسد من يشتكي من سوء تصرفات أصدقاءه. وفي مجتمعه الصحراوي يأتي الآباء في الأهمية بعد الرب. يحيا الإنسان ويموت وهو أبو فلان، ويعرفه الناس بأبيه. وعندما كان نوفل يعرفهم بنفسه يردون عليه: ها ابن البوشامي! تزعجه معرفتهم بأبيه، وبعضهم شاهدوا أباه وتحدثوا معه، ولديهم ذكريات معه، وليس من الإنصاف في نظره أن يكون للغرباء ذكريات عن أبيه ويكون هو بلا ذكريات عنه.

ملأ نوفل فراغ الذكريات بالتذكارات المادية. اختار أفضل صورة لأبيه، وذهب بها إلى مصور مشهور، ليطلب منه تحسينها. وبعد إزالة البقع الصفراء عنها وإصلاح أطرافها المتغضنة وتكبيرها علقها على جدار غرفة الضيوف، لتكون أول ما يراه زواره وموضوعاً للحديث، فيعرفون من خلالها مكانة أبيه في عائلته والمجتمع، ولا يهمه لو قالوا بأنه يتفاخر، فالجميع يتفاخرون بآبائهم ولو كانوا غير جديرين بذلك. ولم يكتفي بالصورة، فأقام متحفاً تذكارياً صغيراً، جمع معروضاته بتأني، ورتبها بعناية تحت صورة الأب على طاولة من الصدف البحري الشامي الفاخر اشترتها ابنة أخته من بائع تحف في باب توما في دمشق القديمة. يتوسط تذكارات أبيه الطاس الذي أهداه الرحالة لجده، وبجانبه قماشة مطرزة وأحجار لعبة برجيس، وشمعدان كريستال أحمر من تركة والدتهما، احتفظت بها نشمية حتى حضر يوماً ليقول لها:

- أريدها لأنها من رائحة أبينا وأمنا.

فلم ترفض طلبه.

ولو حملت الطاس للتمعن في الإهداء المنقوش عليها فستجد داخله بطاقة زيارة لنوري السعيد، رئيس وزراء العراق في العهد الملكي، وأحد معارف البوشامي، وخلفها كلمات دونها رئيس وزراء العراق الأسبق بخط يده يرجو فيها من البوشامي مساعدة حاملها الإنكليزي.

أقنع نوفل نفسه بأن مجد أبيه أكبر بكثير مما توحي به التذكارات البائسة. وبعد كل إخفاق في حياته كان يعود لصورة أبيه، ليسترجعها في ذهنه، ويضخم حجمها، ويضيف عليها أمجاداً، لذلك احتفظ ببطاقة زيارة نوري السعيد، واعتبرها تكريماً لأبيه. لم يطلب نوري السعيد من أبيه شراء جمال لإنكليزي، كما كان يشتري الجمال للأنسة، والتي كانت في حينها جثة متفسخة في مقبرة الإنكليز ببغداد، ولم يترجاه للتوسط عند ابن رشيد، فقد كان آل رشيد يعدون الأيام المتبقية لإمارتهم في حائل، كل ما أراده من البوشامي هو مساعدة الإنكليزي في شراء منتجات تراثية محلية. كان طلباً سخيفاً من رئيس الوزراء العراقي. استغل طيبة قلب البوشامي. ولو غيره استلم مثل هذا الطلب لاعتبره إهانة، ولمزق بطاقة الزيارة، ورد الإنكليزي خائباً، لكن ذلك لم يخطر ببال نوفل، لأنه كان يريد ملأ حفرة في ذكرياته، تفصله عن بقية الناس، الذين عاشوا ليروا أباءهم ويتذكرونهم، أما هو فقد تيتم في الصغر، ومثل كل الأيتام أصبح مستحقاً للرثاء.

هاشم على النقيض من أخيه. نوفل يفتقد ذكريات، وهاشم يود لو يستطيع التخلص منها، أو بعضها على الأقل. يتذكر هاشم أباه جيداً، فلا يحتاج لصورة فوتوغرافية ليتعرف عليه، وملامحه محفورة في ذهنه، ولكن الذكريات مختلطة، وأبوه حاضر في كل ما يريد هاشم نسيانه. أصيب هاشم في طفولته بشلل الأطفال، ومعه عاد الحزن ليستقر في نفس الربيبة. انفطر قلبها. يعصره الألم كلما شاهدت رجلي ولدها، كأنهما مصنوعتان من عجين. تسنده ليقف، ثم تسحب يديها، وتنتظر معجزة، لكن المعجزة لا تحدث، وتعود يداها لتتلقف جسمه النحيل قبل أن يرتطم بالأرض.

عجز كل أطباء الشام عن علاج هاشم، ولم ييأس البوشامي. وعندما نصحه أحدهم بطبيب في القدس بارع في علاج مثل هذه الحالات اتصل به، وقال له بأنه سيعطيه كل ما يطلبه من نقود لو شفى ابنه. حضر الطبيب وبرفقته ممرضون، وبعد الكشف بدأ بالعلاج. كان الطبيب المقدسي آخر أمل بشفاء هاشم. وبعد كل عملية للطبيب الجراح يأتي دور الممرضين، لتدليك قدميه يومياً بزيت الزيتون، واقتياده لقضاء ساعات في مكان مشمس في حديقة القصر. وفي تلك السنوات من عمره التي يكره ذكراها بكى هاشم يومياً في النهار وأطراف الليل. بكى بسبب العجز، ومع والدته وهي تبكي، وأبكاه الألم، حتى تعب ومل، ولكن دموعه لم تنضب، وسيحتاج لذرف المزيد منها فيما بعد.

لم يعد الطبيب الجراح إلى القدس إلا بعد وقوف هاشم على قدميه. استغنى عن يدي والدته، ومشى من دون مساعدتها، وطلب منهم إحراق عكازاته الخشبية، ليستبدلها بقضبان الحديد الملتفة حول رجليه. كان هاشم محط العطف الزائد في البيت، من والديه وأخته، لكن في المدرسة كان ضحية التندر والاعتداء. لا تفلح محاولاته للانزواء عن زملائه الأشقياء في مكان بعيد عن الأنظار، وكأن لا شغل لهم سوى البحث عنه لتبدأ حصته اليومية من المضايقات. ينهرهم المعلمون فينكفئون ثم يعودون بهمة أكبر بعد مغادرة المعلمين. كان

يجلس غير بعيد عن دورات المياه. تفاجئه الحاجة أحياناً، وفي الوقت والمكان غير المناسبين. يمشي بأقصى سرعته جاراً رجله المثقلة بالحديد، ويكزّ على أسنانه، ثم تخونه مثانته، فتبتل ملابسه. وفي ظرف ثوان تتكون مظاهرة صغيرة، تطارده بالضحكات وعبارات الاستهزاء والتصفيق.

بعد سنين وعدة عمليات وسيل من الدموع نزع الهيكل الحديدي من على رجليه، لكن المرض ترك بصمة ثابتة سترافقه طيلة حياته. لم تعد رجلاه بطول واحد. هل طالت إحداهما مع نمو جسده ولم يكتمل نمو الاخرى أم أن المرض اقتطع شبراً من رجله، تذكاراً ليحتفظ به المرض، وحتى لا ينسى هاشم؟ وكان بوده لو ينسى.

لا يشتري هاشم أحذيته من محلات بيع الأحذية الجاهزة، ولم يصاحب أخاه نوفل يوماً لشراء حذاء من محل هشام في سوق الطويلة البيروتي، ولا أظن أحداً من أفراد عائلته سأله يوماً رأيه في حذاء اشتراه مؤخراً، فكلهم يعرفون حساسيته للموضوع. أحذيته كلها صنع اليد، ونعل الرجل القصيرة أثخن من الثانية، لإخفاء الفرق في الطول، والفرق بين الرجلين طفيف والعرج خفيف، لكنه نادراً ما يخلع حذاءه، ولا يطلب من زواره القليلين خلع أحذيتهم، وهو أساساً يفضل المعرفة العابرة السطحية على الصداقة، لأن الأصدقاء سيمكثون وسيلاحظون يوماً ما.

كان بإمكان هاشم نسيان المرض، لولا تلك المشاعر المضطربة التي خلفها والتي تشابكت حتى صارت عقداً نفسية، وتغلغلت في فكره، وسيطرت على مشاعره، وتحكمت بسلوكه، ولم تفارقه حتى هذا اليوم.

تتذكر نشمية والدها. لم يكن مجرد صورة فوتوغرافية جامدة يحركها عقلها، كما يفعل شقيقها نوفل، وعلى عكس هاشم ذكرياتها مع أبيها سعيدة. أدخلها المدرسة مثل بقية أبناءه، وفرح بتفوقها، وحرص على تعليمها لغات أجنبية.

سجلوها في روضة أطفال تديرها سيدات إيطاليات. وبعد أشهر اكتشفوا بأنها نست لغتها العربية وصارت تكلمهم بالإيطالية فقط. يوسف تعلم الإيطالية أيضاً، واستعانوا به ليترجم لهم كلامها، ثم أخرجوها من الروضة الإيطالية فعادت لها لغتها العربية.

فاخر بها البوشامي أمام زواره الشاميين والنجديين. كان يستدعيها لتقرأ الجريدة أمامهم، والبعض منهم أميون. ترطن بالكلمات الفرنسية أو الإيطالية أو الإنكليزية أمامهم فيطرب لذلك، كأنه يقارن بينها وبين النسوة في قرى نجد، لا عاملوهن كالبشر فيحترمن ولا قبلن بالمساواة مع الماشية فيقرّن في حظيرة.

تضمن الحفل السنوي في مدرستها الابتدائية عرضاً تمثيلياً. وزعوا أدوار الزهور الجميلة على رفيقاتها. مثلت واحدة منهن دور وردة، وأخرى دور قرنفلة، وأعطوها دور السوسن، لأنها كما تقول لم تكن جميلة مثل بقية البنات الشاميات، لذلك حزنت لكنها أعادت لنفسها الاعتبار. زادت على كلمات الحوار المخصصة لها بيت شعر امتدحت به نفسها، وصفق لها الحضور، وحتى رئيس الوزراء السوري الجالس بجانب البوشامي مال برأسه نحوه وهنأه على ذكاء ابنته.

أرى قصر أبيها بعيونها كبيراً شامخاً، غير ذلك المبنى المتهاوي الذي جاورناه بعد سبعين عاماً من ولادتها. كانت بساتين القصر ملاعب نشمية، وعالم خاص لها وحدها لم يشاركها أخواها في مباهجه. في الأيام المشمسة فقط تحمل الممرضة أخيها هاشم لقضاء بعض الوقت في الشمس ليدفأ قدميه، وكان يكره الكشف عنهما، ولم يلعبا سويا أو يشاركها في صيد السمك. تنقل عنها ابنتها:

- كنت أصيد السمك من دون الخروج من بيتنا.

كان سكان دمشق يشترون الماء من السقاء أو يحملونه من الأنهار على ظهور الحمير إلى بيوتهم، إلا البوشامي وحفنة من الأثرياء المحظوظين، الذين جرت فروع بردى في حدائقهم. لو عرف أهل نجد بذلك لحسدوه، فهم كانوا يحلمون ببئر لا تنضب مياهها بسرعة، أما نهر يمر في بستانهم يشربون من ماءه ويسقون نخلاتهم ومواشيهم فذلك أقصى أمنياتهم في الاخرة، بعد أن تقوم القيامة ويحاسبون على أعمالهم ويذهب القلة الصالحون منهم إلى الجنة. كانوا يبيتون ويصبحون على أخبار الآبار فيما البوشامي يشرب من نهره الخصوصي.

تجلس نشمية على ضفة النهر في حديقة القصر، وتدلي بسنارتها في الماء. ولم يخلو نهر البوشامي من السمك، أو لعل البوشامي أمر خدمه بشرائه من سوق السمك في سوق الشيخ محي الدين القريب من قصره ووضعها في الماء خلسة ومن دون أن تحس بهم نشمية، لتصطادها فتفرح بذلك.

كل الأبناء يتنافسون على مودة أباءهم، ولا أهمية للأمهات في مجتمعاتنا الشرقية، ولم يكن أبناء البوشامي الاستثناء على ذلك. كانت نشمية المفضلة بين أولاد البوشامي من دون منافس، ولم يخف ذلك على شقيقيها وأخوتها من أبيها. لا يطيق الأبناء المفضل بينهم، والعادة أن يكون واحداً منهم، لكنهم كرهوا أن تكون أختهم أكبر فلذة من فلذات كبد أبيهم. لم يجتمعوا ليقول قائلهم: إن نشمية أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة، وبالتأكيد لم يكن أباهم على ضلال كبير، لأنها كانت مستحقة لتفضيله، لذلك كان امتعاضهم منها مضاعفاً، مرة لأنها مفضلة أبيهم وأخرى لأنها أفضل منهم.

كانت واقفة أعلى السلم في قصر البوشامي تحمل شهادتها، وتترنم بأغنية يرددها الناجحون في ذلك الزمن. نجحت بالمرتبة الأولى على صفها في المدرسة الابتدائية. سمعها عبد الكريم الكسول فدبت الغيرة في نفسه. ضربها على رأسها بكتبه، ففقدت توازنها وهوى جسدها النحيل على درجات السلم حتى القعر، ومن لطف الله لم تمت أو تصب بأذى.

حتى زميلاتها في المدرسة استكثرن عليها التفوق، روت لابنتها:

- كانت زميلتي في المدرسة تقول لي بأني لا أستحق المرتبة الأولى في الصف، ولولا هدايا والدي للمديرة من التمر وغيرها لما تفوقت عليها. كنت أتبادل بعض الأطعمة معها حياناً. مللت الأرز العراقي، يسمونه العنبر، ينقله والدي من العراق، ولدينا أكياس مليئة بالأرز في مخزن الطعام. وفي كل يوم يطبخون أرز العنبر، ولكل طالبة صفر طاس، يملأه الأهل بالطعام، لنتناوله في المدرسة. عند وقت الغداء تفرح زميلتي بالأرز العنبر وتعطيني مقابله الأرز المصري. بعد وفاة والدي ظهرت النتائج وكنت الأولى كالعادة فقلت لزميلتي: مات والدي وانقطعت هداياه وما زلت الأولى على الصف.

استقرت الغيرة الطفولية في زوايا نفوس الذكور من حولها، ولم يمحوها تقادم الزمن، وظل بصيصها مشتعلاً، مثل جمرة في موقد، تنتظر من ينفخ عليها لتتحول إلى لهب.

لم يكن تفوقها مؤقتاً، مثل المشي المبكر، وسرعان ما يفقد بريقه، وربما تمنى أخوتها ذلك، لكنه لم يحدث. كانت متفوقة بالولادة، وبقيت كذلك طيلة حياتها. وقعت في الجب أكثر من مرة، وخرجت منه بقدميها، من دون مساعدة أحد من أهلها أو سيّارة مثل النبي يوسف، وكل محاولات أخوتها الذكور لإعادة التوازن لصالحهم خابت، وظل الغيظ كامناً في نفوسهم.

سبقها إلى القبر كل أخوتها من أبيها، وأولهم كان ذلك الصبي الذي شاهدته الآنسة الإنكليزية أثناء زيارتها لأبيه، وفي مذكراتها أو أحد رسائلها وصفت نحول جسمه وشحوب جلده. لم يكن موته مفاجئاً، وربما توقعوا موت هاشم قبله. كان مرض شلل الأطفال قاتلاً في تلك الأيام، لكن هاشم عاش ومات أخوه النحيل صاحب الخروف المسمى على جمال باشا السفاح.

وضعوا جثة أخيها في غرفة بانتظار دفنه. كانت أول مرة يجاور الموت فيها نشمية. سمعت به من قبل ذلك ولم تراه. تغلب فضولها على خوفها. غافلتهم ودخلت الغرفة. قالت لابنتها بأنها لا تنسى منظر جسد أخيها. غطوه بقماش أبيض حتى أسفل ركبتيه، وتركوا قدميه مكشوفتين، فانطبعت صورتهما في ذاكرتها.

يقولون إن الموت يبدأ بأضعف أعضاء الإنسان، وأبعدها عن العقل، لأنه أقوى رافض للموت. يهاجم الموت القدمين ثم يسري إلى بقية الجسم. حدقت نشمية في وجه الموت ولم تخف، وفيما بعد حدق الموت في عينيها فلم ترهبه أيضاً.

شاركت نشمية في مظاهرات الاحتجاج ضد الاحتلال مع زميلاتها الطالبات. لم يخيفها المحتلون الفرنسيون، ولا قسوة جنودهم السنغاليين، وكانوا يتمتعون بضرب الناس بالعصي في الاسواق، ومن دون سبب أحياناً، وكأن بينهم وبين الشاميين ثارات قديمة.

الشجاعة التي تختزنها نفسك في الصغر تبقى معك في الكبر، والحياة التي عاشتها نشمية تطلبت الكثير من الشجاعة، وظلت شجاعة حتى آخر عمرها.
ولأنها شجاعة لم تكن بخيلة، تتذكر حفيدة البوشامي رواية كان يرددها جدها على مسامع أبنائه. شاهد يوماً رجلاً مسناً يكابد الطريق الصاعد إلى حي المهاجرين فسأله لم لا تركب الترمواي يا حاج؟ فأجابه: قرش على قرش يعمل قرشين. بالتأكيد لم يجمع البوشامي قروشه بهذه الطريقة، ولكن أولاده الذكور كلهم أساؤوا الفهم، ولم يدركوا بأن أباهم روى الحكاية متهكماً على الرجل البخيل. كلهم تعلموا البخل منها ومن تجاربهم الشخصية باستثناء نشمية. هي مثلهم قاست وعانت لكنها لم تكن بخيلة لأنها شجاعة ولم تخاف الفقر، وأشد ما كانت تكره البخلاء. وكان أجمل ثناء سمعته من زوجها: كريمة بنت البوشامي.

16

قبل أن يأتي المبشرون إلى أوروبا اعتقد سكانها الوثنيون بأن أشجارهم مسكونة بأرواح أجدادهم. عبدوا الأشجار والأرواح التي حلت بها. انتقم المبشرون من الشجر. قطعوها ليصنعوا من خشبها كنائساً وصلباناً وتماثيل ضخمة ومنازل. شجرة عائلة البوشامي مسكونة أيضاً، بأحياء باهتين وأموات ذوي أرواح. أسمع همساتهم فأكتب. قادني الهمس إلى الشجرة مرة أخرى. صرت خبيراً بتسلق أشجار العوائل، ولو كانت من النوع الأملس مثل بعض ساكنيها.

كانت الشجرة بانتظاري. انطلقت بي نحو السماء، وفي ثوان كانت تحلق فوق قافلة. ظننت بأنها عادت بي إلى صحراء نجد، حيث بدأت قصة الشجرة، لكني تبينت فيما بعد بأنها بادية الشام، فالصحاري والبوادي ليست على طبيعة واحدة، وحتى سكانها مختلفون.

احصيت مائة جمل، ثم توقفت عن العد، وخمنت أن عددها بالمئات أو أكثر. ناءت الجمال بأحمالها من أكياس القنب المملوءة بالحبوب والحلانات المصنوعة من خوص النخل والمعبأة بالتمور المكبوسة بأرجل العراقيين-بعد غسلها جيداً بالطبع.

هبطت الشجرة حتى صرنا بمستوى القافلة، ولو مددت يدي للمست سنام جمل. توقفت الشجرة فوق رأس قائد القافلة. لم يكن البوشامي فافترضت بأنه ابن أخيه. بعد خمسين عاماً من قيادة القوافل تعب البوشامي فأوكل المهمة لابن أخيه.

عندما تكتب تاريخ الشجر العائلي ومن يسكنها تحتار في التعامل مع الفراغات، تلك المساحات الكبيرة من الأحداث، يطويها الزمن والموت، لكنها تثير الاسئلة، وليس لدى الأحياء من المعلقين على الشجرة إجابات، والأمانة التاريخية تمنعك من سد الثغرات من عندك.

لماذا اختار البوشامي ابن أخيه لقيادة قافلته الضخمة وليس أحداً من أبنائه؟ بعد موت صاحب الخروف كان لديه ولدان مرشحان لتولي المهمة، خريج الجامعة والمولع بالفروسية، ويمكن أن نتصور عزوف الجامعي عن مهنة أبيه المحفوفة بالأخطار أما المولع بالفروسية فقد كان كسولاً ولا يصلح للقيادة.

من قبل الاحتلال كان العراق والشام ولايات عثمانية، وكان البوشامي تاجراً معروفاً، تسير قوافله في وضح النهار، تحت أنظار البدو القانعين ببرطيله، ولا تعترضها الدوريات العثمانية، فالبوشامي صديق الولاة العثمانيين. ثم جاء المحتلون، وتقاسم الإنكليز والفرنسيون المنطقة، وأصبحت تجارته تهريباً. حذرته الآنسة الإنكليزية أثناء لقائهما الأخير في بغداد، وصارحته بأنها غير قادرة على حمايته من الإنكليز والفرنسيين. كان تحذيرها ماثلاً في ذهنه عندما أوصى ابن أخيه بأن لا يسير بالقافلة في النهار. وكل أعداء قوافله يكرهون الخروج في الليل. يسير الإنكليز والفرنسيين دورياتهم في وضح النهار لكي يرى الجميع أسلحتهم الفتاكة فيهابوهم، وحتى لا يباغتهم اعدائهم تحت جنح الظلام. ويتطير البدو من الليل. في النهار يطرد البدوي الوحشة بالحداء، أما في الليل فتجتذب الأصوات الجن، هكذا يعتقد البدو، فلا كلام ولا صفير ولا حداء.

أوصى البوشامي ابن أخيه: لا تسر بالقافلة في النهار! اهجعوا في النهار، وسيروا في الليل! لم يكن البوشامي يفكر براحة ابن اخيه والعاملين في القافلة، أو لم يكن ذلك في مقدمة اهتماماته. كان يخاف على حمولة القافلة.

خالف ابن أخ البوشامي تعليمات عمه. ظن أن الحر سيجبر دوريات الفرنسيين على البقاء في مقراتهم، ثم شاهد غبار عرباتهم المصفحة عند الأفق، ولا مكان للاختباء وسط الأرض المنبسطة، وأين يمكن إخفاء ألف جمل أو أكثر؟

استسلم ابن أخ البوشامي، واقتاد الفرنسيون القافلة. لم يظفروا بصيد أثمن من قافلة البوشامي منذ احتلالهم للشام. صادر المحتلون الفرنسيون قافلة البوشامي بجمالها وحمولتها من القمح والشعير والتمور العراقية. انتظر الشاميون القافلة بفارغ الصبر، بعد موسم زراعي رديء أوصل البلاد إلى حافة المجاعة. لو لم

يصادرها الفرنسيون لجنى البوشامي منها ثروة. لم يكتفي المحتلون بالمصادرة، وفرضوا على البوشامي دفع غرامة كبيرة.

عادت بي الشجرة إلى الزقاق المحاذي لقصر البوشامي، ولم يطل وقوفها سوى دقائق، لكنها كانت كافية لرؤية الفصل الأخير من تجارة البوشامي. عند الباب الرئيسي تجمعت مظاهرة صغيرة من الرجال والنساء. بعد مصادرة القافلة وإفلاس البنك الذي يتعامل معه البوشامي خسر البوشامي كل ثروته، وكذلك الواقفون أمام باب قصره، أو هكذا ادعوا، وحضروا للمطالبة بنقودهم.

أبواب قصر البوشامي مؤصدة، ونوافذه مغلقة، وستائرها السميكة مسدله، لكن نداءات الشاميين وصلت إلى مسامع سكان القصر. وقبل حلول الليل عاد للزقاق هدوءه، وانسحبت العيون المتلصصة في البيوت المقابلة من وراء الستائر، وبعضها تنطق بالرثاء.

ضاقت الشام بالبوشامي. سيردد الشامتون في نجد وغيرها بأن البوشامي خسر تجارته في الشام، لذلك قرر الرحيل عنها إلى العراق.

17

رحل البوشامي إلى العراق لوحده. تلك كانت الغربة الثانية في حياته. جاءت في أسوء الأوقات، ناهز السبعين من العمر. توفي والده، وتفرق أخوته، وضعفت مكانة عائلته، وتبددت تجارتها، وانتهت إمارة حليفها، ونسي الإنكليز أفضاله.

أحيا رحيل البوشامي ذكريات الربيبة الأليمة، وكأنها حدثت قبل ساعة لا سنين، لتضاعف ألمها. عاد بها شريط الذكريات إلى يوم مغادرة ابيها ثم انقطاع أخباره. لعلها تذكرت تلك الساعات التي قضتها عند النافذة المطلة على مدخل بيت العائلة التي ربتها بانتظار عودة ابيها. جاء البوشامي بدلاً عنه، وظنت بأنه سيعوضها عن الأب الغائب، وها هو يغيب أيضاً من حياتها. ذهب ليعمل في العراق، وماذا يعمل شيخ في عمره، بعد خسارة ثروته الكبيرة في صفقة واحدة؟

تركها مع ثلاثة أولاد. أكبرهم فتاة في المدرسة، وأوسطهم أعرج، والصغير يحبو. ولا تعول كثيراً على ولدي زوجها. تعودا على العيش المرفه، ولو كان أحدهما على رأس قافلة أبيه ربما لم يستولي عليها الفرنسيون الجشعون، لكن الكبير اختار التعليم والثاني الفروسية.

لم يصل البوشامي على صهوة حصانه، ومن خلفه قافلته كالعادة، ولا في سيارة فخمة لأصحاب شركة النقل. ذهب لوحده، مثل أي مسافر عادي، من دون مرافقين أو حراس أو خدم. وكان لديه وقت كاف أثناء السفر للتفكير فيما خلفه وراءه وما ينتظره. لديه أقارب وأصدقاء كثيرون في العراق ساعدهم في الماضي، لكنه لم يتوقع يوماً أن تنعكس الأدوار، فيكون هو المحتاج للمساعدة وهم المتفضلون عليه. عذبته الأفكار طيلة الرحلة، ولم تتوقف بعد وصوله بغداد.

استقبله الأقارب. فتحوا له بيوتهم، وأصروا على استضافته. يتذكرون أيام عزه. ولا ينسون شهامة أبيه الذي وقف بجانبهم، عندما هربت أختهم من الكويت، بعد اغتيال زوجها. أبو البوشامي كان لقاتل زوجها بالمرصاد. ألب آل الرشيد على قتالهم، وعاونهم لتحقيق الانتصار، وانتقموا منه وعائلته بسبب ذلك.

رحب به التجار الذين اشترى منهم بالأمس بضاعة القافلة المصادرة. لم يسألوه عن القافلة والإفلاس، وحتى الشفقة تجرح. كلهم مروا بتجارب عصيبة، خسروا فيها الكثير، لكن مجرد التفكير بحجم مصيبة البوشامي مرعب لأقوى القلوب بينهم.

لم يكتب البوشامي مذكراته مثل الآنسة الإنكليزية، ولم يرسل إلا القليل من الرسائل لابنه خريج الجامعة. رسائله مقتضبة، ضاعت أو اختفى معظمها، أو أتلفها ابنه، فلا يعرف عن تلك الفترة من حياته غير اليسير.

في احدى رسائله القليلة إلى ابنه كتب البوشامي نادباً سوء حظه: كنت تاجراً وأصبحت موظفاً لدى الحكومة العراقية. بالنسبة لتاجر لا يوجد مصير أسوء من ذلك سوى الكدية على قارعة الطريق. وحتى اليوم لا يتمنى النجدي مهنة غير التجارة لكي يبقى سيد نفسه، أما الوظيفة فهي بالنسبة له عبودية مخففة، يقبلها بعد تردد طويل وعلى مضض، ولا يقبل بكافة شروطها، ويتمرد على تعليماتها كلما سنحت الفرصة وغاب الرقيب، وأحياناً على الرغم من أنف الرقيب.

كان البوشامي يوزع الهبات ويطعم الناس ويسخر العشرات في قوافله ثم الزمته الحاجة للتوظف عند العراقيين، لذلك حزن البوشامي على نفسه وحزنت معه زوجته وابنته نشمية.

بحثت عن البوشامي في تواريخ العراق. لم يعمل موظفاً، لا في الحكومة أو لدى التجار. كان نائباً في البرلمان العراقي عن منطقة في جنوب العراق. لم ينتخبه المصوتون فيها، ولا أظنهم سمعوا به أصلاً. حصل على المقعد النيابي بالتزكية وبفضل الملك وأصدقائه في الحكومة.

تخيلت البوشامي يجول على أصدقاءه في العراق، وأولهم الملك فيصل الأول. كان الهاشميون في الحجاز اصدقاء أبيه التاجر الحكيم، ووصف النصراني في كتابه زيارة رئيس الأشراف للتاجر. توسطوا له عند ابن سعود ليطلق سراحه فرفض وساطتهم. وفي الشام أقرض البوشامي فيصل نقوداً ولم يسدد الملك القرض نقداً،

أعطاه غلال القمح، ثم غادر الملك، وجاء الفرنسيون، ورفضوا تسليم القمح للبوشامي. ولا بد أن مرافقو الملك من الضباط والأعيان تذكروه. نوري السعيد والهاشميان وغيرهم، كلهم يعرفونه، ويتذكرون سخاءه، ومساعدته لهم ووساطاته لدى جمال باشا السفاح.

سددوا جميل البوشامي. أجلسوه في مقعد بالبرلمان، ليحصل على راتب شهري. بضع عشرات من الدنانير، كان يتصدق بمثلها في اليوم الواحد أحياناً. كانت تلك أدنى نقطة في حياته، حتى عندما وقع والده في أسر ابن سعود لم ينقص عزمه. شعر بالأسى وقتها وعلى لسانه شعر بمرارة ذل أبيه الأسير، لكنه لم يطأطأ رأسه، استمر في تجارته ليدفع الفدية التي فرضها آل سعود، وحتى بعد دفع أضعاف ما طلبوه ولم يفرجوا عن والده لم ييأس. وأخيراً نجحت وساطة شيخ قطر وأفرجوا عن أبيه وأخيه وبقية أفراد عائلته، لكن المعاش الشهري الذي استلمه أول كل شهر في بغداد أوصله إلى حافة اليأس.

كان يرسل الدنانير إلى عائلته في الشام ليصرفوا منها على احتياجاتهم المعاشية. لولا تلك الدنانير لكان وضعهم سيئاً جداً، واضطروا لبيع أثاث منزلهم في الشام.

لم تكن وظيفة، بل منصباً سياسياً، وواحداً من أرفع المناصب السياسية في العراق، يحسده عليه الجميع، ويغضب كارهيه، لكنه بالنسبة للبوشامي مجرد وظيفة، تكرموا بها عليه، من باب ارحموا عزيز قوم ذل. يرد اسم البوشامي في محاضر الجلسات، لكن من دون كلام. حضر البوشامي الجلسات بانتظام وحافظ على صمته. ولم أعثر على تعليق واحد له في سجل المحاضر. لم تنقصه الخبرة والمعرفة بأمور السياسة، وليس هناك من يفهم بالتجارة أكثر منه، لكه آثر الصمت. كان غريباً. لا يمت بصلة للعراق، ومجرد ضيف مكرم عند أصدقائه ومعارفه من العراقيين، وليس من عادة الضيوف التدخل في شؤون مضيفيه.

كان رجلاً عجوزاً، لم يتعبه العمر بقدر الغربة والاحباط، وظل يعاني ويصارع الهموم، ثم نفذت طاقته على الاحتمال ومات.

توفي البوشامي في بغداد، ودفن في أحد مقابرها. هو الآخر مثل الآنسة الإنكليزية، ولدا في بلد غير العراق، هي عاشت للسياسة، وماتت في البلد الذي شاركت في صنعه، وهو عاش للتجارة ومات بعيداً عن البلد الذي أعطاه لقبه. مات البوشامي في العراق، لا في نجد التي ولد وترعرع فيها، ولا في الشام التي أحبها وتلقب بها.

لا يعرف أبناؤه وأحفاده مكان قبر البوشامي، ولم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عنه. لو مات غنياً ولم يخسر تجارته لاختلف الوضع ربما. بعد وفاة البوشامي لم يكتظ قصره بالمعزين، ولم تشاهد في الزقاق أمام قصره حلانات التمور والقدور المليئة بالحليب وصفوف الرجال والنساء، يحملون صحونهم وطاساتهم العميقة بانتظار حصة من عطاء البوشامي.

لم ينسى الشاميون التاجر البوشامي، وخلدوا ذكراه فأطلقوا اسمه على الزقاق المحاذي لقصره الخَرِب.

18

مع موت البوشامي حل الخريف بالشجرة. دخلت في مرحلة حداد طويلة. اصفرت وذبلت أوراقها، وتدلت اغصانها نحو الأرض، وكأنها توشك على السقوط، وعافت نفسها الترحال. تركتها ولجأت إلى حفيدته. لاحقتها بالأسئلة عن عائلتها، وما تعرفه عن تاريخها قليل.

لم تفاجأ الربيبة بخبر وفاة زوجها. تذكرت يوم مغادرته. رفض خروج أبنائه لوداعه. حمل حقيبته الخادم الوحيد المتبقي في خدمتهم، والذي أصر على البقاء معهم ولو من دون أجر.

جلست خلف النافذة ترقب مغادرة زوجها، وتمنت لو يكون إحساسها الخفي خاطئاً. وسوس لها بأنها لن تراه بعد اليوم حياً. وقبل اختفاء البوشامي عند نهاية الزقاق خيل لها بأنه لم يغادر وحده، وبأن رفيقه المتخيل ليس من البشر، بل شبح والدها، هو الاخر مات بعيداً عنها، ولم يعد إلا شبحاً. حضر ليصطحب زوجها في سفره. يتكفل الأحياء أبدان الأموات بالغسل والدفن، لكن الأرواح تحتاج لمن يجهزها لموت أبدانها، ويدلها على طريق الخروج من هذه الدنيا. وأخيراً حضر والدها، ليأخذ زوجها معه، ويستوطن الحزن في نفسها.

بعد يوم أو يومين من وصول خبر وفاة البوشامي اكتظ زقاق البوشامي بمظاهرة صغيرة. حضروا للمطالبة بنقودهم. أقسم البعض منهم بأن البوشامي مدين له، وأحدهم يحمل حي كبير وراق في المدينة اسم عائلته حتى اليوم. من يعرف البوشامي وثروته لا يصدق ذلك. وهم كاذبون كما أكدت نشمية لابنتها، لأن أبيها البوشامي كان يقرض الناس ولا يقترض. ولكن أحداً منهم لم يخرج من القصر ذلك اليوم ليكذب مزاعمهم.

جاء دورهم لمغادرة قصر البوشامي، آخر ممتلكات البوشامي، استولوا عليه بأمر قضائي، وطلبوا من عائلته إخلاءه. توقع ذلك البوشامي، وأودع مبلغاً من المال لدى أحد أصدقائه، لا تتذكر حفيدة البوشامي إن كان عراقياً أم سورياً. أوصاه أن يشتري لعائلته بيتاً بديلاً مناسباً. لم يكن لهم أي رأي في اختيار بيتهم الجديد، وتولى صديق البوشامي المهمة برمتها.

حملوا أثاثهم وانتقلوا إلى بيتهم الجديد. بين القصر والبيت زقاقان، فلم يعانوا مشقة في الانتقال، ولكن الأحمال تكون أثقل من الاحتمال عندما تترك وراءك ذكرياتك السعيدة.

لو كان بيتهم الجديد في منطقة أبعد لهان الانتقال. على الأقل لن يراهم جيرانهم كلما مروا في الحارة، ويقارنوا بين أوضاعهم بين القصر والبيت. جاورت أطلال قصر البوشامي ست سنين، وراقبت الجرذان تتقافز داخلها من نافذة شقتنا الخلفية، أما بيت عائلة البوشامي الثاني فقد زرته مرة واحدة. كان قد مرّ أكثر من سبعين عاماً على اليوم الذي انتقلوا إليه، ولم يخلفوا فيه أي شيء من ذكراهم. ومنذ خمسين سنة تركوه لمستأجرين، استهلكوه حتى لم يبق فيه سوى السقوف والجدران المتداعية.

يقع البيت المتواضع على مسافة قصيرة من سوق شعبي. تحتكر حديقته الأمامية شجرة برتقال سامقة. مساحة البيت صغيرة، وأصغر من مساحة الساحة الداخلية لقصر البوشامي. بناؤه الحجري مكون من ثلاثة طوابق، وفي الخلف باحة صغيرة تحيط بها أسوار عالية لمنع سكان البنيات الملاصقة من التلصص على سكان البيت.

أول ما تدخل البيت تشعر بأنك في برج شيده المماليك لا بيت للسكن. وتذكرك الزوايا الحادة للسلالم الملتوية بملوية سامراء ومشهد مبارزة مثيرة بالسيوف الرفيعة بين البطل إيرول فلين والشرير باسل راثبورن في فيلم روبن هود الأصلي على درجات سلم مشابه. صعدنا الدرجات بحذر لأن بعضها مثلوم. الطابقان العلويان متشابهان. الغرف ضيقة ومعتمة مثل زنزانات وجدرانها مسودة مثل أحشاء تنور، وأثار إهمال المستأجرين وعلى مدى عقود من السنين ظاهرة في كل مكان، على أرضية الغرف غير المستوية وكأن زلزالاً قد خلخل حجارتها وجعل بعضها ترتفع فوق بقيتها، وعلى الجدران التي سقط معظم جصها وترك فيها ثقوباً. وتوقعت أن اشاهد جرذاناً ضخمة تطل برؤوسها من الثقوب، لعلها بعد أن استوطنت قصر البوشامي لحقت بعائلته إلى بيتها الجديد.

تركة البوشامي بيت صغير وجوازات سفر عراقية حصل عليها بعد اختياره عضواً في مجلس النواب. الوحيد الذي استفاد من الجنسية العراقية هو الأبن الأكبر يوسف، أما شقيقه عبد الكريم فقد سارع لجمع أوراق أبيه، وكانت كل ما تبقى منه. أخفاها في صندوق، ووضع عليه قفلاً ضخماً، وكلما غادر غرفته يغلق بابها بالمفتاح.

تتذكر حفيدة البوشامي ما كانت ترادده والدتها عن عبد الكريم: كان يحب ركوب الخيل، ولم تكن مجرد رياضة يمارسها أبناء الأثرياء مثله. كان يعيش من أجلها، ولا يكتمل يومه من دونها، مثل تناول الطعام أو التردد على بيت الخلاء. وفي صباح كل يوم، وبعد تناول طعام الإفطار، يرتدي ملابس الركوب الخاصة، بنطلون أبيض قطني فضفاف وجزمة ملمعة تصل إلى ما دون ركبتيه وقبعة الفروسية الأنيقة. من يراه يظنه أحد كبار موظفي القنصلية الفرنسية، القريبة من قصر البوشامي. يمشي إلى الإسطبل. لا يبعد خطوات قليلة من غرفة نومه. يجد حصانه المفضل مسرجاً، والويل للسائس لو تأخر. يمتطيه ويغيب ساعات، تكفي للوصول إلى بساتين الغوطة والعودة منها.

أتصوره على ظهر حصانه الأصيل، في ملابس الفروسية، يتبختر في زقاق البوشامي قبل أن يتجه نحو البساتين القريبة، ومن وراءه خادمان مرافقان على صهوتي فرسين. تشيعهم العيون الحاسدة من وراء الستائر المسدلة حتى يختفون عن الأنظار خلف المسجد الصغير في نهاية الزقاق. ذكرهم عبد الكريم بالبوشامي، لذلك وضعوا فيه كل آمالهم، وتوقعوا أن يملأ الفراغ الذي تركه أبوه، في تغربه في العراق أولاً ومن ثم بعد وفاته. كان عبد الكريم طيباً وكريماً ولطيفاً، هكذا وصفوه، ثم في أحد الأيام كبا به حصانه. لم ينكسر له عظماً، ولم تنزف قطرة دم واحدة منه. قام ونفض غبار الطريق عن ثيابه، وامتطى حصانه من جديد، ولكنه ومنذ ذلك اليوم لم يعد عبد الكريم الذي تعودوا عليه، وكأن الشخص الذي سقط عن الحصان هو، لكن الذي قام من السقطة شخصاً آخر غير أخيهم. تبدلت طباعه، وأصبح أنانياً ولئيماً وشرساً. وتتساءل ابنة اخته: كيف يمكن أن يتحول الإنسان من كريم إلى بخيل في نفس اليوم؟

نسمع عن تحولات غريبة حصلت لأفراد بعد سقوطهم من مكان مرتفع. أحدهم تكلم بلغات لم يتعلمها من قبل، واخر فقد ذاكرته. ربما كان تحول سلوك عبد الكريم بسبب ارتطام رأسه بالأرض بعد سقوطه من الحصان. لا أنفي ولا أجزم. ولكن هناك تفسير آخر، أقرب للتصديق. المؤكد هو أن الانقلاب الدرامي في سلوك عبد الكريم حدث في وقت قريب من إفلاس والده البوشامي. كان البوشامي شهماً وكريماً، واحترمه الناس لذلك، ثم تبخرت ثروة البوشامي واضطر للسفر إلى العراق والعيش على راتب شهري. ومن يخسر ثروته لا يحتاج لإسطبل مليء بالجياد العربية الأصيلة. باعوا الجياد، وتركوا حصان عبد الكريم المفضل حتى الأخير، ثم جاء الدور على حصانه ليباع بالمزاد في سوق الحيوانات، فانحرم من ركوب الخيل. ولم يعد يطيق رؤية ملابس الفروسية. احرقها أو رماها مع القمامة. الصدمة الحقيقة لم تكن بسبب سقوطه عن الحصان بل افتقار أبيه ومن ثم وفاته في الغربة. تعثرت تجارة البوشامي وأفلس، فاختفى الحصان من تحت ابنه عبد الكريم، وسقط عن ظهر تلك الحياة المريحة المرفهة إلى أرض العوز القاسية، فلا حلانات تمر ولا قدور لبن للفقراء أمام قصر البوشامي، واختفى معها عبد الكريم المهذب اللطيف وحل محله البخيل المشاكس.

استولى عبد الكريم على أوراق أبيه الخاصة، واقفل عليها في صندوق بغرفته، ولم يسمح لأحد بالاطلاع عليها. بعد وفاته كسروا القفل وفتحوا صندوقه، ووجدوا بين أوراق أبيهم رخصة استثمار مناجم في شمال سورية، انتهت صلاحيتها منذ سنين. أخفاها عبد الكريم فلم يستفد منه هو أو أحد من أفرد عائلته. لم ييأس البوشامي حتى عثر على منجم للذهب، واستحصل على رخصة لاستثماره، واستخرج منه صندوقاً مملوء بالتبر.

لو لم يخفي عبد الكريم أوراق أبيه لعرفوا بمنجم الذهب، ولربما تبدلت أحوالهم، واختلف مسار حياتهم.

أحبوا عبد الكريم الطيب، واستثقلوا ظله بعد أن أصبح بخيلاً وشرساً. كان أقرب لهم من يوسف. أنانية يوسف ظهرت مبكرة، وازدادت بعد رجوعه من بيروت. قالوا بأنه تعلمها من الأجانب في الكلية، لأنهم لا يعرفون قيمة العائلة. لي أخ غير شقيق، درس في نفس الكلية، وبعد عودته سكن في العاصمة وتزوج. هو

الاخر تنكر لوالدته. تضطر للسفر إلى بغداد مرة في العام لرؤيته. يهينها ويسبها فترجع مكسورة الخاطر. كانت والدته تتساءل: هل يعلمونهم العقوق في مواد الدراسة أو يسقونهم مادة سحرية تجعلهم ينفرون من عوائلهم؟

كان عبد الكريم كسولاً وفاشلاً في حياة أبيه. عثروا بين أوراقه على مسودة رسالة كتبها إلى أبيه في العراق. اشتكى فيها من المدرسة، ولم يجد عذراً للتملص من الدراسة سوى أن المدرسة يديرها كفار، ويخشى من نزول غضب الله عليه لو استمر بالدراسة فيها. لم يكمل عبد الكريم الدراسة. وبعد وفاة البوشامي تركهم يوسف، ليتفرغ لوظيفته الدبلوماسية، وبقي عبد الكريم الفاشل معهم في بيتهم الصغير، يشاركهم طعامهم القليل وينغص عليهم حياتهم بمزاجيته وبخله.

غيبت الغربة ثم الموت البوشامي. تيتم نوفل وافتقرت عائلته قبل أن يتعلم المشي. وبعد صرف الخدم خدموا أنفسهم. تكفلت الربيبة بالقسم الأعظم، وأعفت نشمية لأنها مريضة بالقلب وهاشم بسبب العرج، والباقي كان من نصيب نوفل. كلفوه بصعود الجبل كل يوم. يقطع المسافة في أقل من نصف ساعة. يمر بالسوق الشعبي القريب من بيتهم ثم الاحياء القديمة ومن بعدها بيوت المهاجرين الجدد. والطريق لا يخلو من متاعب. يترصده الأطفال الأشقياء. يطاردونه ويقذفونه بالحجارة في بعض الأيام، فيضطر لانتظار مرور رجل للاحتماء به. وعند بلوغه قمة الجبل لا يقاوم التوقف أو الجلوس على صخرة ليتفرج على الشام. تمتد المدينة من أمامه في ثلاثة اتجاهات نحو الغوطة. تبدو بساتينها من قاسيون مجرد بقع سوداء من الشجر الكثيف. يجهد بصره باحثاً عن قصر أبيه البوشامي. يستدل على موقعه من العلم الفرنسي المرفوع فوق مبنى القنصلية، والتي لا تبعد سوى أمتاراً قليلة من قصرهم. تنطلق من صدره زفرة لا إرادية. يكره التحسر على رغد انقضى قبل أن يتنعم به، فينصرف إلى بيت الراعي الساكن أعلى الجبل. بعهدة الراعي معزتهم الوحيدة، يوفر لها العلف والمأوى، وفي كل يوم يذهب نوفل لجلب حليبها.

لم يشهد نوفل أيام عز البوشامي. سمع عن قوافله الضخمة. أولها في الصحراء بعد الغوطة وآخرها في وسط الشام. ألف جمل في القافلة الواحدة أمر معتاد. جمع البوشامي ثروة كبيرة، ثم اختفى هو وثروته، فلا يملكون من بعده سوى معزة. لدى بقية أفراد عائلته ذكريات عن حياتهم المرفهة مع البوشامي، أما نوفل فلا يتذكر أبيه ولا تلك الأيام الطيبة، عندما كان في القصر خدم والنقود متوفرة والطعام الدسم يأتي لك وأنت في غرفتك فلا اضطر أحدهم لصعود الجبل كل يوم ومجاملة الراعي ليحصل على القليل من الحليب.

في ذلك اليوم وبعد العودة من الجبل ومضايقات الأطفال الأشقياء في الطريق لم يجد نوفل من ينفث غضبه فيه سوى عبد الكريم، وهو من بين الأحياء يتحمل معظم المسؤولية عن وضعهم. كان المفروض أن يكون هو على رأس القافلة بدلاً من قريبهم المهمل. يوسف معذور، فهو طالب في الكلية، أما عبد الكريم فقد كان كسولاً وعاطلاً، لا يفعل شيئاً سوى ركوب الخيل. لو كان يقود القافلة لنفذ أوامر أبيه ولحرص على قافلته. وكان من المفترض أن يكون عبد الكريم صورة من البوشامي، لكن الصورة احترقت اثناء تحميضها.

جمع نوفل الحجارة، وانتظر عند نهاية الزقاق. ثم أطل عبد الكريم بطربوش مكوي وبدلة أنيقة من أيام عز البوشامي. جفل من أول حجر أخطأه، وشاهد نوفل رافعاً يده ليرميه بحجر ثان فصرخ به غاضباً، ولكن قذائف نوفل استمرت من دون هوادة، واضطرت عبد الكريم للهروب إلى خارج الزقاق. انتظر قليلاً ثم عاد، ليجد نوفل في مكانه وحجارته بانتظاره.

انفرج باب بيت عائلة البوشامي، ليخرج منه هاشم ونشمية. توسلا لنوفل ليتوقف، لكنه لم يلتفت لهما. عيناه لا تغادران أول الزقاق، وكلما خرج عبد الكريم من مخبأه رماه بحجر. وأخيراً نفذت حجارة نوفل.

لم يكره البقية عبد الكريم. لم يكن في نظرهم شريراً بدرجة تستحق كراهية دائمة. أحياناً أعفوه من المسؤولية وحملوها سقوطه من الحصان، لكن بخله كان هدفاً لتندرهم. يتذكرون زيارته لهم في مصر بعد ثلاثين عاماً من حادثة السقوط. كانت أول مرة يغادر بها الشام بعد رحلة الكويت. أسكنوه معهم في شقتهم بالزمالك. وبعد جولة سياحية في القاهرة توجهوا بصحبته إلى الإسكندرية. في الطريق اكتست ملامحه بالرعب فجأة، وطلب منهم العودة إلى القاهرة فوراً. تعجبوا وسألوه عن السبب، فأجابهم: أخفيت عشرة

جنيهات تحت الوسادة، وأخاف أن تجدها الخادمة وتسرقها. طمأنوه بأن الخادمة تعمل لديهم منذ سنين، ولا يشكون بأمانتها، فلم يهدأ وأصر على العودة، فأخرج زوج نشمية محفظته، وقدم له عشرة جنيهات، فأخذها واستراح.

تتباين مواقع الأسماء على شجرة العائلة، بعضها مدون على جذعها وآخرون على أغصانها والبقية يتدلون على أوراقها. الأسماء على الورق بأصغر خط، وهم بدون عقب، ومن بينهم عبد الكريم. بعد وفاة البوشامي خطب عبد الكريم فتاة من الكويت. قالوا له بأنها بنت أصول ومليحة. سافر إلى الكويت ليتزوج ويعود بها إلى الشام. رفض أهل الخطيبة رؤيته لها قائلين: بناتنا لا يكشفن على غريب، وستراها بعد الزواج. رضي بالانتظار حتى ليلة الدخلة في الشام، وتزوجها على السماع من دون رؤية. في البصرة استقلا قطار الشرق السريع. كان وما يزال اسماً على غير مسمى، أو هو بسرعة الشرق الذي تمر به سكته. وطيلة الرحلة حرصت عروس عبد الكريم على عدم الكشف عن وجهها. كان نقابها السميك جدار سميك أسود بينهما. أكلت وشربت من تحته، وتأملت زوجها ومناظر الطريق من وراءه. كانت تنفذ تعليمات والدتها المشددة بالحرف.

ضحكوا قبل إكمال القصة، وخمنت نهايتها قبل سماعها. أخيراً توقف قطار الشرق السريع في محطة الحجاز بوسط دمشق. لست بحاجة للشجرة لكي أتابع خط سير العروسين. اكترى عبد الكريم عربة يجرها حصان من الحلبوني، وجلس بجانب عروسه. اخترقت العربة شوارع دمشق القديمة باتجاه قاسيون، مروراً بالمرجة ثم حي الصالحية، وازدادت دقات قلب عبد الكريم عند رؤيته المستشفى الطلياني، حيث لم يبق بينه وبين بيت عائلة البوشامي سوى الجسر الأبيض.

بعد استراحة قصيرة دخلا غرفتهما. مرت دقائق، ثم خرج عبد الكريم. لا ينسون ملامح وجهه. كانت مزيجاً من الذعر والسخط وعدم التصديق وكأنه هارب من معركة أو منظر مرعب. حاولوا استيقافه من دون جدوى. مشى بخطوات سريعة إلى خارج البيت، ثم هرول في الشارع مبتعداً.

بحثوا عن عبد الكريم في المقاهي التي اعتاد على التردد عليها فلم يجدوه. سألوا عنه الأصدقاء والجيران، فأنكروا معرفة مكانه أو تستروا عليه. اختفى من دون أثر، ولم يستبعدوا أن يكون غادر الشام إلى بيروت، ولم يكن بحاجة لإخبارهم بالسبب، فهم شاهدوا وجه العروس قبله.

بعد أيام من الانتظار والتلهف ورحلة مرهقة في قطار الشرق السريع، وفي بيت عائلته بالشام رفعت زوجة عبد الكريم النقاب عن وجهها فشاهدها لأول مرة. أدرك بأنه وقع ضحية خدعة. لم يكن أهل العروس أذكياء، وتصوروا بأنه سيقبل بها كأمر واقع، ولن يتخلى عنها، بعد أن دفع مهرها وتكاليف العرس والسفر، لأنه بخيل كما قيل لهم. كان قبح ابنتهم أقوى من حبه للنقود، وهروبه من أمامها بعد كشف وجهها عفوياً، من دون تفكير أو قرار مدروس. مسخَ سقوطه عن الحصان بعض جوانب شخصيته، او أخرج الكامن منها، لكنه لم يضعف غريزة البقاء لديه. أنقذ نفسه من زواج تعيس في الوقت المناسب، ولو صبر ساعة أخرى أو على الأكثر ليلة واحدة لكان التراجع بعدها صعباً.

فضل عبد الكريم خسارة نقوده على العيش مع عروسه القبيحة، فاختفى عن الأنظار. أيست العروس من عودته بعد انتظار قصير، ثم أبدت رغبتها بالعودة إلى أهلها، اتصلوا بهم، فأرسلوا أحد أفراد عائلتها ليعيدها إلى الكويت.

لم يفكر عبد الكريم بالزواج بعد تلك التجربة الفاشلة. مات كما عاش وحيداً، ولم يغادر الشام، كما فعل بقية أخوته. اشترى بيتاً في منطقة شعبية قريبة من سوق الحميدية، وعندما عرف بتشييد عمارة سكنية في مساحة مقتطعة من حديقة قصر أبيه سارع لشراء شقة فيها، لكنه لم يسكنها يوماً واحداً، وفضل تأجيرها. أول تفسير يرد إلى أذهان أهله تطبعه على البخل. افترضوا بأنه سكن في البيت القديم وأجر الشقة الجديدة، ليقبض نقوداً أكثر يتعيش منها، ولكن غاب عن أذهانهم سبب محتمل آخر. لا بد أن عبد الكريم وبعد اكتمال بناء العمارة المطلة على قصر أبيه تفقد شقته، ووقف في شرفة المطبخ المطلة على قصر أبيه، وأحزنه اختفاء اسطبل الخيول واقتطاع أرضه من القصر لتشيد محله مباني سكنية، وبعد أن امتلأت نفسه بالمرارة كره السكنى في الشقة.

مات عبد الكريم في بيته الشرقي وسط المدينة القديمة، ولأيام عدة لم يفتقده أحد. دلتهم على موته رائحة تفسخ جثته. بعد سنوات باعت العائلة التي ربت الربيبة البيت لتدفن بثمنه إحدى سيدات العائلة. استلم مستأجر الشقة نصف ثمنها ليقبل بإخلائها، وعشنا فيها محاصرين، أمامنا شارع الجسر الأبيض المزدحم، تؤرقنا ضوضاءه، وتختنق أنفاسنا بدخان السيارات ومداخن المازوت، ومن خلفنا قصر البوشامي المتداعي يعذب منظره زوجتي حفيدة البوشامي.

19

توالت النكبات على عائلة البوشامي. أفلس عميدها، ثم توفي وحيداً في الغربة، واضطروا للسكنى في بيت متواضع، وعاشوا على حافة الفقر. كان سقوطاً سريعاً في هوة عميقة. في القعر تساءلوا:

- أين ذهب كل أصدقاء البوشامي؟ المئات أكلوا على مائدته، والعشرات باتوا في ضيافته، وما يزال السخام على حجارة زقاق قصره من قدور الطعام للفقراء.

لم يأت أحد لنجدتهم. زارهم بعض أقرباء البوشامي، لكنهم لم يحضروا للمساعدة، سمعوا بجمال وشباب الربيبة فتقدموا لخطبتها، ورفضتهم جميعاً. قالت لابنتها:

- كنت زوجة لرأسهم فهل من المعقول أن أقبل بعده بالذيل؟

طرقت المصائب معدن الربيبة، فوجدته صلباً. مات زوجها مخلفاً فراغاً كبيراً في حياتهم، لم يملأه أحد من بعده. صممت أن لا تكون مثل أبيها، الذي تركها في عهدة غرباء ولم يعد. صمدت وربت أبناءها حتى كبروا، ولم تقبل بالزواج ثانية من أجلهم، وأخفت مرض قلبها عنهم، وتحملت الألآم بصبر، ولم تشتكي لأحد.

لم تشتكي يوماً لعميد العائلة التي ربتها، لئلا يمد يده إلى كيس نقوده ويفرض عليهم نمط حياته. توترت علاقتها الربيبة به بعد زيارة ابنه لبيتها. رمدت عينا ابنتها نشمية، وخافوا على بصرها، واستعانوا بممرضة لترعاها. أرسله والده ليطمئن على صحة عيني نشمية، وبعد مغادرته قالت نشمية لوالدتها:

- جميل يحبنا. رأيته يقبل يد الممرضة ليشكرها على رعايتها لي.

أخطأ ظن جميل، إذ ترك الرمد بصيصاً من الرؤية لنشمية، كان كافياً لمشاهدة قبلة جميل التي طبعها على يد الممرضة.

تواً ذهبت الربيبة إلى بيت كفيلها لتشتكي له من تصرفات ابنه جميل، وخاطبته بحدة لم يتعود على سماعها من ربيبته:

- ابنك استهان بحرمة بيتي وسمعة عائلتي. لقد بلغت به الجرأة مغازلة الممرضة في بيتي.

أخذ جميل جزاءه الأمر من توبيخ الربيبة وربما من أبيه وهو زواجه من الممرضة. كانوا يسمونها من وراء ظهرها بآكلة اللحم النيء، بعد أن شاهدوها أكثر من مرة وهي تلتهم قطع اللحم النيء، الطازج من يدي القصاب. سيطرت الممرضة تماماً على جميل. خالف مشيئة أبيه وعائلته وتزوجها، وعاش معها من دون ذرية. لم يكن زواجاً بالمعنى الصحيح، فقد كان هو فيه أشبه بالخادم أو التابع، وفرضت عليه السكنى في بيروت بعيداً عن عائلته. في أيام عزوبيته كان لا يسافر من دون خادمه الشخصي، وعلى طريقة ارستقراط الإنكليز، ليحضر له وجباته ويرتب له ملابسه. تتذكر نشمية حقائب جميل، التي لم تر مثلها إلا في الأفلام السينمائية، حقائب كبيرة ذات دروج وعلاقات لبدلاته ومعاطفه، ثم تتحسر على مصيره بعد الزواج، تحول السيد الأرستقراطي جميل ابن الباشا الذي لم يكن يتحرك من دون خادم إلى تابع يخدم زوجته الممرضة السابقة.

كلهم أسفوا على مصير جميل، ولاموه على وقوعه في فخ الممرضة، ومن ثم جاء دور يوسف، هو الآخر استحق رثائهم وأكثر من ذلك.

بعد وفاة البوشامي أصبح يوسف معيلهم الوحيد. استفاد من شهادته الجامعية ومن صلات أبيه بالعراقيين، وبوساطاتهم ظفر بوظيفة في وزارة الخارجية العراقية، وترقى بسرعة إلى وظيفة قنصل في الشام. استأجر بيتاً في منطقة قريبة، واشترى سيارة فخمة، وفي نهاية كل شهر كان يسلم الربيبة خمسين ليرة من راتبه، لتتدبر بها الربيبة مصاريف عائلتها.

- عاملنا بلطف، مثل أخ كبير.

بهذه الكلمات أو مثيلاتها وصفت نشمية أخاها يوسف.

اشعرهم يوسف بالأمان. تكفلت إعانته الشهرية بحاجاتهم اليومية، من دون رفاهية. تقنن الربيبة النقود القليلة، وفي كل يوم وقبل النوم تراجع الحسابات، للتأكد أن الباقي من النقود سيكفيهم حتى نهاية الشهر.
تزوج يوسف من فتاة مصرية، تعرف عليها أثناء زيارة عمل إلى القاهرة، وأحضرها إلى الشام. اندهشوا عند رؤيتها وتساءلوا: هل من المعقول أن يكون أخوه عبد الكريم أذكى منه؟ عندما رأى عبد الكريم وجه عروسه القبيح ولى هارباً، ولم يعد إلى بيته حتى عادت إلى أهلها في الكويت. كانوا يختارون يوسف لتحكيم مسابقات الجمال في الشام، وتتبختر جميلات الشام أمامه ليختار هو أجملهن، وتوقعوا ان يتزوج بامرأة جميلة، ولو تقدم لأي فتاة في الشام لما رفضته، ومن يرفض شاباً وسيماً بوظيفة محترمة وراتب كبير ويمتلك سيارة خاصة في تلك الأيام؟ لكنه فاجأهم باختياره امرأة قبيحة، حولاء، قصيرة، ورجلاها مقوستان، والأسوأ من قبحها لسانها السليط. في أول زيارة لها لعائلته كذبت عليهم. تبجحت بأنها سليلة عائلة ارستقراطية، وتبين فيما بعد بأن صلتها الوحيدة بالباشوات المصريين كانت عبر قريبة متزوجة من نسيب فقير لباشا.
بعدها بسنين اشترك يوسف وهاشم في ملكية دكان لبيع الملابس النسائية. كسدت مبيعات الدكان بسبب زوجة يوسف. كانت تستعير الفساتين الجديدة من الدكان، ترتديها وتذهب لزيارة سيدات المدينة، ثم تعيدها إلى الدكان، وبعد انكشاف الأمر هبطت أرقام المبيعات، فاضطر هاشم ويوسف لبيع الدكان. اجتمعا لتقاسم ثمن الدكان، يقول هاشم: وضعت كل حصتي أمام أخي وسألته:
- كل هذا المبلغ لك فقط أخبرني كيف اقتنعت بالزواج منها؟
جاءه رد يوسف المذعور سريعاً:
- هس! هس! اسكت لئلا تسمعك.
تسلطت القبيحة على يوسف، ودفعته لقطع صلاته مع الربيبة وأولادها.
بعد زواج يوسف بشهر واحد توقف عن دفع مبلغ الخمسين ليرة الشهرية إلى الربيبة، من دون تبرير أو اعتذار.
بدأت الربيبة بمجوهراتها، فباعت التاج والعقود والأساور التي تظهر في صورتها مع البوشامي يوم عرسهما. بعدها جاء دور التحف، ولا يخلو بيت ثري شامي منها، وكان البوشامي أثراهم، رصصوها على الطاولات والرفف، لتسر بها عيون أهل البيت وزواره، وحان وقت الاستفادة منها. اختارت الربيبة القطع الصغيرة الثمينة، تضعها تحت عباءتها لئلا يراها الجيران، ثم تخرج لتعرضها على أصحاب الدكاكين، بأقل من ثمنها بالطبع. وبعد نفاذ المجوهرات والتحف باعت قطع الأثاث الفرنسية الأصيلة التي جلست عليها الآنسة الإنجليزية وافترضت بأنها مقلدة لا أصلية وكذلك الارائك المطعمة بالصدف البحري وثريات الكريستال وحتى أكواب الشاي المزخرفة، كلها تحولت إلى نقود في جيب الربيبة، صرفتها على ضروريات العيش.
بعد وفاة البوشامي أبقت الربيبة نشمية في المدرسة الأهلية، ونقلت هاشم ونوفل إلى مدرسة حكومية توفيراً للمصاريف. نجحت نشمية في المدرسة، وكان البوشامي يفرح بتفوقها، ويتباهى بها أمام زواره، فهي أول فتاة من عائلة البوشامي تدخل المدارس، وترطن بالفرنسية والإيطالية والتركية، وتلقي أبيات الشعر بجرأة أبهرت رئيس وزراء سورية.
تعرف نشمية بأن عبد الكريم لا يسره بتفوقها، ولا تنسى سقوطها من أعلى السلم بدفعة من يده، لأنها تغنت بتفوقها. وقبل زواج يوسف كانت تمشي إلى منزله القريب لتخبره بنجاحها، فيفرح معها ويبارك لها النجاح، ثم فرقت زوجته بينه وبينهم، لذا لم تتحمس لزيارة أخيها يوسف في ذلك اليوم، لكن والدتها أصرت. سمعت بأنه مريض، وأرادت الاطمئنان على صحته. أذعنت نشمية لرغبة والدتها على مضض. فاجأها المطر في الطريق، وواصلت السير تحت وابل المطر، وابتل شعرها وثوبها، واخترق المطر والبرد أوراق الجرائد المحشوة تحت ملابسها. تعذر على والدتها شراء ملابس جديدة لنشمية، عوضتها عنها بجرائد قديمة. من يصدق أنها كانت يوماً الابنة المدللة لواحد من أثرى العرب؟

روت نشمية لابنتها وقائع زيارتها لبيت أخيها يوسف وزوجته في ذلك اليوم البارد والماطر: فتحت زوجة يوسف الباب وسألتني بجفاء:

- ماذا تريدين؟

أجبتها:

- زيارة أخي يوسف والاطمئنان على صحته.

ردت علي بفظاظة وباللهجة المصرية:

- ده بيتي، عايزه أخوك، روحي شوفيه بالشغل.

كان يوسف جالساً على مقعد، غير بعيد عن الباب، يقرأ جريدة. سمع كلمات زوجته القاسية، ثم رفع الجريدة أمام وجهه، وكأنه يريد الاختباء ورائها.

عادت نشمية تحت المطر. اصيبت بحمى الروماتزم، أقعدتها الفراش، وسرت في جسدها النحيل، حتى وصلت إلى قلعة قلبها، وجدتها محصنة بالشجاعة، وتوقف هجومها عند صمامات القلب، هناك استقرت وتوطنت.

كان البوشامي رجلاً شجاعاً مثل أبيه الذي لم تخيفه قوة آل سعود ولا أحقاد مبارك قاتل أخويه حليف الإنكليز، ولم يرتجف في حضرة جمال باشا السفاح، ولا تردد في الشفاعة عنده لمحكوم بالإعدام، وكان قطاع الطرق يتهيبون من مهاجمة قوافله، ثم خسر ثروته. أورث عائلته بيتاً وراتبه التقاعدي، وبقيت شجاعة البوشامي، لا تورث حسب قواعد الشرع، يظفر بها من يستحقها. حرم أكبر أبناءه الأحياء يوسف نفسه منها، وانكشفت شخصيته الضعيفة بعد زواجه. وجدته زوجته تافهاً، فسيطرت عليه، وأبعدته عن عائلته، فلم يستحق يوسف من إرث شجاعة أبيه وجده ذرة واحدة.

البخل والشجاعة لا يتفقان، وبعد وفاة أبيه اختار عبد الكريم البخل درعاً من غوائل الزمان، لعله قال لنفسه وهو يحاورها: لو أن والدي احتفظ لنفسه بأمواله التي تكرم بها على الآخرين لما افتقر، والخوف من الإملاق سول لأجدادنا قتل أولادهم. تحصنت نفس عبد الكريم بالبخل والخوف فلم تجد شجاعة البوشامي ثغرة تتسلل منها إلى نفسه.

هاشم هو الآخر لم ينل حصة من شجاعة البوشامي، هزمه المرض في حياة أبيه، وطاردته كلمات السخرية من باحة المدرسة حتى دورة المياه، وهو يجر رجله العرجاء المثقلة بالعضائد المعدنية، وتكرر عذابه كل يوم، في المدرسة اضطهده الأشقياء بلا هوادة، وفي البيت عاد ليشاهد نظراتهم المشفقة تتنقل ما بين وجهه الذابل من البكاء وبقايا بلل على سرواله. وفي الليل اجتر عذابات النهار، وقبل أن يغفو هاشم استرجعها واحدة واحدة، وبالتفاصيل المؤلمة، وأحياناً تكون الذكريات أشد إيلاماً من الواقع، ليبتكر لكل شقي انتقاماً مناسباً، يتلذذ بمجرد التفكير به، وما ينساه أو يتناساه عقله الواعي يتذكره عقله الباطني، ويبعثه حياً بالصوت والصورة في الكوابيس، ليبدأ نهار آخر من العذاب، حتى لم تبق في عقل هاشم خلية عقل لم يشوهها العرج وما جره عليه من ألم عضوي ونفسي.

ابتكر هاشم لنفسه قوقعة، ينزوي فيها كلما داهمه الخطر، لا يؤنس وحدته سوى الكتب والمجلات المصورة التي يستأجرها من إحدى المكتبات. يسقط نفسه المهزومة على الابطال الأسطوريين، ويرى نفسه بعين الخيال منتقماً من كل الاشرار المضطهدين في العالم.

لم تسيطر امرأة على هاشم، كما حدث لأخيه يوسف، ولم يتحصن بالبخل كما فعل عبد الكريم، لكن تسلطت عليه نزعتان: رغبة عارمة في الانتقام من الناس جميعاً والخوف من ردود فعلهم. سلك طريقاً وسطياً. اختار لغزوات انتقامه سلاح الكلمات، يصوغها في مختبرات الخبث داخل عقله، ويختار التوقيت المناسب ثم يطلقها على هدفه، لتنغرس في نفسه، بعد أن يموهها بالدعابة والابتسامات، والوقيعة أمضى أسلحته، يمارسها حتى بين أقرب الناس إليه، ليشفي بها غليله من الناس أجمعين، وهم كلهم في نظره أما مضطهد سخر من عجزه أو متفرج غير مكترث لمعاناته، وجميعهم في نظره مذنبون، ومستحقون لانتقامه.

في نفس هاشم المضطربة بالعذاب والانتقام لم تجد شجاعة البوشامي مكاناً لائقاً بها، تركته ومضت تبحث في نفوس غيره.

اختار نوفل عبد الكريم هدفاً لحجارته، ولو كان شجاعاً لرجم يوسف أيضاً. وبعد انتقال هاشم ونوفل إلى مدرسة حكومية، بسبب توقف معونة يوسف، واجه هاشم أشقياء أكثر عدداً وشراسة وترك نوفل أخاه ليجابهم وحده. تطبع على الأنانية، وما زال عليها، لذلك تجاوزته شجاعة البوشامي.

لم يبق غير نشمية، اختبرتها الشجاعة باليتم والمرض العضال وخذلان أخوة جبناء وأنانيين تافهين، فوجدتها الأحق بها. كانت حصتها الأقل من تركة أبيها المادية القليلة، واستقلت بكل شجاعة البوشامي وجدها التاجر الحكيم.

20

بعد مرض قلب نشمية كان يحق لها أن تكون أجبن من يوسف وأسفه من عبد الكريم وأعقد من هاشم وأنانية أكثر من نوفل، لكنها اختارت شجاعة البوشامي، وبعد اختبار شجاعة قلبها بالمرض حان وقت اختبار شجاعة عقلها بالزواج، هي الوحيدة من بينهم لا ينطبق عليها وصف الآنسة الإنكليزية للعرب: يكبرون في العمر وتبقى عقولهم وعواطفهم طفولية.

داخل شخصية نشمية تسابق العمر مع النضج، وتفوق النضج. أصبحت راشدة قبل أن تأخذ حصتها كاملة من الطفولة، وقايضت معظم شبابها بالزواج.

سألت ابنة يوسف زوجتي يوماً:

- كانت علاقة والدي بجدتك طيبة، ولا أفهم سبب عدم اعتراضه على زواج نشمية؟

تقول زوجتي: لم أصارحها بحقيقة والدها. مات الرجل منذ سنين، ولم أرد تشويه صورته في ذهن ابنته. وبعد تفكير قصير استدركت قائلةً:

- ربما كنت مخطئة. كان يجب أن أقول لها بأن أباها ضعيف الشخصية وجبان، خذلهم جميعاً بعد زواجه، توقف عن دفع المعونة الشهرية بعد شهر من زواجه، وبسبب تسلط والدتك عليه اشتد مرض قلب والدتي.

لا تكره ابنة نشمية احداً، إلا من يضطرها إلى كراهيته. تكره يوسف وزوجته، ولا تطيق ذريتهما، فلولا جبن يوسف ولؤم زوجته لما اشتد مرض والدتها، وضعفت صمامات قلبها.

فضول ابنة يوسف قادها لتسأل هاشم أيضاً، فأجابها:

- لو لم تتزوج نشمية لما غادرنا الشام.

تحرك موكبان، في زمن مقارب، أولهما من الكويت والثاني من الحجاز، وجهتهما الشام، وبيت عائلة البوشامي بالتحديد. في الموكب الأول خطيب من الكويت بصحبة صديق قديم للبوشامي. استضافوا الصديق كل عام تقريباً مع والده المريض بالتدرن الرئوي في طريقهما إلى مصح حمانا في جبال لبنان. وبعد مغادرتهما رموا كل ما استعمله المريض من صحون وملاعق وفراش ومناشف في القمامة. رد جميلهم بخطيب من عائلة كويتية ثرية. وصل الكويتيان متأخرين. شاهدا الأوراق الملونة وشريط المصابيح المضاءة المعلقة على مدخل البيت فدخلا للسلام والتهنئة.

جاء الثاني من الحجاز، هو ابن عم نشمية، وفيما عدا الجد المشترك كل شيء آخر بين نشمية وزوجها مختلف.

قبل أن تكمل المدرسة الثانوية تعلمت نشمية في المدرسة الأمريكية اللغتين الإنكليزية والفرنسية، وفي الاستراحات لم تخرج لتلعب مع قريناتها بسبب علة قلبها، واستثمرت وقت الراحة في تعلم العزف على البيانو، ولم تتوقف عن التعلم، وبعد زواجها بسنين تعلمت الإسبانية في معهد بالقاهرة، تفوقت وفازت ببطاقة سفر إلى إسبانيا، لكن فاجأتها نوبة قلبية فاضطرت للاعتذار.

توقف تعليم زوجها عند المرحلة الابتدائية، تعلم فيها القراءة والكتابة والحساب. يصف أيام الدراسة:

- كنت أهرب من الصف لأسبح في البحر.

في العمر أيضاً فارق كبير، كانت هي في السابعة عشر عندما تزوجت، وعمره ضعف ذلك. تنقلب الصورة في حسابات العمر العقلي، تقدمت عليه بأشواط في الذكاء وقوة الشخصية. تزوج من قبلها بثلاث نساء، ماتت اثنتان، واحدة بالسم -هكذا اشاعوا-وبقيت الثالثة، ولولا أنه أكد لوالدة نشمية بأنه أرسل زوجته إلى أهلها في مكة المكرمة لما رضيت بزواجه من ابنتها.

لدى ابنة نشمية صورة وحيدة بالأسود والأبيض لزواج والديها. الاثنان واقفان في الصورة الباهتة. تبدو نشمية بثوب عرسها الأبيض المطرز أكبر من فتاة مراهقة، حتى من دون مساحيق تجميل، لأنها تكره استعمالها، وورثت ابنتها هذه العادة منها. فيما عدا ابتسامة خفيفة خلت تعابير وجهها من الانفعالات وكأنها

مدعوة لحفلة الزفاف لا العروس، أما هو فعلى العكس منها، متوتر وابتسامته متشنجة وكأنه شاب صغير يتزوج لأول مرة.

كانت نشمية راضية عن حياتها، في البيت والمدرسة، لم يعطلها المرض. ولم يكن لدى ابن عمها ما يقدمه لها سوى المال، وهي لم تعطي قيمة للمال في حياتها، ولا تكترث للمجوهرات، ولم تلبس في حياتها قطعة مجوهرات أو ترتدي فستاناً ثميناً، ووحدهم العلماء والمفكرون استحقوا احترامها. وصفت نشمية زواجها:

- جاء ابن العم ويداه خاليتان. لا هدايا ولا مصاغ للعروسة. شاهدنا ضمن متاعه علبة مجوهرات من القطيفة، افترضنا أن فيها مجوهرات. فتحها في الصباح وأخرج منها أدوات الحلاقة. استعارت أمي مجوهرات من إحدى الجارات، وتكفلت أنا بثوب الزفاف، كنت معجبة بفستان عرس رأيته في فلم سينمائي، أخذت الخياطة لمشاهدة الفلم، وطلبت منها خياطة فستان مثله.

كان الفستان اللمسة الوحيدة للرومانسية في زواج نشمية.

رضت نشمية بابن عمها زوجاً، لا رغبة بالزواج أو خوفاً من العنوسة، وإنما لتنقذ عائلتها من الفقر والحرمان. كان بإمكانها أن ترفض، وهي تعرف جيداً بأن والدتها لن تجبرها على الزواج. اختارت نشمية بملأ إرادتها التضحية بالمدرسة الأمريكية واللغات الأجنبية والبيانو والسينما والمجتمع الشامي، وقبلت أن تكون زوجة لرجل في منتصف العمر تزوج ثلاثة مرات قبلها وله أولاد وبنات ويسكن في جدة، لذلك قال هاشم: لو لم تتزوج أختنا نشمية لما خرجنا من الشام.

خافت الربيبة على ابنتها من مصير مجهول مع زوجها في جدة، وودت لو تتأكد من صدق وعوده لها. ربما قال لها نفس الكلام الممجوج الذي يسمعه الأزواج عادة لأمهات زوجاتهم: لا تقلقي يا عمتي، إنها أمانة في عنقي، سأضعها في عيني، وأرعاها وأحرص على سعادتها. لا تريد المخاطرة بسعادة ابنتها، حتى أبوها تركها أمانة لدى غرباء وغادر ولم يعد، وهم بدورهم سلموها للبوشامي الكهل، وبعد وفاته حضر بعض أقاربه ليخطبوها، رفضتهم فأداروا ظهورهم لها ولأبناء البوشامي.

عزمت الربيبة على السفر مع نشمية وزوجها لتطمأن على ابنتها في الحجاز.

وجدا امرأتين في بيت زوج نشمية. استقبلت والدة الزوج نشمية بترحاب بالغ، ووقفت احتراماً لها، وهي لا تقف عادة لزوجات ابنها:

- هلا بابنة البوشامي.

لولا آلاف الريالات التي أرسلها البوشامي لابن سعود لفتك بأبيه وأخيه المحبوس معه، والأخ هو زوجها، ووالد زوج نشمية.

بعدها قدمت لها نصيحة طعمها مر مثل كل النصائح المخلصة في مجتمعاتنا:

- الزوجة هنا يا ابنتي مثل المداس. متى ما قدم رماه الزوج واشترى غيره.

ليس كل الزوجات تنتعل أو تحتذى، وحتى في نجد تغيرت الصورة. روى لي صديق شامي، يحرص على تذكيرك بأنه من حرستا لا دمشق، فالفرق بين المدينة وريفها مهم في نظره، قال: سمعت نجدياً يشبه المرأة بالسخلة، فقلت له وهل ترضى أن تكون ولد معزة؟

قبل أن تتطور المرأة في جزيرة العرب إلى معزة أو سخلة كانت مداساً.

ثم التقت نشمية المرأة الثانية. كانت ضرتها، لها ابن وبنت، وستشاركها السكنى في البيت.

غضبت الربيبة، رفضت فتح الحقائب وعزمت على العودة مع نشمية إلى الشام. كان شكها في محله، وتأكدت بعد ساعات من الوصول بأن وعده بالافتراق عن زوجته الأخرى واسكانها في مكة المكرمة ليكون بيت جدة لنشمية وحدها كاذب.

واجهت الربيبة زوج ابنتها:

- سأعود مع ابنتي إلى الشام.

أجابها:

- لن أطلق ابنة عمي.

رفض الطلاق، وقبلت نشمية بالبقاء مع زوجها، واقتسام بيت الزوجية مع ضرتها، وغادرت الربيبة ساخطة.
تفاصيل حياة نشمية في جدة مجهولة. كتمتها في نفسها، ولم تطلع ابنتها إلا على نتف منها، غير كافية لرسم صورة واضحة. تخمن الابنة بأن أسودها أكثر بكثير من أبيضها، لذلك اخفتها عنها، لأنها لم تكن من ذلك النوع من البشر الذي يستكثر العذاب على نفسه فيوزعه بالكلمات أو الأفعال اللئيمة على من حوله.

كانت نشمية نباتية، وعاشت وسط أناس لا تكتمل وجباتهم من دون لحم، وبكميات كبيرة:
- عافت نفسي من طبيخهم. كنت أرى العبدة تطبخ والعرق يتصبب من وجهها ويداها ويسقط في القدور فيختلط بالطعام. صرت اطبخ في غرفتي. وعشت على البيض المسلوق.

قادها الفضول يوماً إلى سوق العبيد في جدة، ووصفت لابنتها جانباً من مشاهداتها في السوق:
- كانوا يبيعون الأم لمشتري، ويأتي آخر فيشتري ابناءها، وما تزال صورة الأم الحزينة في عقلي حتى اليوم.

بعد مغادرة نشمية الشام هاجر قريب لها إلى الحجاز، اضطر الفقر أباه للعمل صانعاً، لذلك احتقره أقاربه النجديون الذين بخلوا عليه بالمساعدة، وكل الصناع والعاملين بأيديهم في نظر النجديين الأصيلين من صنف أدنى من البشر. أقعد الأب الشلل، ومرضته زوجته الشامية الوفية، ثم رحل ابنه للعمل في الحجاز، ونزل في ضيافة زوج نشمية، وكانت أيام غربة عسيرة كما وصفها:
- أثقل الاوقات على نفسي في الليل، لا شيء سوى حر وظلام وسكون. حر يكتم انفاسي، وظلام يرعبني لا تخفف منه بصيص فوانيس الغاز، ولم تكن كهرباء الجفالي قد مدت بعد، والسكون لا يبدده سوى أصوات دبيب الجرذان الضخمة داخل جدران البيت الخشبية، وكنت أبكي حتى يغلبني النعاس.

لم يتأخر وصول الكهرباء فقط إلى الحجاز فالسَلَطة الخضراء أيضاً كانت غير معروفة، في بيت البوشامي على الأقل، وبشهادة أخت ضرة نشمية:
- علمتنا نشمية إعداد السَلطة، من قبلها لم نكن نعرف ما هي السَلطة.
ولكنهم أحياناً رفضوا نصائح نشمية، قالت لابنتها:
- كانت ضرتي تطبخ العدس وتطعمه لبناتها المصابات بالتهاب معوي، نصحتها بأن لا تفعل ذلك، فلم تنصت لي، فتوفيت البنتان.

بعدها بسنين اعترفت الضرة بخطئها لابنة نشمية:
- ظلمت والدتك. فهل تسامحني؟

تقول بأنها تأثرت من طلبها، أجابتها:
- أمي مسامحة ولم تكره أحداً في حياتها.

21

تغيرت الحياة في بيت الربيبة بعد زمن قصير من زواج نشمية. غادر هاشم ونوفل البيت إلى بيروت، ليكملا دراستهما في المدرسة العالمية، وكل المصاريف مدفوعة وبفضل وساطة زوج نشمية.

وبعد فترة من الزمن ترك يوسف الوظيفة أو استغنى العراقيون عن خدماته، فسافر إلى الحجاز للبحث عن عمل، وكان متأكداً بأنه سيحصل على وظيفة مرموقة في وزارة الخارجية، لأن النجديين الأكفاء في الوزارة قلة، وهو نجدي وخريج جامعة ولديه خبرة في العمل الدبلوماسي، لكن الوزير رفض طلبه، ولم يعرفوا السبب من يوسف أو زوجته بل من صديق في الوزارة.

قبلها بسنوات سافر يوسف إلى الحجاز في مهمة دبلوماسية برفقة زوجته. نزلت من الطائرة، وكانت سافرة، وعلى رأسها قبعة، أثارت هيئتها الغريبة ضجة في المطار، وتناقلت الخبر الألسن، حتى وصل إلى مسامع وزير الخارجية، الذي استدعاه إلى مكتبه ونصحه:

- أنت واحد منا، وسفور زوجتك خروج على عادات وتقاليد مجتمعنا المحافظ.

انتفض يوسف وأجابه محتداً:

- انا قنصل الحكومة العراقية، ولا سلطة لكم علينا.

تذكر الوزير رد يوسف ورفض تعيينه.

عندما احتاج يوسف لمساعدة نشمية وزوجها لم يخطر ببالها الانتقام. تناست خذلانه لهم وتوقفه عن دفع المعونة الشهرية القليلة بعد زواجه، ووقوفها أمام باب بيته بمعطفها المهلهل المحشو بالجرائد مثل متسولة في ذلك اليوم البارد الماطر، وأعادت إلى أدراج الذاكرة المغلقة وجه زوجة يوسف المتجهم، وكلماتها القاسية، وفي خلفية الصورة المؤلمة أخوها يوسف يتجاهلها ويتظاهر بالانشغال بقراءة جريدة.

لو وصفت نشمية لزوجها معاملة يوسف لهم لربما امتنع عن مساعدته. لاحظ الزوج حذاء يوسف البالي فتحايل عليه ليصحبه إلى محل لبيع الأحذية. قال له بأنه بحاجة لشراء حذاء جديد، واشترى زوج نشمية حذاءاً ليقنع يوسف بشراء حذاء هو الاخر، ودفع زوج نشمية ثمن الحذاءين.

بعدها بسنوات كانت نشمية في زيارة لوالدتها بالشام. دق جرس الباب، فتحوه ليشاهدوا زوجة يوسف، تمسك ببطنها المنتفخة أمامها. كانت على وشك الولادة، نقلوها على عجل إلى المستشفى الإيطالي القريب، وأخبرتهم في الطريق بأنها جاءت من بيروت لزيارتهم، وفاجأها الطلق أثناء السفرة. وحتى اختفائها وراء باب غرفة الولادة ظلت زوجة يوسف تردد نفس العبارة:

- كله منك يا يوسف!

دارت الربيبة ونشمية خجلهما من كلمات زوجة يوسف، واستمعا باندهاش للطبيب الذي أكد لهما بأن مخاضها بدأ منذ أكثر من عشر ساعات، أي في بيروت وليس في الطريق بين بيروت والشام كما أخبرتهم، ولا بد أنها أحست بالطلق في بيروت فتوجهت إلى الشام لكي تتحمل نشمية تكاليف الولادة، وهذا ما حدث بالفعل.

في مكالمة هاتفية لابنة يوسف قالت لزوجتي:

- كانت والدتي صديقة والدتك.

من الصعب مصارحة الابنة بحقيقة والدتها. هل تعرف بقصة اتهام سيدة عراقية لوالدتها بسرقة مصاغها؟ لم تسلم أمها الأمانة وأنكرت القصة، لكن الأفعال الشريرة كما قال شكسبير لا يطوي ذكرها موت مقترفيها، أو كلام من هذا القبيل.

تعرف زوجة يوسف بأن زياراتها غير مرغوب بها، لذلك تحضر من دون ميعاد أو اتصال هاتفي مسبق. تفتح نشمية باب شقتها فتطالعها سحنة زوج أخيها يوسف القبيحة وشعرها المصبوغ باللون الأشقر وصدرها المتغضن المكشوف ويداها المثقلتان بالحلي الاصطناعية. ليس من طباع نشمية الكره أو الانتقام

لكنها لا تطيق زيارات المرأة التي عذبت والدتها، لذلك لم تعد تفتح الباب من دون نظرة من خلال العين السحرية، ولو كانت هي خلف الباب تتركها ترن الجرس حتى تمل وتغادر.

حذرها الأطباء: لا تنجبي! سيتوقف قلبك وتموتين أثناء الولادة، لكنها خالفتهم وحملت، لا لضمان مكانها في بيت زوجها، أو لتنافس ضرتها. كانت ترى الإنجاب حقاً لها مثل أي امرأة متزوجة، ولأنها شجاعة تحدت المرض وأنجبت ثلاثة.

بعد حملها الأول غادرت نشمية لتكون بقرب أمها في الشام، وفي المستشفى الإيطالي ولدت ابنها البكر مقرن. ليس اسمه الحقيقي، أنا عمدته بهذا الاسم الكريه في قاموسي.

كان مقرن نشازاً، في طفولته وشبابه، وفي الملامح والطباع أيضاً. على سبيل المزاح ولإغاظته أحياناً تساءلوا إن كان واحداً من عائلتهم بالفعل، فلا يستبعد أن يكون بصر الراهبة الإيطالية المسؤولة عن المواليد الجدد ضعيفاً، أو شدهتها كثرة المواليد في ذلك اليوم، فاختلطت عليها الأسماء. سلمت ابن نشمية الحقيقي لعائلة أخرى، وغادرت نشمية وأمها مع طفل العائلة الأخرى. من لا يعرفه ويرى شعره الأشقر ولون بشرته في الطفولة يقسم بأنه من الشركس، فلا يوجد عربي أصيل بهذه الملامح ولون البشرة حتى بين بقايا الصليبيين. يغضب وقبل أن يستعمل قبضتي يديه لحسم النقاش يتذكرون جدته التركية، وربما هي الأخرى من أصل شركسي، وحتى عندما كبر وحلت سمرة التعرض المتكرر للشمس مكان الشقرة الطفولية وأرخى شواربه الكثة ظل يبدو شركسياً، أما منافسوه على حضن أبيه فسموه: ابن الشامية.

بعد عشرات السنين زار الشام لأيام، لا ليبحث عن جذوره، الشركسية أو النجدية، كما يفعل البعض في وسط العمر. طلبوا منه شهادة ولادة، ليكمل معاملة التجنس بجنسية زوجته الأجنبية، فذهبنا معه إلى المستشفى الإيطالي. تركت سنوات الإهمال بصماتها على مبنى المستشفى الإيطالي. تقشرت جدرانه الخارجية، واسودت بعض حجارتها، وغلقات نوافذه الخشبية بحاجة إلى إعادة طلاء. يشكك ظلام المدخل بوجود حياة داخله، حتى يخرج لك وجه أجنبية، تخاطبك بالعربية، منطوقة على وقع لحن لغتها الأم. تستعين اخته ببعض الكلمات بالإيطالية التي تعلمتها في المرحلة الابتدائية ليتضح لها أن إدارة المستشفى أتلفت سجلاتها للسنة التي ولد فيها مقرن. بطريقة ما، ولا أستبعد استعماله للتزوير، حصل مقرن على جنسية زوجته. تمنيت لو عثروا على سجل مواليد تلك السنة واكتشفوا بأنه بالفعل ليس ابن نشمية، فهو غير جدير بأم مثلها.

مرت سنتان قبل أن تحبل نشمية بابنتها الوحيدة. استأذنت زوجها وسافرت إلى جوار والدتها في الشام. ولدتها هذه المرة في البيت، سموها سلمى، هي زوجتي التي ورطتني بصعود شجرة عائلتها أول مرة.

المولود الثالث ذكر، عمدته أنا باسم عقاد، أبصر النور في المستشفى الإيطالي، أسأل سلمى: أمن قبيل الصدفة أن يولد أخواك في المستشفى وأنت في البيت؟ لا أستبعد أن يراها شقيقاها علامة من عالم الغيب، وأن يقتنعا بأنه لولا لم يكونا أفضل من شقيقتهما لما خصهما القدر أو الصدفة بالمستشفى وهي بالداية، ولو تعسرت الولادة لربما ماتت، لكنها لم تمت فبحثوا عن بدائل أخرى للتخلص منها.

22

بعد ولادة عقاد عادت نشمية إلى جانب زوجها في الحجاز. قضت معظم أوقات النهار في رعاية أطفالها الصغار، وأكبر حصة لمولودها الجديد عقاد. تصف أخته طفولته: كان مريضاً طول الوقت ولا ينقطع بكاؤه. في أوقات الفراغ القصيرة استمعت لبرامج الإذاعة وقرأت كل مطبوع متوفر. نصبوا هوائياً فوق سطح المنزل لاستقبال البث الإذاعي، وحرص زوجها على شراء نسخ من كل المجلات التي تصل إلى مكتبات المدينة. تلاحق غيرها من النساء أزواجهن بالطلبات، فلا يمر شهر من دون شراء ملابس جديدة ومجوهرات، أما هي فرضيت بالكتب والمجلات.

حتى مجوهرات العرس القليلة التي اشتراها زوجها بعد الزفاف أهدوها لعروس أخرى.

قال عنها زوجها: كريمة أبنة البوشامي، ولم ينسى أفضال أبيها على العائلة. وشهدت والدته على شهامة البوشامي واخلاصه لعائلته، وهي خبرت بنفسها جشع البدو الذين أسروا زوجها أخا البوشامي وأباه واحتفظوا بهما رهينتين لابتزاز المال من البوشامي. روت لنشمية مشهد اقتحام الوهابيين لبيتها:

- كنت أصلي عندما دخل اتباع جيش ابن سعود إلى بيتنا. سحب أحدهم سجادة الصلاة من تحتي ونهبها.

ولأن ابنة البوشامي كريمة استلفت أم زوجها مصاغها. كانت مدعوة لعرس، ونوت على تقديم مجوهرات هدية للعروس. تأخر زوج نشمية في شراء الهدية وحل موعد العرس، فلجأت الأم لنشمية. ومن دون تردد سلمتها مصاغها. أوصت الأم ابنها بتعويض نشمية، ومرت السنين وتوفيت الأم، ولم ينفذ ابنها وصيتها، لكنه كتب لنشمية كمبيالة بألاف الليرات اللبنانية، في ذلك الزمن الذي كان لليرة اللبنانية قيمة، ولم تقبض منها فرنكاً واحداً.

كان زوج نشمية باراً بأمه ومطيعاً لها، وعندما هرمت حج بها على ظهره، ونزل عند إرادة أمه فرد الرجل الذي قبل به زوجاً لابنته من زوجته الأولى وزوجها للقريب الذي اختارته أمه. كان أول عرس شهدته سلمى. انطبع منظر أختها العروس في ذاكرتها:

- كان وجهها ينطق بالتعاسة، وتصورت بأن كل عروس تكون حزينة يوم زفافها.

نفذ زوج نشمية كل أوامر أمه لكنه خالف وصيتها برد مصاغ نشمية.

في شبابه عمل زوج نشمية محاسباً عند إدارة ابن سعود في الحجاز. تأكدوا من ولائه بعد مشاركته في الحملة على الأدارسة واليمنيين في الجنوب. التحق بحامية في قلعة بين الحجاز والجنوب، وحاصرتهم القوات اليمنية. كان سلاحه بندقية بدائية احتفظ بها حتى وفاته، وبعد نفاذ ذخيرتهم أيقنوا بالهلاك على أيدي القوات المحاصرة لولا وصول الإمدادات في اللحظة الأخيرة. كافأوه على إخلاصه لهم فعينوه مشرفاً على دفع أجور العاملين في مشاريعهم، وكان ابن لادن الكبير من ضمن عمال البناء في أحدها. نقل ابن لادن مواد البناء على رأسه من الصبح حتى المساء، واستلم أجرته اليومية نصف ريال من زوج نشمية. لم تخن الذاكرة زوج نشمية حتى اخر أيام حياته، تذكر أجرة ابن لادن وأشياءاً أخرى، ونسي مصاغ زوجته، ووعده لوالدته.

لم تسخط نشمية على زوجها، الذي تلكأ في شراء مجوهرات لها بدلاً من مصاغ عرسها، ولم يسدد الكمبيالة بقيمة المصاغ، كما لم تحاسبه على انحيازه لأعداء أبيها وجدهما ومشاركته في حملاتهم العسكرية واحتفاظه بالبندقية القديمة تذكاراً من تلك الأيام التي لا بد أنها رأتها بقعاً سوداء في سيرة حياته.

كانت نشمية شجاعة وكريمة مثل أبيها وجدها، وأكرمت زوجها على الرغم من خروجه عن سيرتهما، وساعدته في تطوير تجارته وجمع ثروته.

قرأت نشمية في المجلات الأمريكية والأوروبية عن منتجات جديدة، واقترحت على زوجها الحصول على وكالاتها أو استيرادها ليبيعها في متجره الكبير. استمع لها ونفذ بعض أفكارها. تؤكد ابنتها: لو استمع لها دائماً لكان أكبر تاجر في البلد، لكنه كان بدوياً يشق عليه أخذ المشورة من المرأة التي يشبها القرويون بالمداس أو العنزة.

قرأت في إحدى المجلات الأمريكية عن أرائك تتحول لآسرة من صنع شركة سيمنز. يجلسون عليها في النهار وفي الليل ينامون عليها، وعرضت الفكرة على زوجها، فاقتنع بها بعد إلحاح، واستورد مائة طقم. بعد وصول الشحنة سمع بها الملك، وطلب إرسال كل الأطقم إلى قصوره. أراد الاستحواذ عليها كلها حتى لا يكون لأحد في البلد مثلها، لكنه قبل باحتفاظ نشمية بطقمين فقط، وضعت إحداهما في غرفة استقبال الضيوف. زارهم بدوي من أقاربهم. أعجبته الأريكة، وقضى شهور الضيافة جالساً ونائماً عليها، حتى قرفت نشمية منها.

حصل زوج نشمية على وكالة لشركة أمريكية كبرى، بتوصية من نشمية، وبعدها بأشهر أرسلوا ممثلاً عنهم للتأكد من حسن إدارته للوكالة. خوفاً عليه من فنادق جدة ومطاعمها استضافوه في بيتهم، وأسكنوه في جناح مخصص للضيوف، وأطعموه من أفضل أكلاتهم، وفي كل وجبة أرز ولحم ومرق متبل، حتى تلبكت أمعاؤه من الطعام الحجازي، فتولت نشمية إعداد وجبات طعام خفيفة له، تعلمتها من كتب الطبخ الأجنبية. بعد تحسن صحة الضيف الأمريكي قابلها ليشكرها شخصياً، وتعجب من اتقانها للإنجليزية، وبعد عودته إلى بلاده أرسل لها هدية.

في المجتمع البدوي تصفّ المرأة مع النعال لينتعلها الزوج متى ما شاء، ولا تعلو مكانتها على المعزة في الإسطبل، ولو نبغت لسموها أخت الرجال. كانت نشمية أكثر من أخت الرجال، تفوقت عليهم بالمطلق، وكانت من عائلة نجدية لا متجنسة، متعلمة وتتقن عدة لغات، وما تزال شابة في مقتبل العمر، ولو لم تتزوج وتنفى إلى جدة لحققت المزيد في حياتها. كانت هدفاً لإعجابهم وحسدهم في آن واحد، وعبروا عن إعجابهم بها بطريقتهم الفجة أحياناً. في أحد الأيام زارت عائلة مسؤول كراجات الملك المتزوج من قريبتها، والساكن في أول بيت بتمديدات صحية بمكة، وبعد انتهاء الزيارة أوصلوها في سيارة ثمينة، ورافقتها امرأة سوداء من عبيد زوج قريبتها، وعند مدخل بيت زوجها سلمها السائق مفاتيح السيارة، وقال لها بأن السيارة والعبدة هديتان، فاعتذرت عن قبولهما.

23

بعد أن تحققت أمنيات الربيبة لأبنائها على يد نشمية ماتت، ودفنت في مقبرة بالشام. حزنت عليها نشمية، تشابهت سيرتاهما، الاثنتان تزوجتا في عمر المراهقة، برجلين يكبرانهما سناً. أنجبت الربيبة ثلاثة: ولدان وبنت، وكذلك ابنتها نشمية، وتغربت نشمية ومن قبلها والدتها.

قبر الربيبة مجهول، وللأمانة لا أدري إن كان هاشم أو نوفل بحثا عن قبر أمهما الربيبة. أعرف يقيناً بأن نوفل غير مهتم بمعرفة أصل والدته. فاخر بأبيه وسيرته، وعرض تذكارات من حياته في متحف صغير في غرفة الضيوف بمنزله، لكنه أهمل ذكر والدته، وبقي أصلها مجهولاً، يعرفون اسم أبيها فقط، لا هاشم ولا نوفل كلفا أنفسهما بتقصي عائلة والدتهما، وفي تركيا أقرباء لهم، لا يريدون التعرف عليهم، ولا حتى من باب الفضول لأنهم أتراك لا نجديون.

مرضت ابنة كافل الربيبة، أخت جميل زوج الممرضة التي تأكل اللحم النيء، وزارتها سلمى، وجدتها نائمة وعندما أفاقت ظنت أنها الربيبة. وفي مجلس عزاء حضرته سلمى دهشت صديقات المتوفية من الشبه الكبير بين الحفيدة والجدة، ولكن ذلك لم يحبب سلمى لهاشم ونوفل.

في غرفة ضيوف زوج نشمية صورتان، بالحجم الكبير، معلقتان على الجدار الرئيسي للغرفة، الأولى لوالد الزوج والثانية للبوشامي. يعترف زوج نشمية بأفضال البوشامي على أبيه، ولولا الأموال التي دفعها البوشامي لفتك ابن سعود به، وتعليق صورته عرفان بالجميل بأبسط صوره، لكن في منزل هاشم لا توجد صور لأبيه البوشامي أو أمه الربيبة، لا على الجدران أو مخفية في الأدراج.

كل ما يتذكره هاشم عن أمه يتلخص في جملة واحدة:

- كنت أجلس معها في المطبخ وأراقبها وهي تعد الطعام لنا.

يوحي كلامه للسامع بأنه تعلم الطبخ منها. يبالغ في تقدير مواهبه في الطبخ، ويصر على إعداد طعام ضيوفه النادرين بنفسه. وكنت واحداً من هؤلاء الضيوف وتجرعت طعامه بصعوبة، ولا أظن أن والدته كانت طباخة سيئة، لأن نشمية طباخة ماهرة، وعلى الرغم من كونها نباتية تأنف من لمس اللحوم النية.

يحتفظ نوفل بصور لنساء في حياته، ما عدا أمه الربيبة واخته نشمية، ولكن أمه حاضرة في ذكرياته المرّة عن طفولته، ولم ينسى بأنها حرمته يوماً من أكل الزبدة. بعد وفاة البوشامي وافتقارهم لم يستطعموا الزبدة إلا في المناسبات. زارتهم يوماً سيدة شامية، وادعت بأنها مريضة بالقلب ووصف لها الطبيب تناول الزبدة كل يوم، فاضطرت الربيبة لشراء قالب زبدة لضيفتها، وتذكر نوفل ذلك الموقف:

- لم أستطع مقاومة قالب الزبدة فمددت يدي لتناول قطعة صغيرة منه ولكن نظرة واحدة من والدتي أوقفتني.

بعد وفاة البوشامي كانت الربيبة هي الأم والأب، ولعشرة أعوام تحملت العبء وحدها، حتى تزوجت نشمية، وعندما اكتشفت أن ابنتها ستشارك زوجها مع ضرة في نفس البيت طلبت منها العودة معها إلى الشام، غير عابئة بالنتائج، وتلك شجاعة نادرة حتى بين الرجال، قابلتها نشمية بقرار شجاع. أدركت موقف والدتها الصعب واستعدادها للتضحية بالصهر الغني من أجل سعادتها، ورضيت بالبقاء مع زوجها وضرتها في بيت واحد.

شخصت نشمية حالة والدتها النفسية بعد زواجها ورحيلها إلى الحجاز:

- كان وقع قراري بالبقاء مع زوجي صعباً على والدتي، ما بين شخصيتها القوية وقلبها الضعيف شد وجذب حسمه الموت بعد سنوات قليلة.

نفس نشمية عزيزة. اقترحت على زوجها الحصول على وكالة، فوافق بعد تردد، وجنى أرباحاً كثيرة بسببها. كانا مارين بمحل مجوهرات، وعرض عليها أن يدخلا سوية لشراء حلي مكافأة لها، لكنها رفضت لأنها كما قالت لابنتها اعتبرت العرض مهيناً لكرامتها.

كتب أحدهم بأن أصل عنف الذكور يكمن في خوفهم من سيطرة النساء عليهم.

أقول لابنة نشمية: أنت ووالدتك وجدتك مثل تلك الدمى الروسية، الماترويشكا، ترفع الأولى فتظهر الثانية من داخلها، والثالثة، وهكذا، الثلاثة متشابهات، في كل شيء تقريباً ما عدا الحجم.

ماتت الربيبة، وظن الذكور في عائلتها بأنها ستكون آخر النساء القويات في حياتهم، ورفعوا الدمية التركية الماتريوشكا فظهرت لهم نشمية، هي الأخرى ماترويشكا لا تقل عن أمها في صلابة الشخصية. أتخيل ذعر وسخط الرجال، فلا أعجب إذا تخلصوا من صورهما وأهملوا ذكرهما ولم يزوروا قبرهما. وعندما جاءت الحفيدة، خافوا أن تكون ما تريوشكا أخرى، فلم يكتفوا بإتلاف صورها وتخلصوا منها.

24

ابتعثوا هاشم ونوفل للدراسة في لبنان، بوساطة زوج نشمية. بعد تخرج هاشم من الثانوية التحق بالجامعة الأمريكية، وتوقف عن الدراسة بعد السنة الثانية، لسبب غير معروف. استلم دبلوماً عالياً وغادر.
لم يلحق نوفل بأخيه في الجامعة، وسافر إلى جانب أخته نشمية، وسكن في بيت زوجها.
لولا زواج نشمية لانحرم هاشم ويوسف من الدراسة، اكملا دراستهما، وتوقف تعليم نشمية في المدارس، وعلمت نفسها من خلال الكتب ومراقبة العالم الصغير من حولها.
تضحيات نشمية فرضتها عجرفة وأنانية يوسف. بعد وفاة البوشامي زار أصحاب شركة النقل الأجانب عائلته. لم ينسوا مساعدته لهم في استكشاف الطريق الأقصر والأسلم لحافلاتهم، ولولا البوشامي لما جمعوا ثروة من شركتهم. حضروا للتعزية ولتقديم عرض سخي لأبنائه. سمعوا بافتقارهم بعد وفاة البوشامي، وتعهدوا بالصرف على دراسة أبناءه حتى تخرجهم من الجامعة، وفي أرقى الجامعات البريطانية، لم يكن مِنّة من الأجانب، بل عرفاناً بالجميل.
رفض يوسف العرض. تحركت في نفسه عنجهية البدوي الفارغة، قال للأجانب بأنه كبير العائلة بعد وفاة الأب، وسيتكفل برعاية أخوته والصرف على دراستهم، ثم أخل بوعده، وحتى المساعدة المالية التي كان يقدمها لهم شهرياً توقفت بعد زواجه. وبفضل تضحيات نشمية حصل هاشم ونوفل على ما حرمهم يوسف منه.
لم تكن نشمية مداساً أو معزة بل سلماً، صعد عليه أخوتها، ولم تسألهم يوماً رد الجميل. اعترف هاشم بذلك عندما قال لابنة يوسف: لولا زواج أختنا نشمية لما غادرنا الشام أبداً، وعندما اختلف مقرن مع نوفل صار يردد: لولا أبي لرأيت هاشم ونوفل متسكعين في أزقة الشام حتى اليوم. كلامه غير دقيق، الأب كان الواسطة لكن نشمية كانت عصا سحرية لم يحركوها في الهواء، ولا احتاجوا لترديد كلمات لفك الطلسم واستحضار جني. هي حققت للجميع كل أمنياتهم من دون توسل أو مِنَّة.
بعد تخرجه من الثانوية سافر نوفل إلى جانب أخته نشمية، لا شوقا لرؤيتها بل طمعاً ببعثة دراسية إلى أمريكا. رافق زوجها مثل ظله، وألح عليه حتى اصطحبه في أحد الأيام لمقابلة وزير المعارف، صديق زوج نشمية الحميم، أو هكذا يدعي. كان يمتدح الأمير: هو الظريف الوحيد في العائلة الحاكمة. اجتمعا كل يوم تقريباً للتسامر على كورنيش جدة. زعل الأمير عندما رفضت العائلة زواجه من إحدى بناتها، ولام زوج نشمية على ذلك، لكن صداقتهما لم تتوقف.
تروي سلمى:
- كنت مع والدي بالسفارة في واشنطن، سمعنا صوتاً يناديه، التفت فرأيت الامير، انسحبت بعيداً، بعد تبادل السلام والسؤال عن الصحة والأخبار خاطب والدي الأمير: غداً سأتوجه إلى المملكة فهل توصيني بحاجة؟ غلبت العادة، وكأن الأمير الذي سيعتلي الحكم بعد سنين بحاجة لخدمات والدي، عامله والدي مثل أي صديق، من دون اعتبار لمكانته وقوته، وشهدوا لوالدي بأنه كان يرفض هدايا الملك من النقود أو الشرهات التي يقدمها لزواره.
ذهب نوفل مع زوج أخته لمقابلة الأمير وزير المعارف الذي لم يرفض طلباً لصديقه من قبل. سأل الوزير نوفل:
- ما رأيك لو أرسلناك إلى القاهرة بدلاً من أمريكا؟
ذعر نوفل فأجابه بسرعة:
- لا أريد القاهرة ابتعثوني إلى أمريكا!
ضحك الأمير وزوج نشمية من حماس نوفل للدراسة في أمريكا. في وقتها توافد الدارسون من الخليج على مصر، وكثير من خريجي الجامعات المصرية عادوا ليرتقوا إلى مناصب هامة.
سافر نوفل للدراسة في أمريكا، وجاء هاشم من لبنان، ليسكن في بيت نشمية وزوجها، ويبدأ البحث عن عمل.

تسلية مقرن الملول الوحيدة في جدة اللعب مع أطفال العائلة تحت رقابة نشمية. كاد قلبها أن يتوقف عندما دفع أحدهم سلماً فسقط على مقربة من ابنها، وأخطأه بأقل من متر واحد، ولو سقط على ظهره لقصمه. خافت نشمية على حياة ابنها في الحجاز وقررت ارساله هو وسلمى إلى مدرسة داخلية في سورية، تديرها السيدة التي تربت أمها في كنف عائلتها. اعترض زوجها لصغر سنهما، لكنها أصرت فوافق. أوصل الأبوان مقرن وسلمى إلى المدرسة. تبرر سلمى قرار والدتها:

- كان أصعب قرار اتخذته والدتي في حياتها، غصبت نفسها عليه ولم ترحم قلبها الضعيف خوفاً علينا.

25

تحت شمس الصيف اللاهبة يلهث البحر الأحمر مثل كلب ضخم. رطبت أنفاسه هواء شواطئ جدة، فضاق تنفس نشمية. مرض قلبها، وضاعف فراق ولديها من وطأة المرض. كانت تخلد للفراش، لإبطاء دقات قلبها، أو تجلس وعيونها شاخصة لسقف غرفة النوم، لعل نزيف الدم من أنفها ينقطع. استمر النزيف، فاستدعى زوجها طبيباً. اكتفى الطبيب الباكستاني بفحص خارجي، ووصف لها قطناً طبياً لتسد به منخاريها.

أيقنت نشمية بدنو منيتها، وستموت لو ظلت في الحجاز. صارحت زوجها بمخاوفها، فوافق على سفرها. أدرك بأن سكنى الزوجتين في بيت واحد فكرة سيئة، وسفرها سيضعها بالقرب من ولديها في لبنان، ولو رفض سفرها وماتت بسبب نقص الرعاية الطبية فسيكون هو المسؤول عن موتها. لن يكترث لو استغرب الناس وخاصة أقاربهم من سفرها لوحدها، وسيرد عليهم بأن مرضها عضال، ويتطلب علاجاً مستمراً في الخارج.

تحسنت صحة نشمية في لبنان، بفضل التئام شملها مع أبنائها والعلاج المنتظم والجو النقي.

سكنوا في شقة مستأجرة في رأس بيروت، غير بعيد من شارع الحمراء، ويومها لم يكن شارعاً يذكر، وسجلت أبناءها في مدرسة قريبة، وبعد أسابيع استأجرت عائلة الشقة المقابلة.

أول رد فعل لها عندما عرفت بأن جيرانها الجدد نجديون:

- لحقوا بنا إلى هنا.

لكن سجيتها الطيبة تغلبت على نفورها من الغرباء، وفي أول فرصة تعرفت على جارتها، وتوطدت العلاقة بين العائلتين. تردد الجارة النجدية بأنها محظوظة بمعرفة نشمية:

- كنت شابة صغيرة، من دون خبرة في الحياة، ولأول مرة أفارق أهلي، وابتعد عن والدتي، وكل شيء تقريباً أخافني، لذلك قضيت كل الوقت في الشقة، ثم تعرفت على والدتك.

لعائلة الجيران ولدان وبنت، في أعمار مقاربة لأبناء نشمية، ولديهم مربية ألمانية. وصفتها سلمى:

- كانت صارمة. عودتهم على نظام يومي ثابت، مثلما يروضون حيوانات السيرك، بحيث تكفي نظرة واحدة منها لكي يدركوا المطلوب منهم، ولا أحد يجرؤ على الاعتراض أو حتى المناقشة. عند موعد الوجبات تدق جرساً صغيراً فيتوقفون عن اللعب من دون تلكؤ أو تذمر، ثم يجلسون حول المائدة لتناول طعامهم في صمت، ولا تدعونا لمشاركتهم فنعود لشقتنا.

من سمع بحال نشمية أشفق عليها. ليس لديها ما تحسد عليه في معايير معظم البشر. كانت مريضة بالقلب منذ صغرها، وافتقر وتوفي والدها قبل أن تبلغ العشرين ولحقته والدتها بعد سنين قليلة، وتزوجت وهي مراهقة من رجل في أواسط عمره، واضطرت للعيش بعيدة عنه، ولكن من عرفها جيداً أعجب بها إلا إذا استهلك الحسد والغيرة كل عواطفه.

تعرفت الجارة النجدية على نشمية عن كثب، وأعجبت بها وأصبحت واحدة من أعز صديقاتها، وحتى اليوم لا تنسى أفضالها الكثيرة عليها:

- كنت أراقب أسلوبها في الحديث والابتسامة التي لا تفارق شفتيها، ورقة نبرات صوتها، ومعاملتها الحضارية للخدم، حتى طريقتها في مسك السكين والشوكة. كانت مدرسة متكاملة، وأنا التلميذة الوحيدة في صفوفها، وكنت محظوظة.

جاءت صديقتها النجدية وعائلتها من مصر مع زوجها الدبلوماسي. عمل في سفارة بلاده بالقاهرة ثم نقلوه إلى لبنان، وفيما بعد عرفت نشمية سبب نقله من صديق مصري، وكتمت السر عن الجميع ما عدا سلمى. بعد اكتشاف المخابرات المصرية علاقته بزوجة ضابط كبير اعتبرته الحكومة المصرية شخصاً غير مرغوب به، وتوسط له الأمراء الذي رافقهم في زياراتهم المتكررة لملاهي القاهرة لكتمان الفضيحة ونقله إلى سفارة بلادهم في لبنان. عرفت الزوجة وسكتت، وبعد شهور نقلوا زوجها إلى العراق، وتوجهت نشمية وابناؤها إلى مصر.

تكمل سلمى الرواية:

- اختارت والدتي الاسكندرية، لنا أقارب فيها. سجلتنا في المدارس، مقرن وعقاد في فكتوريا وأنا في مدرسة فرنسية، ثم عادت إلى جانب أبي في الحجاز.

في بيت الأقارب الكبير سكنت سيدتان وحفنة من أطفالهما وخادمات. الأولى أرملة مدير مشتريات الملك، والثانية مطلقة أمير. تعودت السيدتان على حياة مرفهة. كان الأمير وزوجته مراهقين عند زواجهما، وفي كل يوم تقريباً تشاجرا باللسان وأحياناً الأيدي، حتى ضجر الملك منهما فأمر ابنه بتطليقها. اشتهر مدير مشتريات الملك بإسرافه، وكلما حضر إلى القاهرة اصطحب زوجته وشلة من الأصدقاء والمرافقين لقضاء سهرة صاخبة في ملهى الأوبرج، وتفاخرت الأرملة بأن زوجها تفوق على كل رواد الملهى بما فيهم الملك فاروق في البذخ.

سجلت نشمية مقرن وعقاد في المدرسة الداخلية، وأسكنت سلمى في بيت الأقارب. في أول كل شهر استلمت الأرملة والمطلقة معاشاً سخياً من حكومتهما صرفا معظمها على شراء الطعام، وكانت مائدة الطعام محور الحياة اليومية في منزل القريبتين. وصفت سلمى صورة لها مع عائلة السيدتين:

- ابحث عن الشخص النحيل الوحيد في الصورة وستجدني. عاملوني بلطف، إلا واحدة من البنات. كرهتني لأني شاركتها في حنان والدتها وخالتها.

ثم حدث العدوان الثلاثي. عند سماعهم صفارات الإنذار يهرع سكان القصر إلى القبو، يطاردهم دوي انفجارات القنابل. أخافت الغارات الطفلة سلمى، وزاد من خوفها رعب أقاربها. اهتز البيت ومعه ذرات الغبار في فضاء القبو مع كل انفجار لكن شهية السيدتين وأبنائهما للطعام لم تنقص ذرة واحدة، ولم يتوقفوا عن تناول الطعام حتى اثناء الغارات، ثم صدر الأمر بإخلاء جميع رعايا بلادهم. أرسلوا طائرة لنقل الجميع، استقلتها سلمى عائدة إلى والديها في جدة، وسافر مقرن وعقاد إلى المدرسة الداخلية في لبنان.

لا يستقر الطلاب الكسالى والمشاغبون في مدرسة واحدة، إلا سلمى، لا هي مشاغبة ولا كسولة، ولكنها كانت طالبة مرتحلة. أجبرها مرض والدتها والحروب والأزمات السياسية في منطقتها على التنقل من مدرسة لأخرى، وذكريات عن مدارسها مثل تلك البطاقات المصورة التي يرسلها سائح حول العالم إلى ذويه وأصدقائه، لتؤكد لهم بأنه مر من هناك، وبعد العودة لا يبقى منها في الذاكرة سوى لقطات مشوشة

في جدة سجلت نشمية ابنتها في مدرسة أهلية. كانت أول مدرسة للبنات في الدولة، وباعتها مالكتها الفلسطينية فيما بعد لأميرة مجبرة لا مختارة كما أشاعوا. بعد أيام تفقدت نشمية ابنتها في المدرسة فوجدتها هي وزميلاتها يكنسان باحة المدرسة الترابية تحت أنظار مديرتها الفلسطينية البدينة، وكان آخر يوم لها في تلك المدرسة.

انتقلت من المدرسة في جدة إلى مدرسة الشويفات في جبل لبنان، ولم تمكث فيها طويلاً. سبقها عقاد إلى نفس المدرسة، وتظهر البطاقة المصورة التي تختزنها ذاكرتها عنها نافذة غرفة مكسورة في القسم الداخلي، واستعانت بأخيها عقاد لسدها بمنشفة يد لئلا يتسرب الثلج منها إلى فراشها في القسم الداخلي.

بعد شتاء قارس في مدرسة الشويفات انتقلت إلى مدرسة الساكري كور أو العائلة المقدسة في بيروت وبوساطة صديقات نشمية. صيفت نشمية وعائلتها في فندقهم الجبلي، وتوطدت عرى الصداقة بينهم، وبعدها اعتادوا على قضاء كل صيف تقريباً في الجناح الخاص بالفندق، وكلفة المنامة وكل الوجبات عشر ليرات في الغرف العادية واثنتي عشرة ليرة في الجناح الخاص، ولا تبعد المدرسة سوى دقائق سيراً من بيت مالكي الفندق الجبلي في الأشرفية. قالوا لهم ليس في المدرسة أماكن شاغرة، فوسط مالكو الفندق القس إينياس، ونجحت وساطته كما تروي سلمى:

- صحبني الاب إينياس إلى المدرسة، واستقبلته الراهبات بترحيب بالغ واحترام، ونفذن طلبه من دون تردد.

حضرت سلمى القداس الصباحي مع بقية الطالبات. وفي كنيسة المدرسة متسع للجميع، المسيحيات في الصفوف الأمامية، والمسلمات في الخلف، ولقداس الأحد ملابس خاصة، اشترتها عائلات الطالبات. زارت نشمية إدارة المدرسة، لتطلب من الراهبات إعفاء ابنتها من حضور القداس. قلن لها بكل لطف:

- لا مانع لدينا، ولكن مع وجود كل الراهبات داخل الكنيسة فلن نستطيع مراقبة ابنتك وضمان سلامتها أثناء القداس. واستسلمت نشمية.

في القسم الداخلي للمدرسة قاعات كبيرة للنوم. وفي كل قاعة صفان من الاسرَّة للطالبات وفي وسطها مقصورة خاصة للراهبة المشرفة محاطة بستائر. في المساء تطفأ الأنوار، إيذاناً بموعد نوم الطالبات. وفي أول ليلة قضتها سلمى في القاعة ظلت مسهدة، ترنو إلى القمر من خلال فجوة في ستارة نافذة. اشتاقت لأهلها، وقالت لنفسها بحسرة: أهلي بعيدون بعد القمر. أضاء نور القمر خيال الراهبة من وراء ستائر مقصورتها، فارتاعت سلمى من منظر تغيير الراهبة لملابسها، وبعد الطبقة الرابعة من الملابس أخفت وجهها تحت غطاء السرير.

لم يدم بقاء سلمى في المدرسة الداخلية. اضطربت أوضاع لبنان، واشتعلت فيها حرب أهلية جديدة، أعادت سلمى إلى عائلتها في جدة، ومنها إلى مدرسة جديدة في القاهرة.

26

ساءت صحة نشمية في جدة، وأيقنت بأن بقاءها في المدينة سيعجل بموتها. عزمت على الرحيل نهائياً، واخبرت زوجها، فلم يعترض.

بعد امتلاء حقائب السفر تركت بقية أمتعتها للشحن وكلفت هاشم بالمهمة. اختار هاشم صناديق كبيرة. استوعبت كل منها ثلاجة تعمل بالغاز. استوردها زوج نشمية من أمريكا، وباعها في المدن والقرى التي لم تصلها الكهرباء بعد بأرباح طائلة. وضع هاشم فيها ملابس وسجادات أخته التي لم تسعها حقائبها، وأحكم إغلاقها بالأقفال الكبيرة.

في مصر استلمت صندوقاً واحداً منها فقط. بعد مغادرة نشمية حطموا الأقفال على الصناديق المتبقية، وتوزعوا ثيابها، وفرشوا سجاداتها، ولم يوقفهم زوجها. وفي صورة أحضرها بعد أشهر أثناء زيارة قصيرة لهم في القاهرة تعرفت على واحدة من سجاداتها.

لم تحزن نشمية على ملابسها وأثاثها، أو أنها حزنت وأخفت مشاعرها عن ابنتها، وهي لم تحسد أحداً على ملابس أنيقة أو سيارة ثمينة مثل بعض صديقاتها وقريباتها. ترجتها صديقتها زوجة الدبلوماسي شراء علبة ملبس بونبنيرة أثرية قديمة، ودارت على كل دكاكين التحف في القاهرة حتى عثرت على اثنتين. أرسلت لصديقتها أفضلهما، واحتفظت بالثانية لنفسها.

سافرت نشمية إلى القاهرة، واستأجرت شقة كبيرة في عمارة برج النيل، وسجلت سلمى في المدرسة، ولأول مرة من سنين لم تكن مدرسة داخلية. تعود سلمى إلى الشقة بعد نهاية الدوام وفي الأيام التي تأزمت فيها صحة نشمية تغيبت سلمى عن المدرسة أو غادرتها لتكون بجانبها.

أطلت شرفة شقتهم الجانبية على شقة فريد الأطرش، ومنها شاهدوا حفلاته وضيوفه من مشاهير الفنانين. كانت تسلية مجانية أفسدها يوماً زائر من عمرهم، أحضر معه مفرقعات وألعاباً نارية، ورمى ببعضها على شرفة شقة المطرب المعروف. انفجرت وتركت بقعاً سوداء قبيحة على بلاطها. اختبأت سلمى ومقرن وعقاد وضيفهم الصبي الثقيل، وانتظروا غضب المطرب العاطفي أو حتى شتائمه، لكنه فاجأهم من أسفل بعتاب رقيق:

- ليه يا حبايبي!

عادة ما تردف سلمى هذه الذكرى برواية، للمغني المشهور دور فيها أيضاً: كان فريد صديق ابن عمنا الثري. التقيا في لندن، وقررا السفر إلى مصر سوية بسيارة ابن العم حتى سواحل إيطاليا، ومن هناك بالباخرة إلى الإسكندرية. لا تنزل السيجارة من فم ابن العم. وعده فريد بالغناء طيلة الطريق لو امتنع عن التدخين، ورفض ابن العم.

زارتهم سيدات، أعجبن بالشقة، وبعد مغادرتهن لاحظت نشمية ثقباً بشكل عين بشرية وسط الزجاج الأمامي للشرفة. احتاروا في تفسيره، لأن الشقة في طابق علوي، وفي أعلى مبنى بالمنطقة، وربما في مصر كلها، وزجاج الشرفة سميك، يصعب كسره أو ثقبه، ولم يجدوا حجارة على جانبي الزجاج.

لا توجد في شقة نشمية خرزة زرقاء لطرد الحسد، ولا تتردد على المشعوذين أو تقرأ الأبراج في الجرائد، واشتداد مرضها والثقب في الشباك مصادفة. كانت صمامات قلبها منهكة أصلاً، ولا حاجة لعين حسود ليضطرب عملها.

قضت نشمية معظم الأيام في السرير. تكره الكسل، وليست من النوع الذي يترك للخادمات كل شؤون البيت، وخادمتهم الشابة نعيمة لا تتذمر، لكنها لا تريد قضاء البقية من عمرها في خدمة البيوت. كانت شابة في سن المراهقة، وجميلة إلى درجة تثير حسد سيدات البيوت، وتدفعهن إلى الامتناع عن تشغيلها، خوفاً على أزواجهن من الافتتان بها. طموح نعيمة كبير بقدر جمالها، وتحلم بزواج ينقذها من عملها، أو كما تتمنى

خادمة أخرى: مائة ألف جنيه وفيلا في محرم بيه وعريس غني وسيارة شفروليه، وفي ذلك الوقت كانت المائة ألف جنية ثروة، تكفيك طول العمر، ومحرم بيه أرقى أحياء الإسكندرية.

أغرم الأستاذ هيج بالخادمة الشابة. هيج موظف صغير في السفارة البريطانية. دفع معظم راتبه القليل أجرة شقته الصغيرة فوق سطح بناية بالزمالك، والغرف في أسطح المباني القديمة في القاهرة مخصصة غالباً لسكنى الخدم. أجبرته الحاجة لدخل إضافي للبحث عن عمل إضافي بعد انتهاء الدوام في السفارة، واستعانت نشمية بخدماته في تعليم أولادها اللغة الإنكليزية. حضر يومياً لإعطائهم الدروس، وشرب الأستاذ الإنكليزي كوب الشاي من يدي نعيمة، ودعوه في بعض الأمسيات لتناول العشاء معهم. في كل زيارة اختلس الخمسيني هيج النظر إلى نعيمة الأصغر منه بأكثر من ثلاثين سنة، وكانت تكثر من المرور أمامه، وتتصنع عدم الاكترات بنظراته، لكنها تدرك تأثير جمالها على الرجال، وتزهو بإعجاب الأجنبي بها.

لم يكن للخادمة الأخرى زينب نفس التأثير على الأستاذ هيج. قبلت بها نشمية لاجئة في بيتها، بعد أن ترجتها أم صادق فقبلت، ونشمية لا ترد طلباً لأم صادق المصرية. تعرفت عليها من خلال أقاربها في الاسكندرية، وعاملتها مثل والدة أو خالة عزيزة. أم صادق فقيرة تسترزق من مصاحبة سيدات المجتمع، وأوصلتها الحاجة يوماً إلى أخت الملك. من شاهد الأميرة وصفها بأنها توأم أخيها في الطول والملامح، وقيل بأنها الأحب إلى قلبه من بين أفراد عائلته. اتصلت أم صادق يوماً لتقول لنشمية بأنها بانتظار رخصة من الأميرة لتزورها، وفي نفس اليوم توجهت نشمية إلى بيت أخت الملك. عند الباب افترضوا بأنها حضرت للسلام عليها، وفاجأتهم بأنها تريد زيارة أم صادق. وصفت سلمى مشهد الزيارة: جلست والدتي بجانب أم صادق وبعد قليل دخلت أخت الملك واختارت مقعداً لها في آخر الصالة. قالت لها والدتي بأن أم صادق في مقام والدتها وقد جاءت لاصطحابها فلم تعترض الأميرة.

انقذت نشمية أم صادق من كارثة. تورطت ابنتها في علاقة غرامية بشاب، وغرر بها فحملت منه، وأرادت أم صادق ستر الفضيحة، وخافت من عواقبها، فلو عرف أخوها فسيذبحها. أم صادق مصرية ولم تجد في بلدها غير الغريبة نشمية لتساعدها في أخطر أزمة تمر بعائلتها. اتصلت نشمية بطبيب مصري، تعرفت عليه بواسطة عائلة صديقة، واشتهر ببراعته في الطب ومساعدته للمرضى الفقراء. استمع الطبيب لقصة ابنة أم صادق، ووعد بالمساعدة. بعد سنين تزوجت ابنة أم صادق من الأخ الأكبر للشاب الذي خدعها.

لزينب قصة عاطفية محزنة. هي أيضاً خذلها شاب، خطبها ثم تعرف على صديقتها، وأعجبته الصديقة فتزوج منها. كانت زينب مدبرة بيت عند أثرياء، وبسبب صدمتها العاطفية تركت عملها وانزوت في غرفتها. ترجت أم صادق من نشمية استضافة زينب فقبلت وتنازلت سلمى عن غرفتها لزينب. قضت زينب معظم أوقات النهار داخل الغرفة المقفلة. عاملوها كضيفة مكرمة، وكانت تأكل وتبكي وتنام، وبعد أسابيع توقفت عن البكاء، وخرجت من الغرفة لتخبرهم باستعدادها للعمل في بيت نشمية، ولو بصفة خادمة لا مدبرة بيت، وقبلت نشمية.

عرض الإنجليزي هيج على نشمية تعليم خادمتها نعيمه اللغة الفرنسية من دون مقابل، ووافقت نشمية، لأنها تتمنى لخادمتها مستقبلاً أفضل من الخدمة في البيوت، وتعلمها الفرنسية قد يكون مفتاح خروجها من أبواب الناس إلى بيتها الخاص. في عيد الميلاد دعاهم إلى حضور حفلة عيد الميلاد، وقال لهم لو لن يحضروا فسيحتفل لوحده، فأرسلت نشمية أبناءها بصحبة الخادمتين. بعدها حضر هيج ليصارح نشمية بحبه لنعيمه:

- انا أحترمك لأنك عاملتني باحترام، وفي بيتك كنت أتناول الوجبة الساخنة الوحيدة في بعض الأيام لذلك لن أقدم على خطوة من وراءك، أنا أحب خادمتك نعيمة وأريد الزواج منها لنسافر سوية إلى إنجلترا.

بهذه الكلمات أعلن الأستاذ هيج عزمه على التقدم للزواج من نعيمة، وبعد سماعه رفض الخادمة ودعهم بقلب منكسر.

يدعي مقرن أن أباه أراد شراء الشقة لنشمية لكنها رفضت. كرهت نشمية الشقة لأنها قضت كل الأيام فيها طريحة الفراش، لكن زوجها لم يعرض شراءها، وتجزم سلمى بذلك، لكنها اقترحت عليه شراء قصر فخم، في شارع الكامل محمد بالزمالك، وبسعر زهيد في وقتها، فرفض فكان من نصيب السفارة الكندية.

تركت نشمية وعائلتها الشقة الفخمة وانتقلا إلى شقة في الزمالك. لاحقها المرض، وتكررت أزمات قلبها، وفي كل مرة تهرع سلمى إلى جانبها. مقرن وعقاد يحضران في أيام العطلة الأسبوعية. يختلي عقاد بمجلاته المصورة، ويفتعل المراهق مقرن المتاعب لوالدته غير مكترث بسوء حالتها الصحية. نصحه عقاد:

- لا تغضب والدتنا فهي تشتري لنا اللعب والملابس الجديدة.

وحدها سلمى أحبت والدتها من دون انتظار مقابل.

شقاوة مقرن المزمنة ومزاج عقاد المتقلب سببان إضافيان لشقاء والدتهما. صاحب مقرن ثلة من الأبناء المدللين لأثرياء من نجد والحجاز ومصر اشتروا لهم السيارات السريعة والملابس الفاخرة. أكلت الغيرة نفس مقرن، وبعد رفضها شراء سيارة له أسوة بزملائه غضب عليها:

- هي فلوس أبي لا فلوسك!

ثم صفق الباب وراءه واختفي، وقضت نشمية النهار كله في البحث عنه. في المساء اتصل أحد أصدقائه ليطمئنها بأنه بخير وفي القسم الداخلي لمدرسته. لامه أصدقاؤه المدللون على معاملته غير المهذبة لوالدته. زاروه في البيت من قبل، وشهدوا طيبة قلبها وسخائها، وتمنوا لو كانت أمهاتهم مثقفات مثلها، وفي اليوم التالي أقنعوه بالعودة للبيت والاعتذار لها.

تحملت نشمية متاعب تربية مقرن، ورفضت اختيار الطريق الأيسر، ولم تشتري له سيارة مثل أصدقائه أبناء الأثرياء، ولم تدفع له مصروفاً أكبر. كانت تدفع له مصروفه ومصروف عقاد. يسلم أخيه القليل، ويقول له هذا من عندي. استشهدت سلمى بمأساة عائلة صديقتها في دفاعها عن أسلوب تربية والدتها لهم:

- هل كان يتوقع من أمي أن تفعل مثل عائلة صديقتي المصرية؟ سكن الأب الثري في بيت كبير وسط مزارعه وبساتينه، واستأجر لزوجته وأبنائهما الأربعة شقة في مصر الجديدة. تردد عليهم أسبوعياً محملاً بالبط والوز والدجاج وثمار المانجو والفطير المشلتت والعسل، ولم يرد لهم طلباً. أفسد الزوجة بالدلال الزائد. كانت تتمارض وتتناول الحبوب المهدئة بإسراف، حتى أدمنت عليها. سافر أكبر أبنائهما إلى ألمانيا الغربية للدراسة، ورجع بزوجة ألمانية بدلاً من الشهادة. كان قبل السفر يقود دراجته النارية بتهور، وعاد ليقود سيارته السريعة بطيش. دهس جامع قمامة فتوفي الرجل الفقير وأصيب الابن بجروح بليغة. ترك الأب ابنه طريح الفراش في المستشفى وذهب لأقارب القتيل في الريف ليضع نفسه وثروته تحت تصرفهم. قبلوا بتعويض مالي وتعهد بالصرف على عائلته طيلة حياته، وبعدها بفترة قصيرة توفي الابن في حادث سيارة، أما الابن الثاني فقد وجد مهدئات أمه في متناول يده، فأدمن عليها هو الآخر، ومات في منتصف العمر بسببها. والابن الثالث فشل في الدراسة أيضاً، وباع قشرة أرض والده الزراعية لمقاولي البناء بثمن بخس. ولم ينجو من حطام العائلة سوى صديقتي. لذلك رفضت والدتي الرضوخ لطلبات مقرن.

27

انتهى الفصل الدراسي وبدأت عطلة الصيف، وفاجأتهم نشمية بعزمها على السفر إلى أوروبا، للسياحة والثقافة. قرأت الكثير عن تلك البلدان، ولن تجد صعوبة في التخاطب مع سكانها، وفي طفولتها تعلمت الإيطالية، ولم تنسها تماماً، وفي الثانوية تفوقت في الإنكليزية والفرنسية، وما زالت تتحدث بهما بطلاقة تحسدها عليها الجامعيات. تحمس أبناء نشمية، أما صديقاتها فقد تعجبن من جرأتها، لو كانت واحدة منهن مريضة بالقلب مثلها لما فكرت برحلة بالسيارة إلى بلاد غريبة من دون زوجها ومع ثلاثة أبناء مراهقين.

اشترت نشمية أطعمة للسفر، معلبات وأجبان لا تفسد من دون تبريد، أفضل وأرخص من أكل المطاعم.

سافروا بالسيارة إلى الإسكندرية، تصفها سلمى بأنها أمريكية كبيرة:

- كلما توقفت السيارة بجانب حافلة ركاب عمومية أشعر بالحرج. النساء محشورات داخل الحافلة المكتظة، والرجال والأطفال متعلقون بالباب، اشعر بنظراتهم تتفحصنا داخل السيارة الفرهة، ومن حقهم أن يحسدونا أو حتى يكرهونا.

في الإسكندرية صعدوا إلى السفينة مع سيارتهم، متوجهين إلى إيطاليا، كانت أول مرة تسافر عائلة نشمية سوية، وأول رحلة لهم في سفينة، وكان البحر المتوسط هادئاً فلم يصابوا بالدوار، وتجولوا في السفينة حتى موعد النوم. وفي البندقية أنزلوا سيارتهم من السفينة وبعد إيداع حقائبهم في الفندق خرجوا لاستكشاف المدينة، ولم تمض ساعات حتى استيقظت مزاجية عقاد، رأى شيئاً ما في واجهة دكان، فطلب من والدته شراءه، رفضت فأصر، ثم تركهم واختفى داخل أزقة المدينة المتشابكة. لم تأخذني شجرة العائلة لرؤية المشهد. اعتمدت على وصف سلمى، وتصورت مقرن لحظة ابتعاد عقاد. اكتفى بالتفرج ولم يلحق به.

اضطرب عمل صمامات قلب نشمية وتسارعت دقاته، وازداد احتمال اصابتها بإغماء مفاجئ أو حتى نوبة قلبية. أدركت سلمى حال والدتها ولو لم تشتكي. حدث ذلك من قبل وكانت هي وحدها حاضرة لإعطائها الدواء والاتصال بالإسعاف. مقرن غاضب من أخيه المتمرد لكن لم يخطر بباله بأن عقاد قلده، فهو أيضاً زعل من أمه في القاهرة وترك الشقة لأنها لم تشتري له سيارة.

سلمى واجمة، تنقل أنظارها بين وجه والدتها وجموع السواح، وتأمل برؤية وجه عقاد خارجاً من بين الزحام قبل أن يزداد انفعال والدتها فتمرض.

عذبت الاحتمالات الأم، لو ضاع عقاد ولم تعثر عليه فماذا ستقول لأبيه؟ ثم تستعيذ بالله من الافكار الشيطانية. لو لم يجد طريقه إلى الفندق لوحده فستذهب إلى الشرطة، وسيجدونه. خوفها على عقاد أقوى من استيائها من مزاجيته، فلا تطيق التفكير بالعقاب المناسب له بعد عودته، ولو وبخته فقد يكررها.

عمر عقاد في البندقية عشر سنوات، ولأن أمه رفضت تلبية طلبه عاقبها بالهجران، ولو كانوا في القاهرة لربما اكتفى بالانزواء في غرفته، وإيصاد بابها خلفه، والامتناع عن تناول الطعام، وقضاء الساعات في قراءة مجلاته المصورة وقصص أرسين لوبين وطرزان، لكن في البندقية تاه على وجهه. هرب عقاد ليعذب أمه، غير مبال بالنتائج، ويعرف جيداً الألآم التي يسببها له، وهو بالضبط ما يريده، وكل من أزعجه استحق انتقامه. وحتى في الستين من عمره لم تتغير مزاجيته. كبر جسده لكن شخصيته تجمدت عند النقطة التي وقفت عليها في البندقية، وانطبق عليه وصف الآنسة الإنكليزية للعرب بأنهم أطفال في أجساد رجال، وما يزال ينقم على كل من يرفض طلباً له، وكل الناس ظالمون أو جاحدون إن لم يمتثلوا لمشيئته ويتفقوا مع أفكاره، ولا بد من الانتقام منهم.

بالصدفة عثرت على عقاد عائلة مصرية تعرفوا عليهم في السفينة. وجدوه ضائعاً في أحد شوارع المدينة، يرتجف من الخوف، وأعادوه إلى نشمية.

كان هروب عقاد أول محاولات الذكور في عائلة نشمية تنغيص رحلتها إلى أوروبا.

بعد البندقية انتقلوا بالسيارة إلى مدينة إنسبورك النمساوية، واستأجروا فيها شقة من سيدة نمساوية مسنة، تسكن هي وزوجها في شقة بالطابق الأسفل.

زارتهم مالكة الشقة كل يوم تقريباً، لتتفقد شقتها، وتتأكد بأن الأغراب القادمين من الصحراء لم يحطموا محتوياتها. حذرتهم بأن قطع الأثاث والتحف في شقتها موروثة من عائلتها وعائلة زوجها. وقفت وسط الشقة وألقت نظرة فاحصة على مقاعدها وسجادها ثم خاطبت نشمية:

- لماذا تقضون معظم أوقاتكم في الشقة؟

وقبل سماعها جواب نشمية على سؤالها غير المهذب أكملت:

- اخرجوا من الشقة! اذهبوا إلى الجبل! كل السواح يقصدونه، للمشي في دروبه الجميلة، وتأمل مناظر الطبيعة.

وردت نشمية:

- أنا مريضة بالقلب ويمنعني الطبيب من تسلق المناطق المرتفعة.

وبعد جولة تفتيش سريعة عادت لتجد نشمية في المطبخ تعد الطعام لأبنائها. راقبتها وهي تقشر الخيار والطماطم ثم سألتها:

- ماذا ستفعلين بهذه القشور؟ وقبل أن تجيبها أضافت:

- لا ترمي القشور في القمامة! أريدها لإعداد حساء لزوجي.

هزت نشمية رأسها بالموافقة، وربما فكرت بدعوة العجوز وزوجها لتناول الطعام معهم، ومن الصعب عليها أن لا تفكر بحالة البشر، حتى الغرباء، وما تجره عليهم اختياراتهم الخاطئة ونزواتهم من مصائب. بعد خمسة عشر عاماً من انتهاء الحرب العالمية الثانية ما زال النمساويون يأكلون القشور، حتى العجوزين مستوري الحال، ولديهما شقتان.

عادت العجوز للثرثرة:

- لا تقضوا كل أوقاتكم في الشقة. أخشى على سجادها من التلف. أولادك يلعبون طيلة الوقت داخل الشقة. وأسمع دبيبهم من شقتي في الأسفل.

ابتسمت نشمية، ولم تناقش المرأة العجوز، وتحملت أطوارها الغريبة بصبر، وبالها منشغل بما هو أهم. وعدها زوجها باللحاق بهم في أوروبا، وكان من المفترض أن يكون قد حضر. اتصل بالأمس ليقول بأنه سيتأخر. شعرت نشمية بأنها زوجة مهجورة، ولا تستحق هذه المعاملة والإهمال من زوجها.

بعد أيام أيست نشمية من حضور زوجها فغادروا إنسبورك إلى مصيف جبلي.

في البندقية هرب عقاد ليعكر أجواء رحلتهم، وفي النمسا أخلف زوجها بوعده لها.

وصلوا في المساء إلى مدينة صغيرة، اسمها كرومبندورف، لقضاء ما تبقى من أيام عطلتهم. دارت نشمية على فنادق المدينة، فلم تجد غرفة واحدة خالية، ودلهم موظف الاستقبال في أحد الفنادق على عائلة تؤجر غرفاً في بيتها.

وافقت العائلة على تأجير نشمية وعائلتها جانباً من منزلهم. تخلوا عن غرف النوم في الطابق الأول لنشمية وعائلتها، وتحولوا إلى النوم في العلية، وتقاسموا معهم غرف المعيشة والمطبخ في الطابق الأرضي. ربض المنزل الأنيق على سفح تلة مطلة على بحيرة صغيرة. أخفى منظره الخارجي الرقيق هيكلاً قوياً قاسى عواصف ثلجية وبرد قارس لعقود من السنين. نشمية مثل ذلك البيت الجبلي، من يرى عودها النحيل وملامحها الرقيقة لا يظن أن وراء تلك الواجهة العادية امرأة قوية الشخصية.

قبل أن يتعودوا على نطق اسم المدينة سارعوا إلى لقاء صديقة نشمية النجدية التي تعرفت عليها في بيروت. تعودت هي وعائلتها على التصييف في المنطقة. استقبلوهم في محطة القطار، وعند وصول القطار ناولت النجدية نشمية مولودتها الجديدة من نافذة القطار، ورأته سلمى دليلاً على رابطة الصداقة القوية بينهما.

استأجرت عائلة النجدية بيتاً أقرب للبحيرة، وقضت نشمية وصديقتها أوقاتاً ممتعة سوية، أنست نشمية إخلاف زوجها لوعده. دعت نشمية لمرافقتها إلى يوغسلافيا لحضور خطبة سيلقيها زوجها الدبلوماسي في

مؤتمر دولي بدلاً من وزير الخارجية الذي أصيب بوعكة صحية مفاجئة. ولم تكن آخر مرة ينوب فيها الدبلوماسي عن الوزير، وفي المرة الثانية مثّل حكومة بلاده في اجتماع للأمم المتحدة لأن الوزير كان مخموراً.

أصرت النجدية على نشمية، فوافقت على السفر معهما. استقبلوهم بموكب رسمي، وركبت نشمية وصديقتها مع زوجة تيتو في سيارة ليموزين وسط موكب من الدراجات البخارية. سألت اليوغسلافية النجدية عن رأيها ببلادها فأجابتها بعفوية:

- تذكرني بمصر.

كان ذلك في نظرها أعظم مديح لمدينة، ولدت وترعرعت في القاهرة، وتحن إليها على الدوام، ولا يوجد في رأيها بلداً أجمل منها. كلام النجدية عفوي صادر عن القلب، ولا مكان للقلب في دنيا الدبلوماسية، لذلك لم يرق كلامها للسيدة الأولى اليوغسلافية. سكتت لكن ملامح وجهها وشت بامتعاضها من التشبيه.

بعد عودتهم اتصل نوفل من أمريكا بشقيقته نشمية. توقعت سماع خبر نجاحه في الامتحانات وحصوله على الشهادة في العلوم السياسية، لكنه أخبرها بأن موعد عودته قد تأجل، وسبب اتصاله هو فتاة أمريكية تعرف عليها في الجامعة، أكبر منه بسنين، ومتخرجة بشهادة عليا، وينوي الزواج بها، ويهمه رأي أخته. وافقت نشمية على استضافة الفتاة في النمسا واصطحابها إلى مصر حيث ستنتظر هناك قدوم نوفل ليتزوجا.

حضرت الأمريكية بعد أيام. اسمها أنيتا، أحد والديها سويدي، وكل السويديات جميلات تعميم لا ينطبق دائماً على الواقع، إلا في حالة أنيتا، فقد كانت رائعة الجمال. تتذكر سلمى أوصافها بدقة:

- كانت شقراء، طويلة القامة ورشيقة، وعيناها زرقاوان، أي باختصار أجمل من الدمية باربي.

أخبرتهم بأنها اشتغلت عارضة أزياء، قبل عودتها لإكمال الدراسة، وتهوى الفن والرسم، وتتكلم الفرنسية بطلاقة. ارادت السباحة في البحيرة، فارتدت لباس سباحة من قطعتين، لم يخفي غير أقل القليل من جسمها، وتابعتها عيون السواح عند البحيرة. اعتذرت لنشمية:

- إمكانياتي محدودة ولم أجد لباس سباحة أرخص منه.

تقول سلمى: كانت صحبة أنيتا ممتعة. رافقتنا في كل مكان. علمت عقاد رقصة الفالس. اكلت معنا نباتاً برياً يشبه اللوبياء، وفي المساء اشتكت من مغص شديد في معدتها. استدعينا الإسعاف لنقلها إلى طوارئ المستشفى في المدينة، وصعد معها مقرن، ولحقت بهم نشمية بسيارتها. تبين بأنها أصيبت بتسمم، وقضت ليلة في المستشفى.

قبل موعد سفرتهم إلى القاهرة بأيام تبلغوا بخبر فشل مقرن في مادتين، ولو كانت ثلاث مواد لاضطر لإعادة السنة الدراسية. وعدتهم والدتهم بمكافأة كبيرة لو نجحوا، كانت السفرة هي المكافأة، وحصل مقرن عليها من دون نجاح. اشترت نشمية تذكرة طائرة لمقرن ليسبقهم إلى القاهرة، وكانت تلك الصفعة الثالثة من الذكور الخمسة في حياة نشمية.

اتصلت نشمية بالشركة الملاحية، لتحجز مقعد مقرن لأنيتا في رحلة العودة، فأخبروها بضرورة الحصول على تأشيرة سفر لها. لم تكن أنيتا موجودة في الفندق لتسألها نشمية وافترضت بأنها ستفرح لو عادت لتجد تأشيرة سفرها إلى مصر جاهزة. سافرت نشمية إلى العاصمة، وفي السفارة المصرية احتفظوا بجواز سفر أنيتا، ووعدوا بإعادته بالبريد بعد ختم التأشيرة عليه. عادت نشمية إلى كرومبندورف لتجد أنيتا بانتظارها، وعندما سمعت الأمريكية بأن جواز سفرها لدى المصريين اغتاظت لأنها كما ادعت بحاجة لجواز سفرها لتزور صديقة لها ساكنة في بلد مجاور قبل السفر معهم إلى مصر.

احتارت نشمية في تفسير سلوك أنيتا. لا تمنح سفارات كثير من الدول التأشيرات في نفس اليوم، وحاولت طمأنة أنيتا بأن جواز سفرها سيعود لها بعد أيام، لكنها أصرت على استرجاع جوازها بنفسها، واللحاق بهم في البندقية.

خرجت أنيتا لتخبر صديقتها بتعذر حضورها في الموعد المتفق عليه، وانقطع الاتصال الهاتفي، فاضطرت للاستعانة بمالك البيت. وبعد مغادرتها إلى العاصمة لاستعادة جواز سفرها زارهم مالك البيت ليخبر نشمية:

- قالت لك بأنها ستتصل بصديقتها، وسمعت جانباً من المكالمة، كان رجلاً وليس امرأة.

ولم تنسى سلمى الكلمات الألمانية التي استعملها الرجل حتى اليوم.

صدقته نشمية، فلا مبرر لديه للكذب عليها.

حزموا حقائبهم، وتوجهوا إلى البندقية، وقبل أن يستقلوا الباخرة حضرت أنيتا. استقبلتها نشمية ببرود، ونادراً ما كانت ترى سلمى من والدتها هذا البرود والمعاملة الجافة. قالت لأنيتا بانها لن ترافقهم إلى مصر، وبكت أنيتا بحرقة رق لها قلب سلمى، وكادت أن تترجى والدتها للسماح لخطيبة خالها بمرافقتهم. لم يتوقف بكاء أنيتا وهي تخاطب والدتها:

- أنت تكرهينني يا نشمية.

أجابتها بحدة:

- نعم!

كان موقفاً صعباً على نشمية، تطلب منها استجماع كل قواها العصبية. ليست القسوة من طبائعها، واضطرت لتصنعها مجبرة، لأنها اقتنعت بأن أنيتا مخادعة. لو لم تكذب عليها لربما سمحت لها بالسفر معهم. من قبل الكذبة كان لباس البحر الصغير جداً وذعرها من احتفاظ السفارة المصرية بجواز سفرها. أثار كل واحد منها تساؤلات في ذهن نشمية، وتجمعت لتولد شكاً، وتحول إلى اقتناع بعد الكذبة.

أبلغت نشمية أخيها بقرارها. تكره إيلام أحد، اقتنعت بأنه ضروري، ولم يحتج نوفل. ما بدأه عقاد بهروبه وثنى عليه زوجها بإخلاف وعده باللحاق بهم في أوروبا وزاد عليه مقرن بفشله في الامتحان أكمله نوفل بأنيتا المخادعة.

في القاهرة روت الحادثة لطبيبها المصري. قال لها:

- لو سمحت لها بمرافقتك لقلت عنك بأنك مجنونة.

أخبرها بأنه هو الآخر أراد التزوج من إنكليزية اثناء دراسة التخصص في إنكلترا، واستأذن جده الذي رباه بعد وفاة والديه. لم يغضب الجد أو يهدده بالحرمان من الميراث، بل أجابه برسالة هادئة، وأقنعه بالعدول عن الفكرة، ولم يندم على قراره أبداً.

كانت زيارة أنيتا لهم في الشتاء مفاجأة. أخبرتهم بأنها تعمل في شركة سياحية مصرية. حضرت أنيتا بملابس صيفية خفيفة. أشفقت نشمية عليها، وقدمت لها بعض ملابسها الشتوية، بينها معطف صوفي ثقيل، تقبلتها أنيتا وانصرفت، ولم نشاهدها بعد ذلك.

بعد شهور أخبر الطبيب المصري نشمية بأن المخابرات المصرية أغلقت الشركة السياحية التي عملت بها أنيتا وسفرت موظفيها الأجانب. كانت الشركة وكراً للجواسيس الأمريكيين، وأنيتا واحدة منهم. من قبل سماعها الخبر تعجبت نشمية من تهافت أنيتا الجميلة على شقيقها، تحبه لكنها لا تراه جديراً بالأمريكية الفاتنة، وكانت متفوقة عليه في كل المضامير عندما قبلت بالزواج منه.

علقت صديقة سلمى على موضوع أنيتا:

- لو تزوجها لركبت له دزينة من القرون وكل الموظفات الأجنبيات في شركات النفط في دول الصحراء جاسوسات.

في مصر تعرفت سلمى على صديقتها. انتقلت الصديقة مع عائلتها من الحجاز إلى القاهرة بعد إحالة أبيها الضابط الحجازي لرفضه قبول عمولة في صفقة أسلحة.

بعدها بزمن دار حديث بين نشمية ونوفل حول أنيتا. لم يدافع عن صديقته السابقة، وأقرّ بأنها بالفعل جاسوسة، قال لها:

- كانت تجري اتصالا برئيسها في الوكالة لذلك كذبت عليك.

بعد سنوات أغرم نوفل بسكرتيرته الإنكليزية، ما بين غرامه بالجاسوسة أنيتا والسكرتيرة الإنكليزية أكثر من عشرة أعوام، ولا مجال للمقارنة بينهما في الجمال. صارح نوفل أخته برغبته في الزواج منها، وجاءه ردها سريعاً: لن أوافق أبداً، ولم يناقشها نوفل.

عرف هاشم برفض نشمية زواج شقيقهما من السكرتيرة فاتصل بها معاتباً:

- لماذا تقفين دائماً في طريق زواج أخينا نوفل؟

أغلقت نشمية الهاتف، وأتصل بها فيما بعد ليعتذر.

أيست الإنكليزية، استقالت من عملها مع نوفل، وانتقلت إلى بلد مجاور.

الذكور في حياة نشمية خمسة، اخوان وزوج وإبنان، بعدد أصابع اليد الواحدة، ودفعتها اليد خطوة خطوة إلى داخل قبرها.

28

تعلمت صديقة سلمى المصرية من مآسي عائلتها. عاشوا أسارى المظاهر الزائفة، حتى فاجأتهم البواطن المرعبة، ولم يتخلصوا منها إلا بالموت. اختبأ إدمان والدتها خلف تمارضها، وغطت عنتريات شقيقها الأكبر على فساده، وسكتوا على خزعبلات الشقيق الاخر حتى وجدوه جثة هامدة بجرعة زائدة من أدوية والدته المهدئة للأعصاب. قالت لسلمى يوماً:

- ألا تلاحظين بأن والدتك تمرض كلما زاركم الوالد؟

استعرضت سلمى الأشرطة المصورة المخزونة في عقلها عن زيارات والدها السنوية، وتأكدت من صحة تحليل صديقتها.

قبل وصول الأب يبلغهم بموعد وصوله، ويبدأ قلب نشمية بالاستعداد للزيارة، ولا يعرف سوى استجابة واحدة وهي المرض. زيارة الأب مصدر لأكثر من امتعاضها، إذ تذكرها بشبابها الضائع، وتنبش في ذاكرتها وعوده الكاذبة. الامتعاض وحده مضر بصحتها، فما بالك بالاستياء أو الغضب؟ تتخلخل صمامات قلبها، وتضطرب نبضاته، ثم يسحب الأرض من تحت قدميها، فتسقط في إغماءه.

كان لا يحضر كله، يترك عقله وقلبه وراءه، ويأتي ليأكل ويشرب ويمثل دور الزوج والأب.

تصف سلمى زيارات أبيها:

- يرانا مرة واحدة كل عام ولأسابيع قليلة، وينشغل بغيرنا بقية الوقت.

احتارت نشمية في تسلية زوجها الزائر. أعدت له أشهى المأكولات، وجالت به على المعالم السياحية، وأقنعت أبناءهما بالذهاب معه لرؤية الأفلام السينمائية التي يحبها. في إحدى الجولات مرت بجانبهما سيارة، خرج من نافذتها وجه ضاحك مألوف، فرددوا: إنه إسماعيل ياسين. دعاهم الممثل الفكاهي لحضور مسرحية له، وتحمست نشمية لكن زوجها رفض. وفي يوم آخر ذهب معها لشراء الفول من مطعم التابعي والدمياطي المشهور فشاهدا الراقصة تحية كاريوكا، وهي الأخرى صاحبة مسرح، ودعتهم لحضور مسرحيتها، لكن زوج نشمية غير مكترث. وتمنت نشمية لو يحب سماع أغاني أم كلثوم وحضور حفلاتها مثلها. تعرفت نشمية على كوكب الشرق صدفة، التقيتا في عيادة صديقهم الطبيب المصري. لا يذهب الطبيب لعيادة المطربة في بيتها فتضطر للذهاب إلى عيادته مثل كل المرضى. ولا تنسى نشمية ما قالته لها: الله يحميك لشبابك، وبعدها حضرت مأدبة أقامتها سيدات كويتيات من أقارب نشمية للمطربة. قريبات نشمية حفيدات الشيخ الذي اغتاله مبارك. بعد نصف قرن من التغرب عاد الأحفاد لبلادهم، والحفيدات معجبات بأم كلثوم مثل نشمية، وحضرن يومها محملات بمجوهرات ثمينة مهداة إلى أم كلثوم، وأثناء المأدبة أسمعتهم أم كلثوم أغانيها المسجلة على أسطوانات وهي تردد: الله يا سومة!

حضر زوج نشمية في كل مرة من دون قلبه. تركه وراءه في جدة حيث أبناؤه الصغار، وكل ما تتمناه حصة صغيرة من قلبه، لا لنفسها بل لأبنائهما.

سهر نشمية كل ليلة، بينما غط زوجها في النوم في غرفة الضيف المجاورة. مرض نشمية فرض عليهما ذلك. وصف لها الأطباء حبة دواء الكويندين كل ست ساعات، واضطر للسهر كل ليلة من أجل حبة منتصف الليل. غالبت النعاس بالقراءة، وعلى المنضدة القريبة من سريرها كدس من المجلات الإنكليزية والفرنسية، يتجدد يومياً، والقراءة لا تملأ ساعات اليقظة القسرية فحسب بل تبعد الأفكار المنكدة التي تأتي مع كل زيارة. سمعت سلمى والدتها تردد:

- أدعو بالرحمة لوالدي كل ليلة لأنهما حرصا على تعليمي القراءة والكتابة. لولا القراءة لما استطعت الصبر على السهر كل ليلة.

لا يغادر زوج نشمية قبل أن يمثل دور المضحي المظلوم:

- أنا عندهم في جدة أسد وبينكم فأر.

احتارت سلمى في تفسير شكوى أبيها:

- عاملته والدتي مثل أي زوجة شرقية، وأوصتنا باحترامه، ولم نضجر من قصصه المعادة عن عائلته الأخرى في الحجاز. كان أبونا بالاسم فقط. تكفل بعلاج والدتي ومصروفنا وتكاليف دراستنا، وزارنا مرة أو مرتين في العام. في بقية العام تولت والدتي أعباء تربيتنا وأدى هو دور الأب لأيام. بصراحة لم يكن تمثيله للدور مقنعاً. كنت ما زلت طفلة اثناء إحدى زياراته السنوية واتذكر علبة كبيرة مع حقائبه. بعد غياب طويل عادة ما يجلب الآباء هدايا لأولادهم. كنت أعرف بأن الدمى لا تباع في بلادي إلا مقصوصة الرأس وأقصى أمنياتي لعبة صغيرة، ثم فتح العلبة وكانت الهدية تمور، ولا أحد منا يحبها. في كل سفرة جلب معه قائمة طلبات زوجته وأولاده وساعدته والدتي في شرائها بطيب خاطر. ولأنه أحب مشاهدة أفلام محمد عبد الوهاب طلبت أمي مني ومن عقاد الذهاب معه إلى السينما ولأسبوع بأكمله. عاملناه باحترام فلماذا وصف نفسه بالفأر؟ تعلمت من والدتي الجرأة والصراحة، ولم نتملقه بالتأكيد كما فعل غيرنا، وما كان يجب أن يتوقع منا أكثر من ذلك. إحساس أمي مرهف. شعرت باهتزاز مكانته بيننا، وحاولت جهدها لكي يستردها. أعطيك مثالاً: أرادت أمي تجديد خزانات المطبخ القديمة والمهترئة بخزانات من نوع أيديال مصنوعة محلياً. أقنعته بالذهاب معها إلى معرض الشركة، وأوصت على الخزائن، وأشركته في اختيار ألوانها. خمن الألوان التي اختارها؟ أحمر وأخضر، وسايرته أمي فلم تعترض. أما أنا فقد كنت صريحة. سألني عن رأيي بألوان الخزائن فأجبته بكلمة عامية مصرية واحدة: بلدي، ولم ينساها لي، وكانت صيغة سؤاله المتكررة عن رأيي في الأشياء: هل هي بلدي؟ أمي ذواقة، ولا يمكن أن تختار خزائن مطبخ حمراء وخضراء، لكنها كما قالت لي أرادت أن تكون له كلمة، فقبلت اختياره لألوان الخزائن، ولولا طيبتها لما كانت له كلمة. حاولت والدتي إقناعه بالتوكل عن الشركة المصرية المصنعة للخزائن لكنه رفض.

لا تنسى سلمى غضب والدتها لدى استلام الأب برقية من جدة. كان قد وعدها بالانتقال للسكنى معهم، وكذبته البرقية. وقفت نشمية في غرفة المعيشة أمام زوجها الجالس على أريكة الريش، واسمعته كلاماً لم يسمعه منها من قبل، وفي دقائق لخصت وقائع حياتها المريرة معه. اهتز بدنها وبقي هو جامداً، ولم يرد عليها بكلمة واحدة. بالعادة يكون انفعالها مجرد زوبعة صغيرة، وسرعان ما تهدأ وتغفر له، لكنها هذه المرة لم تهدأ، حتى خافت سلمى على قلب أمها المريض، لم تكتفي نشمية بالعتاب الشديد، نزعت خاتم الزواج من يدها وقذفت به من شرفة الغرفة المطلة على شارع 23 يوليو، وتركت الشقة.

طلب زوج نشمية منهم النزول إلى الشارع للبحث عن الخاتم الذهبي. قالوا له بأن لا جدوى من ذلك، فإن لم يلتقطه أحد المارة فسيكون قد ضاع بين أكوام التراب والقمامة المتناثرة أو في فتحة مجاري، ولو سقط على مار في الشارع فسيتألم ويلعن أصحاب الشقق ولكنه سيشكر ربه لو تبين أن القذيفة الصغيرة التي سقطت على يافوخه خاتم زواج ذهبي، يزيد ثمنه على دخله الشهري على الأغلب.

في المساء اتصلت نشمية لتخبرهم بأنها في الإسكندرية. بعد خروجها الغاضب ذهبت إلى شقة صديقة سورية، يعمل زوجها في مكتب المقاطعة التابع للجامعة العربية، وذهبا سوية إلى الاسكندرية.

عادت نشمية بعد أيام إلى شقتها في القاهرة، لتودع زوجها العائد إلى بلده، وتستقبل أخاها نوفل القادم من أمريكا في طريق العودة.

تخرج نوفل من الجامعة الأمريكية، بعد جهد ومشقة، وبفضل بعثة حكومية حصل عليها بوساطة ابن عمه، زوج نشمية. قارنت سلمى بين خاليها نوفل وهاشم:

- كان هاشم أقرب إلينا من نوفل. عندما مرضت أمنا في الحجاز اعتنى بنا هاشم الحريص على أداء دور الخال، كان ساكناً في البيت معنا، وربما هي الظروف التي قربتنا منه، والنتيجة لا نتذكر لنوفل أفضالاً علينا مثل هاشم. الفرق في العمر بين نوفل وبين أخي مقرن خمس سنوات، كلاهما أنانيان متغطرسان، لا يطيق أحدهما الآخر. اختلفا يوماً، وبصق نوفل على مقرن. تصرف غير مقبول من خال مع ابن اخته، ورد عليه مقرن بمثله.

أحبت نشمية شقيقيها، وضحت من أجلهما. تعرف نواقصهما، ولا تحكم عليهما، لكنها لا تفرط بمبادئها من أجل أحد، حتى لو كان أخاها الصغير نوفل، الذي توفي والده وعمره سنتان، واليتم درجات، ونوفل في أعلى درجة اليتم بين أولاد الربيبة.

لكن اليتم لم يشفع لنوفل عند نشمية.

تقبلّ نوفل رفض نشمية لصاحبته أنيتا، لأن نشمية كانت الطرف الأقوى في العلاقة، زواجها أنقذهم من وهدة الفقر في الشام، وزوجها دبر بعثته، وقد يحتاج لوساطته في إيجاد وظيفة مناسبة.

احتفت نشمية بأخيها العائد من أمريكا. عرفته على أصدقائها، ودعتهم للمشاركة في فرحها بشهادته الجامعية، وإن كانت تتمنى له أفضل من ذلك الإنجاز فقد كتمت أمنيتها، وحباً بها احتفى به الجميع، ومن بينهم صديقتها السورية زوجة الدبلوماسي الموظف في مكتب المقاطعة.

غادر نوفل بعد أسابيع قليلة للبحث عن عمل، وتوظف في شركة النفط. عينوه في وظيفة صغيرة، ووعدوه بترقية سريعة، لأنه من أهل البلد، واسكنوه في مبنى العزاب. تذكره فلسطيني شاركه في السكن. توزعوا بينهم مهام الطبخ والتنظيف. أكد نوفل لهم بأنه يجيد الطهي، وعندما حان دوره لطبخ دجاجة وضعها في الفرن بغلافها البلاستيكي.

بعد أشهر من مغادرته القاهرة عاد نوفل، رحبت نشمية بأخيها، وتخوفت من أن يكون قد ترك الوظيفة، فهو من طينة البدو، الذين لا يطيقون الاستقرار في مكان واحد أو نفس العمل، وهدأ قلقها بعد أن طمأنها على الوظيفة، ثم صارحها بسبب زيارته الثانية لها خلال أشهر.

بصيرة نشمية ثاقبة، فلا تنخدع بالمظاهر، وتحسن الظن بالناس، لكنها لا تفاجأ لو ثبت العكس، وكثيراً ما تأتيك أسوء المفاجآت من أقرب الناس إليك. تفترض بأنك تعرفهم جيداً، وبأنهم لن يخذلوك، ثم تأتي الصفعة من حيث لا تتوقعها، ويكون ألمها مضاعف، ولا تلتأم جراحها بسرعة.

أدركت نشمية بأنها ستموت يوماً بسبب قلبها، وهيأت نفسها لذلك. سيتوقف قلبها عن النبض فتموت، نتيجة انفعال زائد على الأرجح. تصورت المشهد مراراً بتفاصيله حتى تبخر الخوف منه، وقلة من البشر يجرؤون على ذلك، وما لم يكن في حسبانها أن تحدث الصدمة وتنفعل كما لم تنفعل من قبل في حياتها ثم لا تموت.

من أين يأتي الانسان بالجرأة والوقاحة ليطلب ما تجرأ شقيقها نوفل على طلبه منها؟

- قولي لزوج صاحبتك أن يطلق زوجته لكي أتزوجها فأنا أحبها.

لم تصفع نشمية أحداً في حياتها، ولا تعرف السباب، وأقصى استجاباتها للوقاحة الاغماء. لو كانت متعودة على صفع الناس لأسدت لأخيها صفعات متتالية، ولو كانت تستعمل السباب لشتمته بأقذع الشتائم، ويومها استحق نوفل الصفع والركل والشتم.

تنفعل سلمى كلما تذكرت سلوك خالها:

- تصور أن يذهب إلى شقيقته المرأة الفاضلة المتزوجة ليطلب منها ذلك؟ ماذا توقع منها؟ أن تذهب إلى الدبلوماسي زوج صديقتها لتقول له: أرجوك طلق زوجتك ليتزوجها شقيقي.

من الصعب على نشمية رفض أي طلب. رفضت طلب مقرن شراء سيارة خاصة له، لأنه طلب غير معقول في نظرها، ولم توافق على زواج نوفل من الجاسوسة أنيتا ولأكثر الأسباب إقناعاً، وتصورت أن يتعقل الذكور في عائلتها، فيكفون عن طلباتهم غير المعقولة، لذلك لم تتوقع طلب نوفل الوقح.

غضب نوفل من اخته، وكافأها بثلاثة أيام من الصمت ثم غادر عائداً إلى بلده.

29

بعد تخرج مقرن من الثانوية بصعوبة توسط والده ليبتعث للدراسة في أمريكا. وعلى عكس تمنيات والدته قبلته جامعة مغمورة، وفي مدينة يقصدها المقامرون والأزواج المتلهفون لطلاق سريع. أخفى نتائج الاختبارات الفصلية في الجامعة وأرسل لهم بدلها صوراً نشاطاته الاجتماعية. بعد عودته اكتشفوا بأنه طرد من البعثة قبل سنوات بعد اعتدائه بالضرب على موظف البعثات في أمريكا، ولدفع أقساط الجامعة اضطر للعمل في غسل السيارات في الصيف وجرف الثلوج من مداخل منازل الأمريكيين في الشتاء، ولو أن أحداً غيره مر بنفس التجربة لتعلم منها الكثير.

بدأ عقاد التحضير لدخول الجامعة، ولأن أفضل المدارس المناسبة في لبنان تركوا مصر واستقروا في لبنان. صارح والدته برغبته في دراسة الإخراج السينمائي، في حينها لم يبدأ بث التلفزيون في موطنه ولم تشيد دار عرض سينمائي فيها حتى اليوم، وأمام معارضتها الشديدة تخلى عن الفكرة.

كرهت سلمى مغادرة مصر، وفراق رفيقاتها في المدرسة، وكان عزاؤها الوحيد انتقال صديقة عمرها وعائلتها إلى لبنان، وداوما في نفس المدرسة البيروتية.

حرم مرض القلب نشمية من متع الحياة البسيطة. منعها الأطباء من السكنى قرب البحر، لئلا تؤذي الرطوبة العالية قلبها، فاستأجرت شقة في رأس بيروت تكشف شرفتها الغربية من بعيد منظر البحر من الميناء حتى الفنار، ثم حرموا عليها صعود الجبال العالية، وآخرها كان السياقة، وفي لبنان تتطلب السياقة مهارة فائقة وأعصاباً حديدية وصبراً لا ينفذ، فاضطرت لاعتزال السياقة نهائياً، وشحنت السيارة إلى زوجها.

نشمية إنسانة عادية، لا تستحق أكثر من نظرة عابرة من البيروتيين المولعين بالمظاهر إلى حد التقديس. قامتها قصيرة، وجمالها متواضع. رعت دواب المرض في شعرها حتى لم يبق منه سوى طبقة رقيقة بالكاد تغطي فروة رأسها. سرى الذبول إلى عينيها، من دون أن يخفي طية الجفن الأعلى، وهي صفة متوارثة بين الأسيويين، من اليابان شرقاً ومنغوليا شمالاً حتى أواسط أسيا، ويحفظ الأطباء اسمها العلمي باللاتينية، لكنهم لا يعرفون بأنها موروثة من والدتها، وكذلك أنفها الأفطس. وهي على عكس البيروتيات لا تهتم بتجميل شكلها بالأصباغ والمراهم، ولا تضع رتوشاً على وجهها، ولا رموشاً اصطناعية، وملابسها أنيقة من دون تكلف. تتنقل بسيارات أجرة أو مشياً على الأقدام. وفي شقتها أثاث بسيط، ولنوافذها ستائر معدنية، بانتظار ستائر قماشية لم تفصل أبداً، وتتدلى من سقفها مصابيح عارية، لا يسترها غطاء زجاجي أو حتى بلاستيكي، وبلاط أرضيتها من دون سجاد. أقرضت نشمية قريبة للعائلة التي ربت أمها مبلغاً صغيراً، فحضرت في اليوم التالي تحمل سجادة إيرانية لتكون رهناً للقرض، ورفضت نشمية، ولكن أمام إصرار القريبة رضت بالاحتفاظ بها من دون أن تفرشها.

قالت لها صديقتها السورية يوماً:

- زرتك عشرات المرات وعلى مدى سنين ولم ألاحظ قبل اليوم أن شقتك بدون ثريات.

ما أن تدخل في فلك نشمية حتى تشعر بجاذبية كوكب ضخم، يفرض عليك الدوران حوله. تؤثر فيك بالمد والجزر. يخرج مدها كل ما كتمته في نفسك من ألم وحزن، ليخلصك الجزر منها. يأتيها الناس مثقلين بالهموم ويغادرونها خفافاً، ولا يميز عطاؤها بين قريب وبعيد.

شهد بقال الحي على طيبة قلب نشمية. أحياناً حضرت شاحنات مجهزي بضاعته لكن ما توفر في درج نقوده غير كاف لدفع ثمنها، وبدلاً من الذهاب إلى المصرف لسحب نقود أرسل ابنه ليطلب من نشمية إقراضه حتى الغد. لم تتردد نشمية غير عابئة بالمشككين في الذمم، ولم يتخلف البقال عن السداد، وحفظ لها الجميل.

اشترت نشمية أدوية قلبها من صيدلية الحي في بيروت. هو الآخر معجب بنشمية وشجاعتها. قارن بين تجهم سحنات المرضى – حتى المتمارضين منهم - الذين يقصدون صيدليته والابتسامة التي لا تفارق وجه نشمية، وكأن قلبها المريض لن يتوقف فجأة من دون إنذار وربما تلفظ أنفاسها قبل أن تقلع سيارة الإسعاف من مرأبها.

بالقرب من الصيدلية محل بائع الجرائد والمجلات. في صباح كل يوم أوصل جرائد محلية ومجلات فرنسية وإنكليزية إلى باب شقة نشمية، ولو كانت مسافرة احتفظ بها لحين عودتها. في ذلك الزمن من تاريخ بيروت يكفيك فخراً ان تقرأ وتتخاطب بالفرنسية، لغة الأم الحنون، لذلك أعجب بائع الجرائد بنشمية التي تقرأ بلغات ثلاث، كما أن واحدة غيرها وفي مثل حالتها الصحية ستترك القراءة لتعصر من الحياة كل متعها قبل أن توافيها المنية المتربصة بقلبها المريض.

أطلق جورج لقب السامرية الطيبة على نشمية. بعد بيروت عاد إلى بلده وأصبح حلاق نساء مشهور، اسمه مطبوع على منتجات للعناية بالشعر، ولم ينسى عطف نشمية. أصيب بوعكة صحية أثناء عمله فنقلته نشمية في سيارتها إلى المستشفى، وظلت بجانبه حتى اطمأنت على صحته.

لو سمع ذو الرجل الاصطناعية بنية البقال والصيدلي وبائع الجرائد زيارة نشمية في ذلك اليوم لذهب معهم. لا أتذكر سبب فقدانه لأحدى رجليه. عوضها برجل خشبية لأنه فقير والأطراف الصناعية مكلفة في لبنان. وصف أحدهم الرجل الخشبية بأنها مثل جرس معلق في رقبة بقرة، تعلن عن صاحبها قبل أن يصل باب داره. أرسلته نشمية إلى القاهرة، وعاد برجل اصطناعية، ودفعت نشمية كل التكاليف.

الخياط اللبناني المشهور وأصحاب الفندق في بحمدون كلهم معجبون بشخصية نشمية، لو سألتهم عن السبب فأجزم بأنهم سيردون بأنها أشبه بالقديسين، أو كلام من هذا القبيل. غيرها سخط على الدنيا لأتفه الأسباب لكن قلب نشمية المريض خلا من النقمة. لم يتزوج الخياط اللبناني ليعتني بأمه، وبعد وفاتها فات أوان الزواج، ثم قتله صاروخ أطلقه جيرانه في الجبل أثناء الحرب الأهلية، وكان يسمي نشمية "أمنا الصغيرة". عاملها أصحاب الفندق كواحدة من العائلة. أودعت سلمى مصاغها لديهم قبل الحرب الأهلية وسافرت، واستدلت عليهم بعد عشرين عاماً. احترق فندقهم في بحمدون أثناء الحرب، وسرقت مدخراتهم القليلة من البنك، ولكنهم احتفظوا بالأمانة، وسلموا سلمى مصاغها في نفس العلبة المعدنية.

انتظرهم البقال أمام دكانه. أغلق الصيدلي محله وعبر الشارع نحو الدكان، وتبعه بائع الجرائد، والطبيب نزل من عيادته ولحق بهما، وجاء آخرون لا أعرفهم. تبادلوا التحيات، ثم توجهوا نحو البناية التي تقطن فيها نشمية.

في صباح ذلك اليوم اتصل صاحب الدكان هاتفياً بنشمية ليستأذنها بزيارة قصيرة بعد الظهر. أخبرها بأنه سيحضر هو والصيدلي وآخرون. خمنت نشمية بأنهم يجمعون التبرعات لعمل خيري. طلبت أطعمة جاهزة وحلوى من محل الصمدي قرب سوق الطويلة. عندما تخاصم الصمديان انحازت له، وقاطعت صمدي الحمراء. كان صمدي سوق الطويلة يقول لها: اطلبي ما شئت ولو بلورية واحدة وسأرسلها لك. وضعت مبلغاً من النقود في ظرف، ثم حضروا في الموعد. اكتظت بهم صالة استقبالها الصغيرة، وحمل البعض منهم كراسي من غرفة الطعام ليجلسوا عليها. عرفها البقال على الوجوه غير المألوفة، وبعد المقدمات القصيرة فاجأها صاحب الدكان بالطلب:

- نترجاك الترشيح للمقعد النيابي عن رأس بيروت.

ابتسمت نشمية، وقبل أن ترد استرسل صاحب الدكان، مبيناً الأسباب التي أقنعتهم بأنها أفضل من تمثل مصالحهم في المجلس النيابي. قالت لهم نشمية بأنها كانت ستكون سعيدة بتمثيلهم سوى أنها لا تحمل الجنسية اللبنانية.

ذهل أعضاء الوفد. توقعوا أن تتردد أو تطلب مهلة لدراسة الموضوع أو حتى تعتذر بسبب مسؤولياتها العائلية لكنهم لم يتوقعوا أن تكون مرشحتهم المثالية لكرسي النيابة غير لبنانية.

30

زيارة زوج نشمية حدث غير اعتيادي، مرة في السنة لرفع العتب وإراحة الضمير. لم ينساهم بالمرة، كما تقول كلمات الأغنية المعروفة، ولو زارهم مرتين في السنة فسيكون متفضلاً. دامت زياراته الخاطفة أياماً معدودات ثم يغادر، أشبه بزيارات الباعة المتجولين والبحارة لعوائلهم، مع الفارق الكبير. اعتذر بكثرة الأشغال، ولكن فضحته النظرات والأسماء، نظرات تتفقد أحباءاً فلا يجدهم حوله، وأسماء لغائبين تلفظ بها لسانه سهواً.

استقبلوه في شقتهم المستأجرة في بيروت. لا تصييف في الجبل لنشمية وابنتها ذلك العام، ملت من الفندق الجبلي، حتى أصحابه تذمروا من نزلائه، وأرهقها طريق الجبل. تكررت نوبات قلبها، وكل واحدة أشد مما قبلها. فاجأتها إحدى النوبات عند باب الشقة، وقبل أن تفتح الباب أغمي عليها. أسعفها الجيران، وزارتهم سلمى لتشكرهم، وتركت معهم أرقام هواتف شقتهم ومستشفى صديق العائلة.

حضر زوج نشمية مع زوجته الأخرى وأولادهما في ذلك الصيف. أسكنهم في بحمدون، ونزل إلى بيروت لزيارتهم. مر الخبر في فضاء نشمية مثل ذبابة. لم يعد للأحزان مهبط على قسمات وجهها. خمد بركان تذمرها الذي دفعها يوماً لنزع خاتم زواجها ورميه إلى الشارع من شرفة شقتها في القاهرة. كلما تذكرت الموقف سخرت من جيشان عواطفها وعاتبت نفسها: وهل يستحق قلبي كل هذا الألم؟

منذ سنوات ضعف سمع زوج نشمية. في البدء رفض استعمال سماعة تقوية السمع، حتى لم يعد الصراخ كافياً، ثم رضي مرغماً. في بلاده غطى السماعة بالشماغ، ولكن في لبنان نزعه ولبس بدلة افرنجية فظهرت السماعة. لا تنسجم مع الشعر المصبوغ والبدلة الفرنجية.

ليس الصمم وحده اضطرهم لتكرار كلماتهم، ورفع أصواتهم، والجلوس بجانب أذنه التي ما زال فيها بقية من سمع، بل كل قصصهم المسلية أضاعت الطريق إلى سمعه، حتى شهيته لأكلات نشمية فقدها. تناول القليل من طعام الوجبات، ثم حمد الله ونهض عن المائدة.

في اليوم الثاني أراد زيارة عائلته الثانية في الجبل. أوصلته نشمية وسلمى بنفسها، وتواعدوا على العودة بعد ساعات، وقضت نشمية وسلمى الصباح في فندق العائلة الصديقة. طالعتهم وجوه مألوفة في شرفة الفندق وبهو الاستقبال لنفس السائحين من سنوات سابقة، الذين تعودوا على قضاء شهور الصيف في الفندق. نزلا إلى الطابق الأسفل حيث يسكن أفراد العائلة، وكان الجميع حاضرين إلا الأب الذي توفي فجأة في الشتاء الماضي. مكانه في غرفة الطعام خال. بعد أن يقرع النادل القرص المعدني كان يقف وسط القاعة، ليصدر الإرشادات للنادل ومساعده، ومن لا يعرفه جيداً شبهه بشرطي مرور. كان الفندق داره الثانية، وعامل النزلاء مثل ضيوفه، وعلى عادة الجبليين وقف صاحب الدار للإشراف على إطعام ضيوفه بنفسه.

في الطابق السفلي باحة وغرف نوم العائلة ومطبخ. تتوسط الباحة شجرة سنديان ضخمة، نفرت عروقها بفعل الهرم. جلست السيدات تحت الشجرة، وتبادلن الأحاديث المعتادة حول الصحة والفندق والموسم السياحي. في هذا المكان دار كلام صريح بين نشمية وابنة صاحبة الفندق، وأخبرتها بنيتها طلب الطلاق من زوجها. لا أعرف تاريخ ذلك بالضبط، ولا أستبعد أن أكون قد أخطأت في بعض التفاصيل، لكني متأكد من حديث نشمية حول الطلاق واستماعها لنصيحة صديقتها:

- زواج بنات المطلقات صعب.

وانتهى النقاش.

كانت ستكون مثل كل الزيارات السابقة. فتحوا له صالة كبار الزوار في نفوسهم، ومر مرور الكرام، وما ينسى تذكيرهم بأنه "مخنوق"، ومن دون مناسبة عادة، ويقصد بذلك أن حالته المالية متعسرة، مع أن نشمية لم تطلب نقودا من زوجها، وقبلت بما يرسله لها شهرياً.

استغربوا من سلوكه في تلك الزيارة، ففي وسط حديث دائر بينهم نهض فجأة وخرج من غرفة الجلوس ومشى حتى باب المطبخ، ثم رجع ليكمل إلى غرفة النوم الثانية. حللت نشمية سلوكه غير المعتاد:

- إنه مشتاق لعائلته الثانية في الجبل.

بعد أسبوع تعبت نشمية من صعود ونزول الجبل بين يوم وآخر، صارحته:

- هل تفضل البقاء مع أهلك في الجبل؟

تمنت أن ينكر ذلك، ولو على سبيل المجاملة، لكنه استكثر عليهم أسبوعين في السنة.

أعادت نشمية توضيب ملابس زوجها في حقيبته، ورافقته إلى بحمدون. فضل النزول أول الشارع، وقبل أن يحمل حقيبته خرج أولاده الصغار لملاقاته، ولا بد أنهم سمعوا صوت اقتراب السيارة، وشاهدوه من النافذة. ترك الحقيبة على الرصيف، وأسرع الخطى نحوهم، التفتت نشمية لابنتها وخاطبتها:

- لهذا السبب لا ألومه.

تجد نشمية الأعذار للجميع، وتبرر أخطائهم، حتى تلك التي تكون هي ضحيتها. عندما قست سلمى في الحكم على أبيها، ذكرتها بموقفه من الرسالة الكيدية. قبل سنوات أرسل لها ظرفاً داخله رسالتان، احتوى أولهما على جملة واحدة بخط يده:

- رسالة وصلتني!

والرسالة الثانية من مجهول أو مجهولة. ومن نظرة واحدة تعرفت على صاحبة الخط السورية المطلقة. كانت قبيحة وفظّة. صدها الطبيب المصري صديق عائلة نشمية، لأنه مخلص لزوجته ابنة عمه. ظنت كاتبة الرسالة أن نشمية تقف في طريق غوايتها للطبيب، فانتقمت من نشمية وكتبت رسالة إلى زوج نشمية تعيب عليه ترك زوجته لتعيش وحدها في مجتمع غريب. غضبت نشمية وتوجهت إلى شقة أخت المطلقة لتسمعها ردها القاسي على رسالة أختها.

31

نشمية حزينة، وتكتم أحزانها، ولو كانت أنانية مثل معظم البشر لاحتفظت بأفراحها لنفسها ووزعت حزنها على الجميع، الأقرباء والغرباء. لكل واحد منا أحزان، ومن حقنا ان نستاء لو كانت حصتنا أكثر من غيرنا، ونحاول معادلة الكفة، لكن طيبة نشمية تمنعها من ذلك، والحزن المبثوث لمرآة أو وسادة يعود لك كاملاً، لذلك استقر حزن نشمية في نفسها، وزاد عليه الأقربون قبل الأبعدين، زوجها وولداها واخوانها وكاتبة الرسالة وزوجة أخيها غير الشقيق وغيرهم وجدوا نشمية مبتسمة وضاحكة، حسدوها على قهرها للحزن، فأضافوا على حزنها من عندهم.

لا تكترث نشمية للؤم الآخرين، غفرت لكاتبة الوشاية، وزارت أختها في العيد، فكانت مفاجأة للأخت، فانهمرت الدموع من عينيها. أحبت نشمية، ووثقت بها أكثر من زوجها، وأسرت لها بمكان خاتم ثمين من الألماس، أهداه لها شقيقها الثري الساكن في أوروبا، وأوصتها بتسليمه لابنتها الوحيدة لو ماتت قبل زواجها.

زوجة أخيها يوسف هي الأخرى لئيمة. في الشهر الأول بعد الزواج زارتهم مرات، وفي كل مرة طلبت من الربيبة تحفة من مخلفات البوشامي، فأهدتها لها عن طيب خاطر، ثم حرضت زوجها فتوقف عن مساعدتهم، واضطرت الربيبة لبيع المتبقي من مقتنيات بيتها. غفرت لها نشمية، وزارتها يوماً في شقتها في حي سن الفيل البيروتي، ورافقتها سلمى على مضض، التي لم ولن تغفر لها أبداً. شاهدت سلمى اضطراب أمها أثناء الزيارة فسألتها عن السبب. أجابتها بصوت خافت ومرتجف وهي تشير برأسها إلى صف من التحف القديمة المصفوفة على الرفوف على طول وعرض غرفة الاستقبال:

- كانت هذه التحف لوالدتي.

وعلى الرغم من ذلك لم تحقد نشمية على زوجة يوسف اللئيمة، لكنها توقفت عن استقبالها في شقتها.

شقيقها الأعرج هاشم لئيم أيضاً، وبعض اللؤم صعد من رجله العرجاء وأكثره من صنع ذاته. جاء في إجازة صيفية، وصحبته نشمية إلى فندق الجبليين الأصدقاء، وهناك التقيا بعائلة عراقية من أم وابنتيها تأتي كل عام تقريباً للتصييف. أعجب هاشم بكبرى البنتين المطلقة والمعقدة. استقل الثلاثة نشمية وهاشم والمطلقة العراقية سيارة، وكلما توقفت أسرع هاشم لفتح الباب للمطلقة. لا أحد يعرف بالإتيكيت مثل نشمية، وما تعرفه يكفي لملأ كتاب، لكنها لم تنتظر شقيقها ليفتح لها باب السيارة، وبعيداً عن أسماع المطلقة قال لها:

- تعلمي منها!

لم تكن المطلقة مجنونة بشهادة أطباء لتأخذ نشمية منها الحكمة، كما ينصح أهل الصحاري، لكنها معروفة بعقدها النفسية المزمنة، ومستحقة للرثاء أو العطف إن لم تنفرك بعجرفتها. أنطق لؤم الشقيق لسانه بهذه النصيحة، وتجاهلتها نشمية، فهي تعرف شقيقها منذ الصغر. واكبت عقدته منذ أن كانت بذرة صغيرة، تمددت من رجله حتى عقله، وهناك استقرت ونمت وأثمرت لؤماً.

أطلق هاشم سهام لؤمه على شقيقته المريضة، لأنها تفوقت عليه، بالقدرة لا بالعمر. بعد وفاة الأبوين استحق أن يكون صاحب الكلمة الأخيرة بينهم، لأنه أكبر أبناء الربيبة الذكور، لكن نشمية خرجت على الأعراف القبلية، بتضحياتها وحكمتها وصبرها واحتمالها للمرض، وتفوقت على شقيقها هاشم، وعرجه الخفيف لا يستحق الذكر مقارنة بقلبها المخلخل. هي انطلقت من أسار مرضها وتزوجت، وظل هو حبيس عاهته وعازباً، ثم تجاسرت على الموت وخالفت تحذير الاطباء وأنجبت ثلاثة، وبقي هو بدون عقب.

ليس خافياً على اللؤماء ما يسببونه لضحايا لؤمهم من وجع القلب، والمصيبة أن اللئيم هاشم يعرف ويتظاهر بالبراءة، وكل لؤم أقارب نشمية وجد طريقه إلى قلبها فتفاقمت علته.

تكررت نوبات مرض قلب نشمية، وكل مرة أسوء من قبلها. تدرك بأن صمامات قلبها شبه مستهلكة، ولن تصمد طويلاً بالأدوية، والبديل صمامات معدنية، ومع النصيحة بالعملية حذرها الأطباء من خطورتها:

يشقون الصدر، وينشرون عظامك بالمنشار، ثم يفتحون القلب. لكن نشمية لا تتهيب من العملية ولا تهمها معدلات نجاحها. أخيراً توجد فرصة لقلب من دون نوبات وجرعة دواء كل ست ساعات.

سافرت نشمية إلى أمريكا مع حقيبتين، واحدة لملابسها والثانية للتقارير الطبية وصور الأشعة. أدخلوها المستشفى في ولاية تكساس، حيث عمل أشهر جراحي القلب المفتوح في العالم. في أول معاينة وصفوا لها خطوات العملية: بعد التخدير يتولى المساعدون فتح القلب ثم يحضر الجراح لتغيير الصمام، ويترك خياطة الجرح للمساعدين، مثل حزام الإنتاج في مصنع حديث. ساعات الصباح الباكر لتصليح قلوب الأطفال، ومن بعدهم الكبار.

في زيارتها الثانية لقسم جراحة القلب انتظرت نصف ساعة في غرفة باردة، عندما جاء دورها وبخت الطبيب المناوب:

- أنتم ترون أنفسكم أكثر تقدماً منا لكننا على الأقل احتفظنا بإنسانيتنا.

بعد انتهاء الفحص تعاطفت معها الممرضة:

- أنا من مدينة صغيرة، والناس هناك مختلفون. يهتمون ببعضهم البعض، وأهل المدن يحتقروننا.

في الغرفة المجاورة لغرفة نشمية رقدت عجوز أمريكية، ما أن تفيق حتى تبدأ بتجميل نفسها. تسرح شعرها، وتضع المساحيق والألوان على وجهها، وكانت بكامل زينتها عندما نقلوها لغرفة العمليات. تمنت لها سلمى الشفاء فشكرتها ومازحتها:

- اريد أن يراني أهلي في أحسن صورة لو مت أثناء العملية.

وحتى المساء ظل فراش العجوز المريضة خالياً، سألت سلمى ممرضة عنها فأخبرتها بنغمة حزينة مصطنعة:

- ماتت أثناء العملية لأن رغبتها بالحياة ضعيفة.

سخرت سلمى من تبرير الممرضة، فالزاهدة في الحياة لا تذهب للعملية وكأنها ستحضر حفلة عرسها.

في غرفة أخرى ارتفع صوت بالشكوى، فحضرت إحدى الممرضات لتطلب من سلمى مساعدتها في الترجمة. تبين أن الشاكي مريض من إيطاليا، ولا يعرف من الإنكليزية سوى كلمات التحية والشكر، ولأن سلمى هي الأخرى أجنبية افترضت الممرضة بأنها تفهم لغة الإيطالي. وبالقليل من الكلمات الإيطالية التي تعلمتها من الراهبات في الابتدائية عرفت سبب انزعاجه. رفض اجراء قسطرة شرايين قبل حضور أقاربه الأمريكيين، وكان يظن بأنها العملية الكبرى، وخاف أن يموت وأهله بعيدون. شرحت للإيطالي بالكلمات والإشارات ما تعلمته من قسطرة شرايين قلب والدتها المتكررة فاقتنع. بعدها بأيام استعانوا بها لتتفاهم مع الإيطالي مرة أخرى. كان حزيناً بعد استلامه قائمة حساب المستشفى وقال لسلمى:

- قولي لهم ليس لدي نقود لدفع أجور المستشفى، وليسترجعوا الصمامات التي وضعوها في قلبي.

وصفت سلمى ردة فعلها على طلب الإيطالي:

- كنت جريئة في شبابي، فذهبت لمقابلة الجراح، وأخبرته بما قاله الإيطالي الفقير، فأطرق برأسه واحمر وجهه، ثم تناول ورقة وكتب عليها تنازلاً عن أجرته، وكانت أكثر من نصف المبلغ المطلوب.

حضر هاشم، قضى يومين ثم غادر، ولم يحضر نوفل. احتج بكرهه المستشفيات وحساسيته من منظر الدم.

بعد خروج نشمية من غرفة الإنعاش زارها جراح آخر. سلمى متأكدة بأنه كان سكراناً. ترنح قليلاً وأسند ظهره إلى الحائط، ثم أخبر نشمية بأنه لاحظ في صورة الأشعة ظلالاً سوداء لورم سرطاني على إحدى كليتيها ولا بد من استئصاله بعملية فأجابته نشمية بثقة:

- لست مصابة بالسرطان، ما رأيته في صورة الأشعة ترسبات نتيجة رقودي الطويل في السرير، سأكثر من شرب الماء وسيزول. ولو تبين أن هنالك سرطان بالفعل فسأذهب إلى طبيبي الخاص في مصر، هو أشهر طبيب مختص بالكلى، ليجري العملية، رشحوه لجائزة نوبل قبل سنوات، فهل رشحوك للجائزة مثله؟

بهت الجراح الأمريكي، وبدا الغضب على ملامح وجهه. حذر نشمية بأنها ستموت حتماً بدون عملية، ثم غادر هو وطلابه الغرفة.

في اليومين التاليين شربت نشمية كميات كبيرة من الماء، واختفت الظلال السوداء في صورة الأشعة الثانية. وبعد سماع طبيب مصري مقيم في المستشفى بالقصة زار نشمية ليشكرها على امتداحها للأطباء العرب المصريين، وأخبرها بأنه درس في جامعة القاهرة، وكان الطبيب المصري صديق عائلة نشمية أحد أساتذته.

تأخر زوج نشمية في إرسال أجرة العملية والمستشفى، فأبدى السفير زوج صديقتها من أيام بيروت استعداده لتسديدها من حساب خاص في السفارة لعلاج المواطنين في الخارج بتوجيه من الملك، فرفضت نشمية:

- لو قبلت نقوده فلن أستطيع انتقاده بعد اليوم.

نشمية قومية عربية وناصرية متحمسة.

قال لها السفير ممازحاً:

- سأبلغه بذلك.

أخبرها بعد حين بأن الملك ابتسم عند سماعه بالقصة، فهو يعرف رأيها في عبد الناصر، وسمعه منها في لقاء بالصدفة أثناء زيارته لأقارب نشمية أصهار العائلة الحاكمة الساكنين في الإسكندرية. كان ولياً للعهد، وقبل أن يصفه عبد الناصر بالكلب الذي يهرّ كلما سحبت أمريكا ذيله.

اخيراً وصل التحويل من زوج نشمية، وبعد استجمام قصير عادت مع سلمى إلى بيروت.

32

سافرت نشمية بقلب آدمي، ورجعت بقلب من لحم ومعدن، وظلت رقة قلبها كما هي. لم يحصنها صمام قلبها المعدني ضد الاحزان، ومع عودة مقرن بدأ فصل جديد لأحزان نشمية.

لا يوجد في العالم حسن ظن كاف وخيال جامح لكي يجعلك تتصور مقرن متوسداً حضن نشمية. هي ترنو إليه بحنو الأم، وهو يرمقها بنظرات الابن المفعمة بالمحبة. يعدها بأنه عندما يكبر سيصبح طبيباً ناجحاً ليعالجها من مرضها العضال، فيذرفان سوية دمعات ساخنة. في نظر مقرن ذلك مشهد رومانسي من فيلم هندي، ولا مكان للرومانسية الحقيقية أو الرخيصة في عروق مقرن، وستعاقبه الرومانسية فيما بعد على استهانته بها.

رجع مقرن بشهادة متواضعة وبنفس الشخصية المشوهة. في بلاد النفط الصحراوية حينئذ يكفيك أن تحمل شهادة جامعية من أمريكا، ولو في علم السياسة، لتحصل على وظيفة مرموقة في الحكومة أو الشركات. ما عليه سوى أن يرطن أمامهم بجملة باللغة الإنكليزية، ولأنه من نجد فلن يفضلوا عليه أحد، لكن مقرن رفض العمل في وظيفة، فهو لا يطيق أن يكون مرؤوساً. هكذا عرفته أمه في عمر المراهقة، وما زال عقله يراهق، ويعتبر نفسه أفضل من خاليه لأنهما اضطرا للتوظف بسبب فقرهما.

ظنوا أن عزوفه عن الوظيفة وراثي، فان لم يقبل بالوظيفة فسيفلح في التجارة، والتجارة مهنة أبيه وأجداده، ولكنه برهن لهم بأن التجارة لا تورث. بعد أسابيع ملّ من الجلوس في متجر أبيه، وانتقل للسكنى مع خاله هاشم، وتأكد لهم بأن العقدة في مقرن لا في عمله مع أبيه ولا سكناه مع زوجة أبيه وعيالها، بعد أن عرض عليه زوج صديقة نشمية مشروعاً تجارياً، هو تاجر أيضاً، وأثرى من أبيه، فرفضه أيضاً.

ذكر عزوف مقرن عن العمل نشمية ببعض أقاربهم المتقاطرين من نجد كل عام على بيت زوجها في جدة. وضعوا حقائبهم خلف باب غرفة الاستقبال، لأنهم كما قالوا لا ينوون المكوث طويلاً. سيبقون يوماً أو يومين بالأكثر ثم يغادرون. كرروا ذلك على مسامع زوجها وضيوفه، لكنهم لبثوا شهراً أو شهرين. أكلوا وناموا في غرفة الاستقبال وبجانبهم حقائبهم. كرهت نشمية الأريكة المتحولة إلى سرير لأن أحد هؤلاء الأقارب رقد عليها حتى تغلغلت رائحة جسده داخل خيوط نسيجها. لم يسألهم أحد عن عملهم، لئلا يغتاظون، وأغلبهم طفيليون تعيشوا على صدقات زوجها وغيره من أقاربهم المحسنين.

أعاد مقرن إلى ذاكرتها أولئك الأقارب العاطلين عن العمل والمتفاخرين بأصولهم القبلية والعيال على أقاربهم الموسرين.

كان مقرن ما يزال عاطلاً عن العمل عندما خطبت سلمى. تعرفت عليها في الجامعة، واتفقنا على الزواج. وافقت نشمية من دون تردد، وجنّ الأب لأني لست من العائلة أو قبيلة نجدية، ومن بلد آخر، وهدد نشمية بالطلاق لو زوجتني سلمى. سخرت نشمية من تهديده الأجوف، لأن طلاق ابنة العم مستحيل في أعرافهم، كما أكد هو لوالدتها عندما أرادت العودة بها إلى الشام.

كنت مستعداً للتراجع عن الخطبة حفاظاً على عائلة سلمى من التفكك، لكن نشمية أصرت على المضي بالزواج:

- لا تصدقوه. ولو أراد الطلاق فليكن.

بين نشمية وزوجها صراع إرادتين. وقف هو عند تخوم الصحراء، يعالج وساوس الغضب، ويكاد أن ينجرف وراء تحريضها. استحضر غضبه كل الأقارب الماكثين في نجد المستفيدين من صدقاته وهباته، والذين عرفوا نعومة وسائد مقاعده المستوردة، ونثروا عليها ومن حولها تراب أقدامهم، ومسحوا بجوانبها بقايا دسم طعامه، وأحدهم كرهت نشمية أريكتها المفضلة بسببه، وآخر سأله يوماً وبلهجة غير مصدق:

- سمعنا أن أم مقرن تقود سيارتها في لبنان؟

فطمأنه زوجها بأنها حالة اشتباه.

استعرض زوج نشمية جنوده، وأعجبته كثرتهم. كلهم مسلحون، بالسيوف والخناجر والبنادق، ولو كانت عتيقة وصدأة، مثل بندقيته من أيام الخدمة في قوات ابن سعود، والشاهدة على خيانته لأبيه وجده، وكل أقاربه الذين قتلهم ابن سعود، وعبر على أجسادهم إلى السلطنة ثم الملك. اقنع نفسه بأن زوجته نشمية ستتراجع عن إصرارها على تزويج سلمى من غريب، ولو في اللحظة الأخيرة، وستتذكر الألف وخمسمائة ليرة التي يضعها في حسابها في أول كل شهر ثمناً لأدويتها وأجرة الشقة ومصاريف المعيشة، من دونها ستضطر للعيش عالة على أخويها.

لم تتزحزح نشمية عن موقفها: ليطلق، لا أكترث. ما كان إصرارها على تزويج ابنتها عناداً، أو انتقاماً من زوجها المخادع. لم تنسى موقف والدتها الربيبة التي فضلت حياة الفقر في الشام على بقاء نشمية مع زوجها بعد اكتشافها كذبه. كانت والدتها مستعدة للتضحية من أجل سعادة نشمية، وهي خالفت أمها واختارت البقاء، وحان الوقت لتفعل نفس الشيء مع ابنتها.

صارحت نشمية سلمى بسبب إصرارها على تزويجها خلافاً لإرادة والدها. لم ترد لابنتها حياة مثلها، مع رجل مثل زوجها، أو مثل زوج صديقتها النجدية. هو أيضاً خان زوجته وكذب عليها. حياة أمثالهما مركبة من أكاذيب، مثل كثبان الرمل. محطاتها مؤقتة، ولا تجدها مرسومة على الخرائط، وحتى السراب أفضل منها لأن خداعه مكشوف.

تزوجت نشمية من أجل والدتها وشقيقيها، وتعرف أن سلمى مثلها مستعدة للتضحية بسعادتها من أجلها، ولكنها لن تسمح بتكرار ذلك، هذه المرة ستكون مصلحة ابنتها فوق كل اعتبار، حتى لو كلفها ذلك زواجها ومعيلها الوحيد.

وضعت الجميع أمام الاختيار، أما معها أو مع زوجها. من بين الأربعة الأقرب إليها ثلاثة وقفوا معها، والرابع هاشم اختلق عذراً واهياً. قال لهم بأنه باق بجانب الزوج، وإن لم يقنعه فسيطفئ نار غضبه. من يعرف الأربعة جيداً يدرك بأن في زواج سلمى مصلحة لهم، لأنها الأثقل على نفوسهم من تركة نشمية المتوقعة. عمر نشمية قصير، ولن تقبل سلمى بالعيش مع والدها، فلا بد أن يتحملها الأخوان أو الخالان، وفي زواجها ولو من غير نجدي خلاصهم من التركة الثقيلة. اعتذروا لزوج نشمية بأنهم اضطروا لحضور الزواج للحفاظ على المظاهر المحترمة وسمعة العائلة من أقاويل الناس لو لم يحضر زواجها سوى والدتها.

تخلصوا من سلمى وبقت نشمية.

نويت على اكمال دراستي في بريطانيا، واقترحت بقاء سلمى بجانب والدتها، حتى اكمال دراستي، لكن نشمية رفضت الفكرة، ووعدت باللحاق بنا عندما تحين الفرصة، ولم تكن جادة. قالتها لتقنع ابنتها بالسفر معي.

تخلى الخالان والولدان عن نشمية. بعد تخرج عقاد التحق بأخيه مقرن في بيت هاشم. قضوا أوقاتهم في زيارة الأصدقاء ولعب الطاولة مع خالهما، وستنقضي عشرة أعوام قبل أن يفكرا بعمل جاد. ولم يعرض أي منهما ملأ الفراغ الذي تركه سفر سلمى ورعاية والدتهما المريضة. من قبل أن يهددها زوجها بالطلاق والحرمان من معاشها الشهري فكرت نشمية بالسكنى مع أحد أخويها. قالت لابنتها بأن حياتها مع أخيها المعقد هاشم في بيت واحد مستحيلة، أما نوفل فقد أبلغها من قبل بأن تعليمات الشركة النفطية التي يعمل بها تحظر استضافة افراد من عائلته في منازل الشركة. كان المقصود بذلك في وقتها أخيه هاشم، ونشمية مشمولة به أيضاً.

بعد سنتين من زواج وسفر سلمى وعملية ثانية لتغيير صمام قلبها توفيت نشمية. أراد زوجها دفنها بجانب والدته في مكة المكرمة، لكن سلمى رفضت لئلا يطمسون قبر والدتها ودفنت في بيروت.

عادت سلمى بعد دفن والدتها لتجد أباها ينقب بين أشياء أمها الخاصة عن ورقة الدين التي كتبها لها عوضاً عن مجوهراتها التي أعطتها لوالدته. استشاطت غضباً، ودفعته في صدره، فتعثر وسقط في مقعد وراءه.
اجتذبت الضجة مقرن وعقاد من الغرفة المجاورة، ووقفا عند الباب ينظران بوجل إلى المشهد. سألها مقرن:

- هل تريدين أن يموت بالجلطة؟

نهرته فلزم الصمت.

في مجتمع الرمال مكان المرأة في المؤخرة، خلف الرجال والقطيع، وتمردت نشمية على الرجال، ودرعها الوحيد مرضها الخطير وعزة نفسها. لعلهم كانوا يتحينون الفرص للنيل منها واذلالها، ثم عالجها الأجل، فتوفيت وغليل الرجال لم يشف منها، لذلك استحلوا ضرب الميتة. دفنوها في بيروت، حسب وصيتها، ولا الزوج ولا الخالان ولا الابنان دفعوا ليرة واحدة من تكلفة دفنها وثمن قبرها، تكفل بذلك الطبيب اللبناني صديق العائلة. وارى جثمانها في مدفنه الخاص، ثم تناسها الرجال.

في الخمس وثلاثين سنة المنقضية على وفاة نشمية لم يزر قبرها ويترحم عليها غيرنا، سلمى وأنا، ولعل الفضول وحده الذي ساق عقاد يوماً لتفقد قبرها بعد ذلك، فلاحظ ثلاثة اسماء جديدة بجوار اسمها، لسيدات من العائلة اللبنانية الصديقة، دفنوا معها في لحد واحد. اشتكى ذلك لأخته فأجابته بمرارة:

- ماذا توقعت؟

لم يقدروا على الأم في حياتها، لكنهم تركوها لتدفن مثل الفقراء المشردين، وبدلاً من البلدية تولت ذلك العائلة الصديقة، وأهملوا قبرها حتى غدا قبراً جماعياً، ثم أتى دور الابنة، التي اقتدت بوالدتها، فاستحقت سخط الرجال.

33

انقضت عشرة أعوام على وفاة نشمية، ارتاح الرجال فيها من سلمى. عشنا بعيداً عنهم، ثم اجبرني جور الحكام في بلدي على المغادرة، وتصورت سلمى بأننا سنجد ملاذاً آمناً لدى أهلها.
سكنا لأيام في شقة مقرن وعقاد التي استأجروها بعد أن ضاقت بهم شقة الخال هاشم. مالك المبنى والد صديق لهما، متجنس من أصل فلسطيني، ويعمل في تجارة اثاث وأدوات المكاتب مع والده.
شقة الأخوين الصغيرة مكونة من بهو استقبال وغرفتا نوم وحمامان. في أول يوم أردت استخدام دورة مياه الضيوف فوجدتها مكتظة بالأواني الزجاجية والأنابيب المطاطية وقناني العصير الفارغة، وتبين بأنهما يقطران النبيذ في دورة المياه. من قبلهما كان خالهما نوفل يقطر المشروبات الكحولية الممنوعة في حديقة بيته في مجمع سكن الشركة. طاردتني ضحكات الشقيقين حتى دورة المياه الأخرى، فوجدت على أروابهما ومناشفهما اسماء فنادق معروفة. وفي غرفة النوم بطانيات مختومة بأسماء شركات طيران نشلها الشقيقان أثناء سفرهما.
كرهت السكن مع الشقيقين، وأردت الانتقال إلى شقة أو فندق آخر، لكن سلمى اقنعتني بالبقاء، لئلا يستاء الشقيقان منها.
ماتت نشمية مغمومة على ولديها الخائبين، وبعد عشر سنين اغتمت سلمى من حالهما: شقة مستأجرة وسيارة قديمة وزجاجات نبيذ منزلي ومناشف وبطانيات وأرواب ونعل مسروقة. لديهما مشاريع وهمية كثيرة، يقضيان ساعات في وصفها، لم ينفذا منها سوى دكان للمأكولات الجاهزة والعصائر.
سخر مقرن من صديقهما، ابن الفلسطيني المتجنس، لأن الصديق مغرم بمضيفة طيران فرنسية، صادقها بواسطة الأخوين، والطريق على مسكن المضيفات يمر بهاشم، هو دلّ الأخوين عليه.
عمل هاشم العازب موظفاً في شركة الطيران. ترددت مضيفات على شقته، وكل المضيفات يسكن في مبنى واحد بأمر المطاوعة. أمام المدخل حراس أشداء، لا تخرج عيدان المسواك من افواههم إلا للضرورة، وتبدو سراويلهم العسكرية وكأنها غسلت بماء حار فانكمشت، فلا تمس أطرافها أحذيتهم، كما يأمرهم بذلك شرعهم. وفي بلد المطاوعة ممنوع خروج النساء لوحدهن، والمطاعم للرجال وللعائلات أماكن خاصة مسورة، ولا سبيل لطرد الملل من نفوس المضيفات سوى لقاءات عابرة، وغالباً مع موظفي شركة الطيران المحلية، وفي شقة خالهما هاشم تعرف مقرن على مضيفة إنكليزية، وتوطدت المعرفة بينهما إلى صداقة حميمة.
هزأ مقرن من صديقه المتجنس بعد خطبته للمضيفة الفرنسية، وكل المضيفات في نظره يصلحن للصداقة والمتعة لا الزواج. ردد بأن الفرنسية ستلبس صاحبه القرون، واستشهد بسلوك صاحبته، التي عملت مضيفة في الخطوط الشاهنشاهية ولا تمل من تذكر صديقها الإيراني. نقل عنها بأنها كانت في بيت صاحبها عند خروج تظاهرة كبرى للثوار، ولم تشاهد المتظاهرين لكنها شعرت هي وصاحبها باهتزاز الأرض تحتهما.
بعد عشر سنين من زواج سلمى كان الخالان والأخوان عزاباً، وكلما التقى بهم زوج نشمية سخر منهم:
- مكانكم الطبيعي بين أغوات الحرم.
أغوات الحرم هم خدام الحرمين، ومنذ زمن معاوية أو ابنه يزيد أحضروا في كل عام عدداً من أطفال الأفارقة السود. يدعون بأنهم منذورون من أباءهم لخدمة الحرمين، وعلى الأغلب هم مسترقون مختطفون من قبائلهم.
من أقوال زوج نشمية المفضلة التي يرددها على مسامع أفراد عائلته:
- لا تسخر من أخيك يشفيه الله ويبتليك.
لم يشفى الفلسطيني من غرام الفرنسية وتزوجها. تذكره عقاد بعد سنين. سمع بأنه محبوس بتهمة الاتجار بالمخدرات، وبعد فشل وساطات واسترحامات أبيه في إطلاق سراحه اقترح أحدهم عليه الاستعانة بمغنية لبنانية معروفة، وبالفعل خرج من السجن بجاهها عند الأمراء.

استهان مقرن بتحذير أبيه من عواقب السخرية من الآخرين، وبعد أشهر من الاستهزاء بزواج صديقه من المضيفة الفرنسية تزوج هو من صديقته المضيفة الإنكليزية.
سلمى وعقاد غير راضين عن زواج أخيهما من الأجنبية، ولو كانت والدتهما على قيد الحياة لأوقفته. تهيب عقاد من مفاتحة مقرن بمعارضته للزواج خوفاً من طبعه الحاد، وترك المهمة لسلمى التي لم تتردد:
- انت تظلمها بالزواج منها، هي من بيئة مختلفة، ومعتادة على نمط حياة معين، ولن تستطيع العيش معك هنا.

رفض مقرن نصيحة أخته. أخبر زوجته باعتراض أخته على الزواج لأن لسانه سائب مثل أخلاقه، لذلك كرهتها الإنكليزية، وانتقمت منها بعد حين.

34

- كل الرجال في عائلتي أنانيون.

كان هذا جواب سلمى على سؤال خطيبة خالها نوفل. سلمى تعرفهم جيداً، لأن أبيها أناني كذب على أمها، والخالان لا اشتريا لحداً لأختهما ولا ترحما عليها، وهي التي أنقذتهما بزواجها من الفقر، وشقيقا سلمى أنانيون أيضاً، وبعد زواجها تركا أمهم تكابد المرض والوحدة في بيروت، ليتفرغا للهو مع خالهم والمضيفات.

بعد أن ناهز نوفل الستين أراد ذرية ليورثهم أمواله. تحمس فجأة للزواج، وتقدم لخطبة فتاة متجنسة، في عمر سلمى، وأمها من بلد أوروبي، رفضته فألح، ولو أخذت بنصيحة سلمى لما قبلت به.

- سألتني عن رأيي في خالي نوفل؟ هل أكذب عليها وامتدحه، أم أقول لها الحقيقة؟

الصراحة مثل المواد الكاوية، ومفعولها مذيب لأقوى عرى القرابة والصداقة. خذل نوفل سلمى أكثر من مرة، وما تزال محتارة في تفسير سلوكه: هل هي الأنانية أم كلماتها الصريحة، التي نقلتها له زوجته فيما بعد، أو الإثنين؟

بعد الزواج بأشهر طلب مني نوفل سرقة كتاب من مكتبة الجامعة الأميركية، يرد فيه ذكر عائلته، رفضت، وربما اعتبر رفضي إدانة له. بعدها بسنين وعدني وأخلف، فهل كان ذلك رداً على رفضي؟

لكنها ليست تشنجية، وبالتأكيد إرادية، سم مغلف بابتسامة.

في يوم عقد قران نوفل توقف الخالان في شقتنا. كنت أعمل في وظيفة أكاديمية وغبت لانشغالي بمهمة رسمية. تتذكر سلمى توتر أعصاب خالها، والذي لم يخفف منه وجود أخيه هاشم بجانبه. أسهلت بطنه، وبعد رحلة أخرى لدورة المياه قال لسلمى:

- اتعجب كيف استطاع زوجك حضور عقد زواجكما وحده.

كان المفترض أن يتزوج هاشم قبل أخيه نوفل، ما بين زواج نشمية وزواج أخيها الأصغر أربعون عاماً، هي تزوجت قبل العشرين من عمرها، وهو تزوج قبل أن يناهز الستين، كانت الفرصة الأخيرة لزواج نوفل، أما زواج هاشم فتطلب معجزة، وهو بالتأكيد أدرك ذلك، ولعله شعر بالاستياء في قرارة نفسه في يوم زواج أخيه، ولذلك قال لأخيه ساخراً:

- سلمى تنصحك باستعمال فلينة.

أكدت سلمى لنوفل بأنها لم تقل ذلك.

جذور سخرية هاشم كامنة في نفسه المريضة، الكلام الطيب أثيري، يصعد إلى الله، أما أكاذيب هاشم ثقيلة، ولا يتخلص منها العقل بسهولة، هو يدرك هذه الحقيقة جيداً، لأن عرجه حرمه من السعادة يمكر ليشقى غيره أيضاً.

تعلم مقرن وعقاد من هاشم السخرية، وفاتهما أن خالهما محترف. تدرب عليها منذ الصغر، حتى اتقنها، وسلمى الوحيدة التي تجرأت على نصحه بالكف عنها، بعد امتعاضه من سخرية مقرن وعقاد والتي بسببها تركه سائق سيارته. قالت له: أنت علمتهما السخرية فلماذا تغضب لو مارسها تلاميذك عليك؟

سخر هاشم من الناس لعقدة في نفسه، لكنه لم يضحك أبداً في النهاية. استاء هاشم من سخرية ولدي شقيقته، لكنه لم يلم نفسه على زواج مقرن بأجنبية، ولولاه لما تعرف عليها. وأجبرته السخرية فيما بعد على الاستقالة من وظيفته المرموقة في شركة الطيران، ولم يكن هو الساخر بل مضيف ضبطه أحد الركاب مع مضيفة في الوضع المحظور داخل دورة مياه الطائرة، فاشتكاه لإدارة شركة الطيران. الموظف مواطن والمضيفة أوروبية، وبعد التحقيق مع الإثنين أصدر هاشم أمراً بطرد الموظف المخالف. أرسل الموظف المطرود استرحاماً للمسؤول الكبير المشرف على الشركة، ويقال بأنه ضحك كثيراً لدى سماعه بالقصة، حتى

استلقى على قفاه العريض، ثم أمر بإعادة الموظف إلى وظيفته. وبعد عودته للوظيفة انتقم الموظف المطرود من هاشم. تعمد المرور أمام مكتب هاشم كل يوم، ليسمعه صوته وضحكاته. صبر هاشم أياماً ثم قدم استقالته فقبلها المسؤول الكبير.

أكبر خسارة في حياة هاشم حدثت في بيت أخيه نوفل. سخريته حرمته من الأصدقاء، واستقالته أبعدت المنتفعين المتملقين عنه، ولم يبق له سوى أخوه. أكثر من التردد على بيته، وقضى الأسابيع مع عائلته. صبرت زوجة نوفل على مزاحه وقصصه السمجة طويلاً، حتى حضرت والدتها الأجنبية.

بذل هاشم كل جهده لتسلية زوجة اخية ووالدتها، وروى لهما أحداثاً طريفة، أو هكذا ظن، مثل قصة المضيفات عاريات الصدر اللواتي دعاهن لتناول الطعام والسباحة في بيته. تشاجرت المضيفات الأجنبيات في حمام السباحة، وتطور الشجار إلى تدافع وعراك بالأيدي، انقطعت بسببه حملات صدرياتهن، وانكشف بعض القليل المستور من أجسادهن، واجتذبت الأصوات السائق والطباخ وزوجته، ومن بعدهم هاشم.

عندما سمعت زوجه نوفل باستياء سلمى من سلوك أفراد عائلتها كان هاشم أول من خطر بذهنها:

- هاشم هو المسؤول، أليس كذلك؟ لا حدود لسخريته.

أضحكت قصص هاشم أخاه، لكن زوجة نوفل وأمها اكتفيتا بابتسامات مجاملة، وفيما بعد أبدت الأم لنوفل استياءها من قصص هاشم الذي أبلغ أخاه بها. غضب هاشم وتوقفت زياراته المنتظمة لبيت أخيه.

35

تزوج نوفل لينجب أبناءاً يرثونه، وكل ما أراده من الزوجة رحمها وبويضاتها، وبعد ولادة الأبناء أهملها. اشتكت لسلمى بصراحة:
- جربت كل شيء من دون فائدة.
لم تذكرها سلمى بتحذيرها. قالت لها كلهم أنانيون، وأولهم نوفل الذي استولد زوجته ثم استبقاها مربية لأبنائه.
تقاعد نوفل ليتفرغ لتسيير حياة زوجته وأبنائه، وكل القرارات بيده. إذا نطقت الزوجة بكلمات تتفحص عيناها وجهه للتأكد من رضاه عنها. منعها من التواصل مع صديقاتها، لأنهن في عمرها، وشجعها على مصادقة زوجة صديقه الوحيد، لأنها بعمر والدتها.
تصف سلمى زوجة خالها:
- أخبرتني بأنه يختار لها ملابسها، ويمنعها من ارتداء ملابس مناسبة لعمرها، حتى مجوهراتها أودعها في خزانة بأحد المصارف. استأذنته أمامي للسماح لها باستعمال بعضها فلم يرد عليها.
حولها من امرأة إلى دمية، ومن متوسطة الجمال إلى قبيحة. اقتناء زوجة جميلة وصغيرة مفخرة لبعض الرجال، يتباهون بهن مثل كأس بطولة لدى رياضي متقاعد، إلا هو، أراد إطفاء نظارة شبابها فلا يفترض أحد بأنه أبوها لا زوجها، وقَبّحَ منظرها حتى تعافها العيون، وحطم إرادتها لتكون دمية قبيحة مستهلكة. لو بحثت تحت ملابسها فلن تجد يده تحرك الدمية، ولا تمتد بين رأسها وأطرافها خيوط يمسك بها زوجها القابع في مكان خفي عن الأنظار. الخيوط موجودة لكنها غير مرئية، ويداه تحركان الدمية لكن بالإيماءات واللغة غير المحكية بينهما، وهي بالتأكيد ليست مثل ترلبي، لأنها من دون مواهب، ولا هو بدهاء ومكر تسفنجالي، هو مجرد شخص أناني، في مجتمع يضع النساء خلف القطيع.
لذلك استحق سخط ونكران ابنه:
- تمنيت لو كان خالي هو والدي.
حتى الدمى لها طاقة احتمال. اتصلت سلمى يوما بخالها نوفل، وبعد المقدمات المعتادة سألته عن زوجته فرد عليها: نائمة. تكرر السؤال والجواب في مكالمة ثانية، فازدادت شكوك سلمى، ثم اكتشفت أن نوفل كذب عليها. كانت زوجته راقدة في السرير بالفعل، لكن في المستشفى لا في بيتها، وفي بلد آخر. أخبرها هاشم بالحقيقة. لسانه سائب، ولا يتحمل الاحتفاظ بالأسرار الدسمة لنفسه، حتى لو أغضب أقرب الناس إليه. لم تشتكي زوجة نوفل من مرض عضوي، بل أصيبت بانهيار عصبي حاد. نفذت طاقة احتمال الدمية فظهر شرخ فيها، ونقلها إلى مستشفى خارج البلاد، حتى لا يعرف الناس بالحقيقة.
اتصلت سلمى بها، كان صوتها ضعيفاً ومبللاً بدموعها.
أخفى نوفل انهيار أعصاب زوجته. تهمه السمعة وأن تكون صورته هو وعائلته في أعين الناس براقة ومشعة بالقوة والنجاح ورباطة الأعصاب. في وسط صورة عائلته المثالية يقف هو ووالده البوشامي، ولا مكان فيها لزوجة مهزوزة الأعصاب، ولا حتى خلف الرجال، ولأن الصورة مهمة كذب على زوجته، عندما سألته عن سبب عرج أخيه هاشم فأجابها: حادث، وبعد معرفتها بالحقيقة من سلمى سألتها بسذاجة فائقة:
- لم كذب علي؟
الجواب واضح: لأن المرض مثل بقعة صفراء على صورة عائلة نوفل لنفسه تشوه منظرها.
في آخر زيارة لسلمى إلى بيت خالها نوفل قبل مقاطعته لها صدمت بمنظر زوجته. هرمت قبل أوانها، وتعمقت التجاعيد المبكرة على وجهها، وازدادت رجفة يديها. صفناتها متكررة، ونظراتها شاردة، وابتساماتها مغتصبة. اقتربت الدمية من حافة الانكسار.
في إحدى الأمسيات أبكرت زوجة نوفل إلى النوم. في سنوات الزواج الأولى كان هو ينام مبكراً وهي تسهر. اختفى نوفل دقائق وعاد وفي يده ظرف كبير، فتح الظرف وأخرج منه رزمة صور.

فرد نوفل الصور على الطاولة أمام سلمى. بينها صور قديمة لنوفل وصديقته الأمريكية السابقة أنيتا في الجامعة وأخرى حديثة لهما مع شخص غريب. زارها في بيتها مع زوجها الأمريكي قبل سنوات واستعادا أمامه بعض ذكرياتهما، وأخبرته بأنها ما زالت ترسم ولوحاتها الفنية معلقة على جدران بيتها. ابتسم الزوج لقول زوجته:

- أفضل لوحاتي رسمتها أثناء علاقتي مع نوفل.

أول ما خطر ببال سلمى احتمال رؤية زوجة خالها المسكينة لصور نوفل مع أنيتا في عز شبابها وجمالها واصابتها بنوبة اكتئاب أخرى.

- يا خال أخشى أن تعثر زوجتك على الصور.

اكتفى بالابتسام، واحتارت سلمى في فهم تصرفاته: هل يريد أن تكتشف زوجته الصور؟ ستنتكس حالتها النفسية بدون شك، لكنها لن تفعل شيئاً، روضها زوجها جيداً، وبالأصل ليس لها أنياب أو مخالب مثله.

أعاد نوفل الصور إلى الظرف. وراء مقعده تذكارات والده البوشامي، هو الآخر ترك وراءه صوراً، يتوسط فيها فتيات أجنبيات، وآخر زوجاته في عمر أبناءه.

ذكرتني شجرة العائلة المعلقة بجانب صورة البوشامي بشجرة في حديقتي. بعد أن تورق الشجرة في الربيع، وقبل أن تزهر تغزوها قرادات قبيحة تقرض أوراقها. تتكاثر الحشرات بسرعة وسرعان ما تنخر كل أوراق الشجرة، لكنها تبقي على القليل من كل ورقة. لو التهمت القرادات كل الأوراق فستموت الشجرة، وفي الربيع القادم لن تجد ذريتها الغذاء. لو تمعنت جيداً في ورقة نوفل المتفرعة من غصن البوشامي من شجرة العائلة ستجدها مليئة بالثقوب لأن جرادات الأنانية لم تبق من ورقته سوى قلبه المتحجر.

بعد غياب طويل عدت لشجرة العائلة، وما أن تسلقتها حتى طارت بي إلى مكان عند تخوم الصحراء. حلقت فوق جسر طويل بين البر وجزيرة، ثم انحدرت حتى كادت تلامس مصابيح الجسر العالية. شاهدت عشرات من العمال الأسيويين منهمكين بجمع علب البيرة الفارغة المنثورة على طول الجسر. المشروبات الكحولية محللة في الجزيرة وعلى البر محرمة، وفيما بينهما الجسر آخر الفرص لاقتراف المحرمات للعائدين من الجزيرة.

عند بداية الجسر من ناحية البر هبطت الشجرة بجانب مركز حدودي. تجمهر عدد من حراس الحدود السمر حول سيارة فخمة. مد أحدهم برأسه داخل النافذة الخلفية، وتبادل بعض الكلمات غير المسموعة مع ركابها، ثم انفتح باب السيارة وهبطت منها سيدة. كانت الراكبة الوحيدة في السيارة، بالإضافة إلى السائق. غطت رأسها المنكس بطرحة، فلم أتبين وجهها.

اقترب عسكريان من أسفل الشجرة، وأشعل أحدهم سيجارة. نهره زميله:

- لو يراك العريف فستسمع منه ما لا يرضيك.

امتص الثاني نفساً طويلاً من سيجارته، وابتلع الدخان، ثم أعاد السيجارة إلى مخبئها بين أصابعه:

- العريف مشغول بالسيدة المتجنسة زوجة سليل العائلة الكريمة.
- مسكينة لم يتوقف بكاؤها.
- المسكين الوحيد هو السائق الباكستاني.
- ماذا تقصد؟
- واضح سيلبسونه التهمة.
- وهل تشك بأنهم يعرفون بتهريب الممنوعات؟
- الله أعلم، قال السائق بأنه يعمل لدى العائلة منذ سنين، فهل من المعقول أن يكتشفوا الآن فقط بأنه مجرم؟
- تقول الإخبارية التي وصلت المخفر بأن له شركاء، وأن المخبرين تتبعوه في المنامة وشاهدوه وهو يشتري صناديق الخمور.
- السيارة ملك سليل العائلة المحترمة، والراكبة زوجته، والسائق يعمل لديهما، ولو أخذنا بالظواهر فلماذا نشتبه بالسائق وحده؟

- ستقول لأنه أجنبي؟
- بالله عليك عندما يقع حادث اصطدام بين سيارة مواطن وسيارة أجنبي على من توضع المسؤولية عادة؟
- كل المصائب من الأجانب.
- وشهد شاهد من أهلنا.
- اتصل العريف بمالك السيارة ليخبره بالقضية وطلب منه الحضور لتسوية القضية واستلام زوجته فرد عليه بأنه سيرسل ابنه.
- لو كنت أنت في مكانه فهل سترسل ابنك أم تطير بملابسك التي على جسمك، إن شاء الله سروالك الداخلي فقط، لتكون بجانب أم عيالك وهي وسط جنود وشرطة وقضية تهريب خمور؟
- ماذا سيحدث عندما يحضر الابن؟
- يستلم الوالدة وتحجز السيارة وسيدفع غرامة كبيرة.

صعقت سلمى لدى سماعها الخبر وبكل تفاصيله المخجلة من هاشم. خذله نوفل في السابق كما خذل زوجته. سطا لصوص على بيت هاشم. أفاق اثناء عملية السطو وحاول إيقاف السارق فضربه على رأسه بحديدة. نقلوه إلى المستشفى، وتبين أن أصابته خطيرة. اكتفى نوفل بالاتصال هاتفياً بأخيه ليطمئن على سلامته. وبعد استماع نوفل لتوبيخ سلمى القاسي رد عليها: أنا متمسح وللتمساح جلد سميك.

36

ثلثا الولد للخال، وفي حالة مقرن وعقاد الثلثان رديئان. تعلما السخرية من خلق الله من هاشم والتشبه بالغربيين من نوفل، وكان في نية نوفل التزوج بأجنبية، أنيتا أو سكرتيرته، لكن نشمية منعته، وفعلها مقرن، أما عقاد فقد أخلص للعزوبية مثل خاله هاشم.

يهاب الناس مقرن بسبب ضخامة جسمه وصوته العالي وشراسة طبعه، ولم أتأكد بأنها مجرد مظاهر فارغة حتى اختبرها شاب إنجليزي وقح. كنا نتمشى على كورنيش مدينة ساحلية في جنوب إنجلترا عندما أهانه الشاب لسبب تافه. كان أقصر وأنحف من مقرن، ووصف مقرن بالخنزير، فابتلع الإهانة وسكت.

الزواج بأجنبية في بلد مقرن محظور، إلا بموافقة عليا، فاحتار مقرن في تدبير رخصة الزواج، واهتدى أخيراً إلى جارته في عمارة المتجنس زوج المضيفة الفرنسية. الجارة سيدة مغربية في أواسط العمر، تعمل مضيفة أرضية ومعروفة بصلتها بمسؤول كبير في الدولة يكفي امضاؤه لحصول مقرن على الرخصة.

لو ورث مقرن ذرة من عزة نفس جده البوشامي أو أمه نشمية لما قصد المضيفة المغربية قهرمانة مضيفات المسؤول الرفيع الذي أمر بإعادة المضيف المتلبس بممارسة الجنس في دورة مياه الطائرة إلى وظيفته. وقف مقرن أمامها صاغراً وبيده الطلب، وأعادته القهرمانة بعد أيام ممهوراً بالموافقة.

يدعي مقرن بأن زوجته أسلمت في الأزهر. نطقت بالشهادتين أمام أحد المشايخ فاعتبروها مسلمة، وعقدوا زواجهما. مقرن مسلم بالاسم فقط. إذا دعي للصلاة في بيت أبيه سارع للوقوف خلفه وتقليده في الركوع والسجود، ولكني أشك بأنه يحفظ سورة واحدة، وهو لا يخفي احتقاره للأديان وكل المتدينين، وفي آخر صورة له أرسلها لأخته بيده كأس من النبيذ.

تردد سلمى:

- أول ما تفعله الزوجة الغربية ابعاد زوجها عن أهله وأصدقاءه.

تقول بأنها سمعتها من أخوات وقريبات رجال تزوجوا من أجنبيات. سبقتهن جميعاً زوجة مقرن، وباشرت المكر للتفريق بين الأقارب من قبل الزواج.

تلوم سلمى أبيها لأنه لم يعترض على زواج مقرن من المضيفة الإنجليزية، وفاتها أن زواج الابن بالنسبة للأب الذي تزوج بأربعة مهم ليبرهن للجميع بأن مكان ابنه ليس بين أغوات الحرم المخصيين.

حتى اليوم سلمى محتارة في فهم الخلاف المزمن بين أخيها مقرن وخالها نوفل. لا تصدق بأن ما حدث بينهما في بيت هاشم كافياً لقطيعة دامت ثلاثين عاماً ولم تنتهي بعد. أراد زوج نشمية تهنئة نوفل وزوجته بالزواج. أوصله مقرن وخطيبته بالسيارة، وكانت تلك أول مرة يشاهد فيها خطيبة ابنه مقرن أيضاً. وفي بيت هاشم جلس زوج نشمية مع نوفل وزوجته في غرفة، ومقرن وخطيبته في غرفة أخرى، وبعد انتهاء الزيارة أصر نوفل على إيصال ابن عمه إلى بيته، فاعترض مقرن، وثار جدال بينهما لم يشهد هاشم منه سوى المشهد الختامي.

تشبه سلمى أخاها مقرن بلعبة رخيصة. الاثنان يحركهما مفتاح. تدير مفتاح اللعبة المركب في ظهرها فتتحرك، ومفتاح أخيها في ذاته المتضخمة بالنرجسية والغرور، ولتحريكه يكفي أن تقول له الإنجليزية: هل ستسكت على إهانة خالك نوفل لنا؟

أفضى الخلاف التافه إلى عداوة يغذيها مقرن، بتحريض من زوجته كما تظن سلمى، برسائل التهديد، يرسلها عبر أطراف ثالثة بين حين وآخر. آخر رسائله إلى خاله نوفل: لو رأيته في الشارع فسأبصق عليه. لا يشك نوفل في جدية مقرن لأنه فعلها من قبل، وكان البادئ نوفل. بصق على مقرن فرد عليه بمثلها.

بعد عشرين عاماً من البطالة أسس مقرن وعقاد شركة مقاولات. كانت خطوة متأخرة جداً. اكتفيا بالتفرج والتحسر على طفرة العقار، وبالكاد لحقهما رذاذ موجة أثرياء حروب الخليج، ولم ينجحا إلا في استغلال

الأجانب. وفرا لهم رخص العمل، وتقاسما معهم الأرباح، ولكن لم يطل الوقت قبل أن يدفع استغلالهما ومضايقاتهما بالأجانب إلى ترك العمل في الشركة. اشتكى عقاد لسلمى:

- انا أتوسل للناس ليعملوا معنا، ومضايقات أخيك تهربهم. قبل أيام وأثناء اجتماعي بمجموعة من المستثمرين في قاعة اجتماع الشركة شوشت علينا أصوات عبث أخيك بلعبة في مكتبه الملاصق.

بعد الزواج استأجر مقرن مسكناً لزوجته في البحرين. زارتهما سلمى وكان غداؤهم طبق معكرونة. أعدت سلمى لأخيها طبقه المفضل فتناوله بنهم. لم يرق ذلك لزوجته وعبرت عن انزعاجها لسلمى:

- لن أتعلم إعداد هذا الطبق حتى لا يتوقع أخوك رؤيته على المائدة كل يوم.

بعد العصر استقبلت سلمى صديقتها البحرينية في بيت أخيها. تذمرت زوجة مقرن من جرأة الصديقة التي سألتها:

- متى تنويان إنجاب أطفال؟

ردت عليها بجفاء بأنها لا تريد أطفالاً، لأنها قضت طفولتها وأول شبابها في العناية بأخوتها الصغار. وبعد تردد طويل سألت سلمى أخيها عن الموضوع فأجابها:

- لا تستطيع الانجاب. انفجر مصرانها الأعور قبل الزواج فانسد رحمها.

سمعت سلمى بالحالة من قبل وتعرف بأنها قابلة للعلاج.

- عملية بسيطة ويعود كل شيء إلى طبيعته.
- لا أريد لها أن تخاطر بحياتها لتحقيق أمنيتي.

تناولا الغداء في اليوم التالي في مطعم على البحر، ارتاده مقرن وزوجته مرات عديدة، حتى أصبحا وجهين مألوفين في المطعم. رحب مدير المطعم بهم ثم خاطب مقرن وزوجته بصوت خافت:

- يقولون أن الخمور ستشح في السوق بعد اصدار أمر للوكيل بوقف استيرادها.

من يعرف هوية الوكيل يدرك بأن الخبر مجرد إشاعة، ولكن زوجة مقرن صدقته:

- مقرن يجب أن نتمون.

تقول سلمى: كنت أتوقع من ابنة مدمن على الخمور هجر عائلته وتركهما للفقر والحرمان أن تخاف على زوجها من تكرار تجربة أبيها وعلى نفسها من مصير مثل مصير أمها التي تقبض معاشاً من الضمان الاجتماعي وتسكن في شقة تخصصها البلدية للفقراء.

بعدها بأيام أخبرها عقاد بأن مقرن حضر إلى الشركة في اليوم التالي وكان في حالة استياء شديد، وكرر عليه ما قالته زوجته في المطعم بعد انصراف سلمى لغسل يديها:

- أخبرتني اختك بأنها تحب زوجها وأولادها أكثر من أخويها وبقية عائلتها.

صدق مقرن وشاية زوجته، ومن يعرف سلمى يتيقن بأن مثل هذا الكلام لا يصدر عنها. تلك كانت أول خطوات زوجة مقرن للوقيعة بين مقرن وسلمى، لم تكن كافية لهدم جسر الأخوة بينهما، لكنها أحدثت شرخاً فيه، فأتبعتها بخطوات أخرى.

صدقت توقعات سلمى. بعد شهور من الزواج ملت زوجة مقرن فسافرت وتركت مقرن. اشترى لها شقة في لندن، يزورها كل بضعة شهور. ترجاها لتعود معه فأجابته:

- أليس الأفضل لو تسكن أنت معي ويحول عقاد لك حصتك من أرباح الشركة؟

يتمنى مقرن ذلك، لكنه يخاف من ردة فعل أخيه، ولو غضب فقد يفض الشراكة بينهما.

بعد شقة لندن اشترى مقرن لزوجته منزلاً فخماً في جنوب فرنسا، سدد ثمنه من أموال الشركة ومن دون علم أخيه. غضب عقاد، فوعده مقرن بإرجاع المبلغ بعد بيع شقة لندن، لكنه أخلف وعده لأن زوجته عارضت. ردد مقرن سبب اعتراضها:

- تقول بأنها متعلقة عاطفياً بالشقة.

تحلل سلمى تصرفات زوجة أخيها:

- هي بدون أطفال لذلك تريد نقل ما تستطيع من أمواله إلى الخارج، لتكون هي وريثته الوحيدة.

تحب سلمى أخاها، لكنها لا تخدع نفسها، تعرفه على حقيقته، ولا تصدق بأن المضيفة تزوجته عن محبة، لأن أخاها من دون صفات محببة. ذكاؤه محدود وعصبي ومزاجي ومتعجرف. أهدته يوماً فنجان قهوة نقشت عليه العبارة التالية بالإنكليزية: أنا نسر أحلق عالياً وبقية الناس دواجن.

قال عقاد:

- تعلق بالفنجان، لا يشرب القهوة إلا فيه، ولا يسمح لأحد بغسله، انكسر وهو يغسله فحزن عليه.

اتصل مقرن بأخته، ليبشرها بأنه ستكون عمة. فرحت في البدء، لكن فرحها لم يدم. أخبرها بأن زوجته ستتبنى ولداً من علاقة غير شرعية بين عراقي وانجليزية. اختلف الأبوان حول مستقبل الولد. أراد الأب الاحتفاظ به واصرت الأم على التخلي عنه لمقرن وزوجته، وحكمت المحكمة لصالح الأم. صعقت سلمى لسماع القصة:

- لا يجوز يا أخي أن تحرم الأب من ابنه، مكانه الطبيعي مع أبيه، حتى لو كان ابن حرام.

نصائح سلمى ثقيلة على نفس مقرن. بعد أشهر سالها:

- أفكر بتسجيل ربيبنا باسمي. ما رأيك؟

اجابته من دون تردد:

- لا يجوز.

ذكاء مقرن محدود، لكنه كاف ليدرك بأنه أخطأ بسؤال اختده، لأنها تعرف الحقيقة الآن، ولو تظاهر بأن الولد ابنه فلن تكتم الأمر، ولن يرثه الولد، كما تريد زوجته.

37

يرسم عقاد لنفسه صورة مرتشة مثل وجه عجوز اختفت ملامحها الأصلية بعد عمليات جراحية تجميلية وزرق أبر دهن تحت الجلد. صادفته صديقة سلمى مؤخراً في مجمع تجاري، وبالكاد تعرفت عليه. وصفت لسلمى لقاءهما القصير:

- قلت له بأني حزينة على ابنة سلمى فأجابني بأن صحته جيدة. توترت أعصابه لسماع اسمك وراحت الجلدة الطويلة المتدلية من عنقه تهتز مثل ديك رومي.

ظهر الشرخ في شخصية عقاد في الصغر. كان ضعيف البنية ومعتل الصحة. قضى طفولته وشبابه في مدارس داخلية، وكان أخوه الحامي والمضطهد في نفس الوقت، يحميه من اعتداء الطلبة الشرسين، مقابل ثمن. تذكرت سلمى مثالاً على معاملة مقرن لعقاد:

- كانت والدتي تسلم مصروفهما الاسبوعي لمقرن. يعطي عقاد القليل، ويقول له هذا من عنده لا من عند والدتنا.

الناس في نظر عقاد صنفان: أما معه أو في صف مضطهديه. فقد أول حراسه بوفاة والدته، وابتعدت سلمى بزواجها، واصطف خاله هاشم مع نوفل ضده، فلم يبقى له غير مقرن، يحميه ويضطهده في نفس الوقت، مثلما يعامل بلطجي الخاضعين لابتزازه وشقاوته.

كان خلاف عقاد مع خاله نوفل متوقعاً، بعد سخط مقرن على نوفل. لم يمض وقت طويل حتى رضخ عقاد لابتزاز مقرن. اختلف مع نوفل على مسألة ثانوية، ورفض التسوية والمصالحة، وتحول الخلاف إلى قطيعة. بعدها قال مقرن لسلمى:

- انا وعقاد قاطعنا نوفل فلماذا تبقين على صلاتك به.

مثل كل ضحايا الاضطهاد، الحقيقي منه والمتوهم، يلجأ عقاد للكذب، ويمثل الأدوار. كان يحب السينما، ويتمنى أن يكون مخرجاً سينمائياً، لولا رفض والدته للفكرة. يكذب عقاد ليخلق انطباعاً حسناً لدى المتلقين، أو لئلا يظنونه ضعيفاً فيضطهدونه، ومهاراته في التمثيل محدودة. رافقته في عدد من زياراته لرجال أعمال، وشاهدت عروضه التمثيلية، وتأكدت بأن مشاريعه التي عرضها عليهم مثل قطع الحلوى في واجهة دكان حلواني، مصنوعة من الكرتون، وحتى لو خرج صاحب الدكان وقال لك بأنها بالفعل قطع حلوى فلن تصدقه. لا يتقن عقاد صناعة الحلوى لكنه يمثل ويتظاهر، ولديه كل ما يحتاجه المحتالون من وسائل ناجحة، سمعة عائلته النجدية وشهادته وبدلاته الثمينة، وستنطلي حيله على البعض، إلا إذا مد أحدهم يده وتناول قطعة حلوى ليكتشف بأنها مصنوعة من ورق مقوى.

كل موظفو عقاد متورطون في إعداد قوالب الحلوى المزيفة، ويؤدون الأدوار التي يوزعها عليهم، لتستمر التمثيليات، ولكن لا يمر وقت طويل حتى يضجر الموظف أو يصحو ضميره أو يفقد صبره على مضايقات مقرن. لم يغادر البعض منهم بصمت. اختلقوا المشاكل لعقاد وأخيه، ومدوا أيديهم للحلوى الحقيقية داخل المحل.

أول الطامعين مهندس. رفض رشوة من عقاد، ليقنعه بمشاركته في مشروع في لبنان، وحصة عقاد نصف مليون دولار. صار ذريعة لسفرات عقاد المتكررة إلى بيروت، بعد إحدى سفراته قال لي:

- جدران مكتب شريكي المهندس مكسوة بالمرايا، أجلس في صالة الانتظار مع سكرتيرته الجميلة وأبصبص على انعكاس صورتها في المرايا.

عقاد هو الوحيد بين الرجال الأربعة من دون علاقات نسائية. تتردد مضيفات الطيران على بيت هاشم الأعزب بانتظام. يستمتع برفقتهن على مائدة طعامه، ويسمح لهن بالسباحة في بركة السباحة في بيته. نوفل متزوج ويحتفظ بصور لعشيقاته السابقات، ومقرن متزوج، ويتباهى بصاحباته أيام الدراسة في أمريكا، أما عقاد فلا يجد ما يتفاخر به سوى اختلاس النظر لمحاسن سكرتيرة شريكه اللبناني. لم يكن عقاد في وقتها في سن المراهقة أو يعيش حالة مراهقة متأخرة.

فشل مشروع المهندس، وخسر عقاد نقوده، لكنه لم يقطع صلاته بالمهندس، ووظفه في شركته براتب ضخم وحصة من العوائد. بعدها بشهور نشب الخلاف بينهما حول أمور ثانوية في البدء، ثم تطور إلى مطالبة المهندس بشراكة تامة في الشركة، فطرده عقاد.

بعد المهندس جاء دور المحامي.

امتدح عقاد وكيله المحامي في بيروت أمامي بهذه الكلمات: شاطر وزوجته جميلة جداً. وكّل عقاد المحامي، وأسس له شركة وعينه مديراً لها. لا يحضر المحامي إلا بعد انتهاء دوام المحاكم، واكتشفت بأنه لا يفقه شيئاً في عمل الشركة، وصارحت عقاد بذلك، فغضب علي لأن "المتر" المحامي هو الكل في الكل، على حد وصفه، وبعد مدة قصيرة أفلست الشركة وأغلقت أبوابها.

اثناء عملهما مع عقاد تعرف المحامي على المهندس، وتوطدت العلاقة بينهما إلى شراكة، واتفقا على تلقين الصلف عقاد درساً بليغاً. ادعى المهندس على عقاد ومقرن مطالباً بتعويض كبير، واتهمه بالسرقة في مقال منشور مقالاً في جريدة لبنانية، أما المحامي فقد استعمل وكالته عن عقاد ليتصرف بأملاكه.

كانت سفرات عقاد المنتظمة إلى بيروت المتعة الوحيدة المتبقية في حياته، وحرمه منها المهندس ومحاميه. ينتظره في مطار رفيق الحريري الدولي في بيروت اليوم أمر قضائي بالإحضار، وعقاراته محجوزة، وحتى قطعة الأرض الجبلية التي كان ينوي بناء بيت صيفي عليها تبين له بأنه لا يمتلكها، وأن أرضه في مكان آخر.

ضاعت أملاك وأموال عقاد في لبنان، وتبخرت أحلامه بقضاء بقية سني عمره في ربوعه، متنقلاً بين شقته في منطقة الاشرفية الصاخبة ليلاً وبيته الجبلي الذي كان ينوي تشييده، وكل التحضيرات لانطلاقة مشروعه الكبير توقفت. كان ينوي انشاء مؤسسة لرعاية الموهوبين، كما قال لسلمى، تحمل اسم والدته نشمية، فاعترضت اخته:

- والدتنا كانت تساعد الفقراء والمحتاجين والمرضى، ولن أقبل بوضع اسمها على مؤسستك.

تباهى أمامها من قبل بتبرعه بمبلغ ضخم لتمويل انتاج فلم لبناني فاشل، ودفع آلاف الدولارات لتجميل فنانة لبنانية صاعدة، وبالتأكيد لم تصعد على حضنه الخالي.

غضب عقاد من اعتراض سلمى. أخفى مشاعره لكن حركات جسمه فضحتها. انتصب جسمه ثم انتفض نصفه الأعلى، وكأنه راقصة شرقية مبتدئة تتعلم هز نهديها. البعض يغمز أو يحك أنفه أو يمط شفتيه، أما عقاد فيعبر عن استياءه وغضبه بالرعص. لا يعرفون متى بدأت تشنجاته اللاإرادية، وهو عاجز عن السيطرة عليها.

بعد خسارته لأمواله وعقاراته في لبنان أصيب بأول أزمة قلبية. فشلت كليتاه أثناء العملية، وكاد أن يموت، واحتاج لنقل دم. فحصوا دم أخيه مقرن فوجدوا دماءه غير صالحة، ليس لأنها من صنف غير مناسب، بل لارتفاع نسبة الكحول فيها، وتبين بأن مقرن مدمن على الكحول.

رفض عقاد حضور سلمى، لأنها كما قال ستتشاحن مع الأطباء والممرضات، فيما بعد اتهمها بالتسبب بمرض قلبه.

بعد خروجه من المستشفى اتصل بسلمى لينصحها بتخفيض وزنها وكأنه لا يعرف بأن لا شيء يزعج النساء أكثر من موضوع الوزن الزائد. وصف طبيب القلب لعقاد حمية من الدجاج المقلي. وفي كل يوم اشترى عقاد علبة كرتونية كبيرة مليئة بقطع الدجاج من محل لبيع الأطعمة الجاهزة. لم تقتنع سلمى بوصفة طبيب عقاد ونصحته بمراجعة طبيب غيره.

من قبل انسداد شرايين قلب عقاد بالشحوم أغلقت العقد النفسية منافذ المودة ما بين قلبه وأقرب الناس إليه، بما فيهم اخته سلمى، لذلك أهمل نصيحتها، وانجرف وراء اشباع نهمه للدجاج المقلي. بعد شهور توقف قلبه للمرة الثانية، واضطروا لفتح صدره لإزالة دهون الدجاج المترسبة. سمع الجراح بعد انتهاء العملية يخاطب زميله:

- متى يكف هذا الطبيب عن تشجيع مرضاه على تناول الدجاج المقلي؟ فهذا ليس أول مريض يتسبب له بأزمة قلبية.

أغلب أصحاب الأسماء المدونة على شجرة البوشامي مصابون بضعف البصر، ورثوه لعقاد، ساءت حالة عينيه، وانفصلت الشبكيتان، وبالكاد أنقذه الأطباء من العمى.

لا يلوم عقاد نفسه على أزمات حياته المتنوعة، ويتناسى دور المحامي وزوجته الجميلة والمهندس وسكرتيرته ذات القوام الممشوق وغيرهم من الذين خدعوه وبددوا أمواله واستولوا على أملاكه، ويغض طرفه عن أخيه مقرن وبلطجته حتى لا يخسره، فلا يبقى سوى أخته سلمى وأنا ليحملنا المسؤولية عن كل الأزمات التي عصفت بحياته.

38

مكان المرأة في مجتمع الرجال الصحراويين خلف الرجال والقطيع، وبعد أن اكتشفت سلمى حقيقة الرجال تمردت عليهم، ولأن والدتها نشمية كانت راضية فلم تكن لرأيهم قيمة، لذلك انتظروا حتى وفاة الأم ليقتصوا منها، من خلال ابنتها.

حانت الفرصة لهم في وقت عسرة سلمى. اختلفت مع سياسات حكومة بلادي الجائرة، فألغوا وثائق سفري، وواجهنا خطر التشرد في المنافي. وعد نوفل سلمى بالمساعدة في تدبير إقامة لنا في بلده من دون وثائق سفر، فصدقته واتكلت عليه، لكنه اخلف وعده، فلم يبق لنا سوى الشتات، ليستقر بنا المطاف في شقة صغيرة في الشام، التي فر منها الخالان على قنطرة زواج اختهما، وكان لانتقامهم من نشمية وسلمى بقية.

ساعدوا سلمى بالقليل، وقصدهم الوحيد إرجاعها إلى مكانها خلف القطيع مع المنّ والأذى. أول تدبير أخويها الخبيث منع مساعدة الأب عنها. وعدا أباهما بالتكفل باحتياجات أختهم، فكانت الوحيدة بين اخواتها، التي حرمت من عطاء أبيها الشهري، ولضمان قبولها قالا لها بأن ما سيقدمانه لها ليست مساعدة بل هو ريع حصتها من الشركة التي قاما بتأسيسها، فاستكانت نفسها وقبلت على الرغم من معارضتي الشديدة، ولم تتبين خطأها إلا بعد فوات الأوان.

تصاعدت تدخلات الأخوين في حياة اختهما وعائلتنا مع مرور الوقت. قضينا ثمان سنوات في الغربة، لأن نوفل نكث بوعده، تلك كانت الغربة الصغرى، ثم حان وقت الغربة الكبرى إلى أقصى بلاد الغرب. يقول المثل: البعيد عن العين بعيد عن القلب، أما في حالة سلمى فقد تبين بأنها كانت بعيدة عن قلوبهم وأرادوا ابعادها عن العيون، فاختاروا لغربتها الكبرى أقصى البلاد.

قال لي عقاد:

- احرق قواربك من بعدك فلن تكون هنالك عودة.

كلماته سكين فرت جرح الغربة الندي.

زارنا مقرن في الغربة الكبرى مرتين. وفي المرة الثانية استنكر زوج مضيفة الطيران المدمن على الكحول ارتداء ابنتنا الحجاب:

- نحن لا نقبل بهذا.

بعد سبع وعشرين سنة من المصاهرة سافرت لمساعدة عقاد في إدارة مشروع له في بيروت، وبعد يوم أو يومين من وصولي صرخ بوجهي: أنت قتلت أمي بزواجك من اختي.

كذب عقاد فأخته لم تتزوج إلا بعد افناء معظم سني شبابها بجانب والدتها. أسعفتها كلما توقف قلبها عن النبض، واستدعت لها سيارة الاسعاف، وسهرت بجانب سريرها في المشافي، فأين كان هو وأخوه؟ عندما تزوجت بمباركة ورضا والدتها لم يهرع عقاد المتباكي ولا مقرن اللاهي ليحلا محلها، ولم تكن لأي منهما وظيفة يخافان فقدانها أو استثمار يخشيان كساده. كانا منغمسين باللهو، وعندما زرتهما بعد أكثر من عشر سنوات مضت على تخرجهما وجدتهما يعيشان حياة عابثة كما هو الحال يوم وفاة والدتهما. كانا يقطران الكحول في حمام الضيوف ويستعملان مناشف مسروقة من فنادق وبطانيات مختلسة من شركات الطيران. ثم نطق عقاد بالإهانة التي لا تغتفر أبداً:

- بناتك لا مشكلة لديهما، يستطيعان العيش من بيع جسديهما لو افتقرتم، لكن ماذا سيفعل ابنك؟

كنت مخطئاً في سكوتي على إهانة عقاد، وكان الأجدر بي أن أرد عليه بصفعات من نعالي، لكني كظمت غيظي خوفاً على مستقبل أولادي من الضياع. فرطت بكرامتي مقابل مال المخنث عقاد. وحتى اليوم كلما استأت من سلوك أحد أولادي أتذكر قول خالهم عقاد فأندم وأتمنى لو مت ولم أرى الشجرة اللعينة وأهلها.

سخط الرجال على النساء، وبالأخص المتمردات على القطيع متوارث، وكما ورثته سلمى عن أمها كان من المحتم أن تورثه لابنتها، وتخير الرجال الساعة لينفثوا غضبهم في ابنتها، فلم يجدوا أفضل من مناسبة

زواجها. اتفقوا وهم بالعادة مختلفون على تنغيص فرح اختهم وابنتها. وعد مقرن بحضور حفل الزواج فأخلف، ثم نهب بعض مال اخته، وعقاد الذي كان يعالج عينيه على بعد ساعة بالطائرة منهم غادر على عجل قبل اسبوع من موعد الزفاف عائداً إلى وطنه لينشر إشاعة خبيثة حول الزواج بين الأقارب والمعارف، وكانت هدية هاشم تهكماً مريراً، وحتى نوفل الذي لم يكلمه مقرن ونوفل منذ ثلاثين عاماً انضم هو الآخر للثلاثة ضد سلمى وابنتها المتمردتين على مكانهما خلف القطيع.

بعد معرفة عقاد بمرض ابنتي الخطير كتب لها رسالة لتبرير خلافه مع والدتها سلمى. لم يأت فيها على ذكر طمعه بحصة أخته من الميراث بالطبع. ملخص الرسالة في جملة واحدة: بعد تفكير طويل تأكدت بأن سبب القطيعة بيننا هو كون والدتك امرأة محافظة ونحن متحررون. لم يستولي عقاد ومقرن على ميراثها، ولم يصطفا مع خاليهما ضدها لأنها محافظة بل لأنها صادقة ومنصفة. اشمأزت من أكاذيب عقاد، وعارضت نية مقرن إلحاق ولد الزنا بنسبه وشجرة عائلتها، وطلبت من هاشم الكف عن السخرية، ونصحت نوفل بإتلاف صور عشيقته الجاسوسة الأمريكية لئلا تراها زوجته.

سلمى مثل مرآة صافية، وقف أمامها شقيقاها وخالاها فلم تعجبهم صورهم المنعكسة فيها من دون رتوش.

صدق عقاد عندما قال لمقرن يوماً:

- لماذا يكرهنا كل هؤلاء الناس؟ لا بد أن يكون السبب فينا.

بسبب خسارة مالية سكت قلب عقاد لثواني، ثم عاد للخفقان بالحقد الأسود، والذين وثق بهم بالأمس انقلبوا عليه. اشتكوا عليه في المحاكم، وحجزوا على المتبقي من املاكه، واتهموه باللصوصية.

أذعن مقرن المتعجرف لكافة طلبات زوجته. اشترى لها شقة في لندن وفيلا في جنوب فرنسا، وتبنى لها لقيطاً مشاكساً، ودفع أقساط مدرسته الداخلية، وأعد وجباته بنفسه، ونام في غرفة أخرى لأنها لا تطيق سماع شخيره، وسكت على تأنيبها له بسبب غرامة مخالفة مرورية، واكتفى بالشكوى لأخيه:

- من أين نزلت بي هذه المصيبة؟

أما الخالان فقد كانت خسارتهما معنوية فقط، وهي الأبهظ، فأخيراً نضب صبر زوجة نوفل على لسان هاشم السليط، وتهكمه اللامتناهي، ونكاته السمجة الإباحية. حرضت والدتها عليه، فكان جزاؤه النفي من بيت أخيه. هكذا تفككت أواصر القرابة بين الرجال الأربعة، الذين اجتمعوا للمرة الأخيرة صفاً واحدا ضد النسوة المتمردات على القطيع، وقد فاتهم بأن النسوة هن اللحمة الوحيدة بينهم، قبل أن تبترها سكاكين لؤمهم وأنانيتهم.

لو أنصتم جيداً لهمس شجرة العائلة فستسمعون: من ينصح النساء؟ لا جدوى من السباق، انقرض الرجال في بلاد الرمال، ولم يبقى سوى أشباه الرجال والقطعان.